

يوسف الشاروني

٤١

العشاق الخمسة



يوسف الشاروني

العشاق الخمسة

الكتاب الذهبي

يصدره نادي القصة
العدد الحادي والثلاثون
ديسمبر سنة ١٩٥٤



العشاق الخمسة

فى احدى الاماسى جلس يتلو عليهم من شعره الغنائى الحلو ، فلما انتهى منه قال :

ــ انه لا يمكنك أن تعرف قلب المرأة ، فواحدة قد تكون مدلهة بحبك ثم تنصرف الى صديقك تحدثه كلما رأتك مقبلا ، وأخرى لا تبادلك عاطفة ولا عطفا ثم تظهر اهتمامها بك كلما هممت منصرفا ، وثالثة قد تكون ذهبية الشعر ناعسة الطرف هشة الاعضاء ولها قلب ظامىء الى الحب والتحطيم والندم ..

ثم سعل سعالا يوشك أن يكون مرضا ، واستأذن فى الانصراف ، وابتلعه الصمت والظلام .. ولم يعد اليهم من يومها منذ عشرة شهور ، منذ أخبروهم أن العلة اشتدت عليه ..

ولقد أبلغوهم منذ أسبوع واحد أن حامدا قد مات ..

ذلك أنه في منتصف القرن العشرين بعد الميلاد ، كان يعيش في مصر جيل من الشباب ، شاهدوا الماضي ينطفىء وراءهم ، وشاهدوا المستقبل لغيرهم ، ولم تستطع أقدامهم أن تثبت في الحاضر .. وكان هذا الجيل يقرأ الأدب على ضوء مصابيح بترولية ، ويتابع دراساته وهو يستمع الى ضجيج المذياع في أقرب مقهى .. وكانوا يبحثون عبثا عن الفرح ، فمن حولهم تنتشر الاوبئة والاوجاع ، كما كان يشقيهم قلق وحرمان ، وهم يكافحون في بطولة حتى تتحطم أعصابهم وتمزق الوحدة أحشاءهم ، فيفقدوا الثقة في أنفسهم وفي العالم .. ومن هذا الجيل كانت مصر تتطلع الى القادة الذين سينقذونها من الانحلال والتأخر ومن كل ضروب الشقاء الذى تعانيه ..

ولقد رأيتهم تلك الليلة ، رأيتهم بنفسي بعد أن عبرت مع صديق منهم ذلك الزقاق القصير الرطب المؤدى اليهم وهو يشير الى الدكاكين التى يجدون فيهاوسائل معيشتهم ، فهناك «مكوجى الامراء » يتعهد ثيابهم بالغسيل والكى ، وهناك « صالون السعادة » يتعهد شعورهم بالقص ولحاهم بالحلق ، وهناك « مطعم الحرية » يتناولون فيه طعامهم أحيانا ، و « بقالة الامانة » يجدون فيها حاجتهم من السجائر والبن والسكر والشاى ، ثم « مقهى الوطنية » يجلسون فيه لا سيما في أيام الصيف .. وكان الزقاق ينتهي بباب خشبي كبير ، دفعناه فأحدث صريرا مسموعا ، ثم صعدنا درجات السلم الخشبي المرتفع الطويل وأنا أتوكأ على عصاة ، وكأنما أشياء خفية تتكسر دائما تحت أقدامنا .. خمس طبقات صعدناها حتى وصلنا الى غرفة في أعلا البناء .. وكانت القاهرة قد استنشقت في ذلك اليوم عبير الشتاء المتفتح لأول مرة ، وخلفت الشمس بعد مغيبها نورا الهيا ناصعا غمر الافق الغربي زمنا غير قصير ، وبدا القمر في الشرق متدثرا يخطر بين سحبه الناعمة المترفة البيضاء ، وأخذ النسيم البارد يلفح أسطح المنازل ، ويغمر في عنفوانه الشاب هذه الغرفة ذات السر الكبير ، ماضيا في رحلته الليلية خلال المدن والقرى والصحارى والبحار ..

ولقد رأيتهم جميعا والوجوم يختلط بروح التهكم في وجوههم

وساعة الجامعة تدق قريبا منا تسع دقات . وهناك سرير وسط الغرفة ، وأرفف متشبثة بجدرانها مرصوصة فوقها كتب فى الفن والفلسفة والأدب ، ومنضدة ملطخة عليها أدوات مبعثرة للرسم ، ولوحات قلائل معلقة فوق الجدران .. وفى الركن الغربى مصباح بترولى يرتجف ، رأيت على ضوئه صورة رائعة كأنما تنبعث من حلم فرعونى قديم ، حيث ايزيس العذراء جالسة ترضع من ثديها الناضج البكر ابنها الصقر حورس ، وفى شعرها وعينيها لمحات من نور الله ، وكانوا يكادون ينتهون من طعام لم أتبين منه الا بقايا الخبز ثم رائحة الاذرة المشوية .

ويبدو أن روح الشاعر كانت قد تسربت فى مطلع هذا الشتاء الى شمسه الغاربة وقمره المتدثر ، ثم اطمأنت الى هذه الغرفة فى ذلك الهزيع من الليل ، وكانت الآن قد تسللت الى قلوبهم وانتشرت على وجوههم وغمرت لوحة ايزيس الجاثمة تحت المصباح المرتجف ، وهم يتحادثون ويتناقشون ..

وفجأة لمحت فى يد صديقى صورة لفتاة ربما كانت فى العشرين من عمرها ، فرفعت بصرى الى صورة العذراء التى قيل لى ان صاحبها أتم رسمها بالامس فقط ، محاولا أن أدرك أية صلة كامنة بينهما ..

وانتهى الطعام ، وساعة الجامعة تدق عشر دقات ، والبحث قد تشعب بحيث شمل نقاشا حول المذاهب والقيم .. وفى مصر كان بعض شباب الجيل يحاول ما استطاع أن يتعرف على زعماء الفن والفكر فى العالم ، وأن يصل اليه ضجيج الحضارة التى تنهار .. وذلك فى نفس الوقت الذى كانت فيه القنبلة الذرية قد اخترعت ، والادوية المهدئة للاعصاب قد انتشرت ، والبشرية كأنما تعانى المخاض ..

كانوا يحسون أنه يجمعهم جيل واحد ورعب واحد وأمل واحد ، ويضمهم كذلك شخص واحد .. هو تلك المرأة التى أقبلت صورتها فى هذا الهزيع من الليل تشيع بعض الطمأنينة فى أرواحهم القلقة الاسيانة ..

وكانت سلوى فتاة من احدى محافظات الوجه البحرى ، أقبلت الى القاهرة كى تنتظم فى جامعتها ، وهى تحمل معها جسدا فى التاسعة عشر يزدحم خيالات وأوهاما ، وتتدفق منه

روح بكر شاعرية ٠٠ وكانت قد جربت مواهبها المتفتحة فى بيئتها الصغيرة المحدودة ، فأدركت الى أى حد تستطيع برقتها وارادتها أن تشيع المرح والطموح فيمن حولها ٠٠

وفى الجامعة تعرفت بحامد ، وما لبث أن قدمها لزملائه ٠٠ وكانوا فى ذلك الحين لا يزالون يجربون امكانياتهم ويختبرون قواهم الكامنة ، فهم جميعا يرسمون وينحتون ويقرضون الشعر ويعزفون الموسيقى ٠٠ وكان لقاؤهم فى أكثر الاحايين عارضا تفرضه عليهم هذه المشاركة العامة فى السعى الحثيث الى اكتشاف ذواتهم ٠٠ فلما أقبلت سلوى ، بروحها المتوثبة الخلاقة وظرفها ولباقتها ، وجسدها النحيف المتيقظ ، أخذوا ينتظمون جميعهم ، ويجد كل واحد منهم نفسه فى يسر وسهولة ، ويسرى فى جسده شىء خفى من الرعشة والسرور ، وهو يكشف شيئا فشيئا ــ وفيما بينه وبين نفسه ــ عن السر العظيم الدفين الذى لا يبوح به لأحد حتى سلوى نفسها ٠٠ ورغم أن كلا منهم أيقن أنها تحبه دون الباقين ، الا أنه لا يحب أن يفسد على الآخرين متعتهم ، ولا على نفسه هذه الرفقة التى يجد فيها السعادة والغبطة والرضى ، فيقنع أن يحبها وأن تحبه دون حاجة الى هذه الرعاية الخاصة التى قد تلفت الانظار وتفسد الامور ٠٠

وهكذا وجد أحدهم أنه رسامها ، ووجد آخر أنه عازفها ، ووجد حامد أنه شاعرها ، وظن صديقى أنه مثالها ، وأخيرا أقبل خامسهم ــ وكان أصغرهم ــ ورأى أن يفلسف هذا جميعه ٠ وتخصص كل فى دراسته واستقر فى معهده ، وأصبح مجالهم الخاص لا يسمح لانسان أن يتنفس بينهم بلا موهبة ولو كانت مدعاة ٠٠ حتى هى مضت تجرب امكانياتها فاذا بها تقرض الشعر ٠٠ وكان هذا تشجيعا كافيا لأن يكون الشاعر أول من ينقض هذه المعاهدة الصامتة فيذيع حبه على الآخرين ، تساعده على ذلك وسيلته فى التعبير ، بينما الآخرون يحرصون على اخفاء ما يعتلج فى صدورهم ، يتلمسونه فيما يبدعونه من فن فى رفق هو أقرب الى التلميح ، ويشيعونه فيما يعبرون عنه بغير أن يبرزوه ولا أن يفصحوا عنه ٠٠

فى ذلك الوقت كان شباب الجيل ينتثرون فى مدن مصر ، ما بين المقاهى يقتلون الوقت وبين الطرقات الكبيرة يتسكعون

وراء الفتيات ، وقد ربط بينهم احساس بالشقاء والفزع ، وتأرجح ما بين اليأس الكبير والامل الاكبر ٠٠

وكان الشيب يدب في أفواههم والشيخوخة تشيع في أرواحهم وهم لا يزالون في شرخ الشباب ٠٠ وشباب الفلاحين في قرى مصر وريفها يذوون ويتساقطون في الأرض ٠٠ في أرضهم ٠٠ بل في أرضنا الخصبة السوداء ٠٠

وأحدهم ، ممن فيه شهوة الفكرة أقوى من شهوة الجسد ، مضى يقول :

ـ وأعجبنا منها جرأتها في وقت كانت فيه فتيات الشرق قد نزعن حجابهن ولم يتحررن منه بعد ٠

وآخر ممن فيه شهوة اللفظ أقوى من شهوتي الفكرة والجسد رفع رأسه قائلا :

ـ وأعجبنا منها قدرتها على الارادة والاختيار في وقت كنا نرى فيه المرأة ما تزال تتقدم الى الرجل اذعانا واستسلاما لا ارادة واعطاء ٠٠

وقاموا برحلات معا يشاهدون فيها آثار القاهرة وضواحيها وتلالها ، واشتركوا جميعهم في ضروب من النشاط الثقافي والفني والسياسي ، وأخذ ماضيهم يزدحم بالذكريات ٠٠ وكثيرا ما كان يقوم بينهم خلاف أو شجار ، ثم تهل عليهم سلوى بقامتها النحيفة ورقبتها الطويلة ، فيتحول الصياح الى همس ، والهمس الى صمت ، وهي ـ كالغزال ـ تحني لهم في أدب جم رقبتها الرفيعة الملساء ، فيردون عليها تحيتها وهم يلمحون في عينيها ذلك الوميض الدافيء ، فتنبعث في قلوبهم رغبة خرساء لا تلمح هي منها الا رقة تنتشر على محياهم وحماسة تنتشر في حركاتهم ، حتى اذا تفرق شملهم ، وخلوا الى ما يبدعون ، وجدوا في طريقة أدائه ما يعطيهم الجرأة على أن يعترفوا اليه قليلا وأن يصارحوا أنفسهم كثيرا بما يختلج في أرواحهم ، فاذا مضوا قليلا في ابداعهم ، توقفوا لحظة وخشوا ألا يصل الافصاح أو التعبير الى نهايته ، وكثيرا ما كانوا يشكون في قوة وصدق وقيمة ما يمارسون ، فلا يلبثون أن يدعوه أو يؤجلوه ٠

أما حامد فما أذاع حبه عليهم حتى انتشر الارتياح بينهم ، وشاعت الغبطة في صدورهم ، ووجدوا في ذلك حجةضدماتتهمهم

به أنفسهم من اشفاق وتهيب .. وانتابهم احساس نبيل سعيد وهم يشجعونه على أن يبوح لها بوسيلة ما عما يكنه من عاطفة نحوها ، ثم يدفعونه ويلحون عليه ، حتى استطاعوا في احدى ليالي الشتاء الباردة وأمام جمرات المدفأة أن ينتزعوا منه قسما على أن يفصح لها ، وفي ليلة أخرى جلسوا يحتسون من الشاى ما غلوه للمرة الثالثة وهو يعاهدهم على أن يدرج خطوة نحوها ، ثم يصبح الصبح ويقبل الضحى ويوغل النهار وهو متهيب يرجو الافصاح ويخشاه ، مدركا أن الاعتراف أمامهم ــ وفي شعره ــ هو التعبير ، وأن الاعتراف أمامها هو الفعل ، ومكتفيا بالتعبير دون الفعل ، وبالمعاناة الا معاناة الحصول ــ وتمضي الأيام وما أدى بهم اعترافه لهم الا أن بلور أمامهم جانب الرغبة فيهم ، فأوهن كل سعي في نفوسهم ، ووجدوا ما يبررون به عدولهم عما يحاولونه ويوجسون منه ألا يبلغوه ..

ــ ومضت سنتان ونحن نحيا هذه الحياة ، ثم حدث شيء لم يكن في الحسبان ..

وكان هذا الحديث شرحا ، موجها الى ، والغرفة قد امتلأت بدخان اللفائف حتى أخذت الاشياء والوجوه تبدو من خلال ضباب شفاف ، وساعة الجامعة تدق احدى عشرة دقة ، والمطر يهطل في الخارج بغزارة ، ويتسرب بعضه على سقف الغرفة سائلا على الجدران في تلكؤ ، والعذراء ايزيس لا تزال ترتجف ولا تحسب أن هذا تعبير شاعرى ، بل أرجوك أن تصدق أنها كانت حقا ترتجف ، واللهب يرتجف ، وجميعنا يرتجف .. وصديقى ــ الذى يبدو أنه لم يمر بهم منذ زمن ــ يقول :

ــ سمعت أنها أنجبت طفلا ..

ــ بل طفلا وطفلا ..

ــ وكان زوجها مريضا ..

ــ والآن صحيح معافى ..

ــ وهل تراها أحرقت أشعارها ؟

ــ مثلما أحرقها حامد ..

ــ وهل تراها أحبت حامدا حقا ؟

ــ بل هو أحبها حقا ..

ـ لكنه لم يبح لها بشيء في غير شعره ؟
ـ مثلما لم تبح له بشيء حتى في شعرها ..
وقال أحدهم يتم شرحه لى :
ـ فذات صباح أقبلت تخبرنا أنها ستزف عما قريب الى أستاذ لها ، وتدعونا الى حضور يوم الزفاف ..
ـ ومن يومها سعل حامد وظل يسعل ثلاثة أعوام حتى مات .

وكان صاحب هذه الجملة الاخيرة قد نطق بها فى انفعال وتأثر كأنما ليؤكد قيام هذه الصلة التى يشير اليها من طرف خفى بين رحيل سلوى عنهم وموت شاعرهم .. ثم صاح ـ كأنما تنبه أخيرا ـ وقال :
ـ لماذا تسردون هذه القصة ؟ لقد أعدتموها من قبل مئات المرات ، هيا نقدم شيئا خيرا من هذا لضيفنا حمدى ..

وأشار الى ، وأمسك عصاى يتأملها كأنما يدبر مؤامرة ، وعاد يقول :
ـ أين ماء الصودا ؟ لقد قبضت بالامس أجر أحد الدروس ، وعندى الليلة لكم زجاجتان ..

وكان جالسا على بساط فوق الارض ، فانحنى قليلا متكئا على ذراعه اليمنى ، ثم مد يده اليسرى تحت أحد الرفوف وأخرج زجاجتين . وطفح البشر على جميع الوجوه ، فمنذ رحل صديقهم عنهم الى المصحة وهم لم يقيموا احتفالا .

وكان أحدهم جالسا على منضدة الرسم يعبث ببعض الادوات التى أزاحها عنها ، وآخر جالسا فوق السرير يشاركه فيه صاحبى ، وأنا جالس فوق مقعد كان من الخيزران يوما ما ..

.. وبدأ أحدهم قصة لم يتمها لأنه نسى مابدأ ، وقام أكثرهم ثملا يخطب فوق المنضدة فقاطعه صديقى وأجلسه ، ثم أصبحت المشكلة الرئيسية هى كيف دخل السرير من الباب ، واستنتج أحدهم أنه لا بد أن يكون السرير قد نشأ صغيرا فى هذه الغرفة ثم ظل ينمو حتى أصبح بهذا الحجم ، لكنهم استسخفوا هذا الحل مما أغضب صاحبه غضبا شديدا ، وهنا تدخل صديقى وعرض حلا آخر ، ذلك أن تكون قطع السرير قد أدخلت من الباب مفككة ثم ركبت أجزاؤها داخل هذه الغرفة ، غير أن هذا الحل الجديد ضاع بين الضجيج لأن أكثرهم ثملا وقف على

المنضدة يريد أن يخطب من جديد ..
ولمحت وجها يصيح ضاحكا فى وجه آخر ويقول :
ــ وأنت متى تفسخ خطبتك التى عقدتها منذ ثلاثة أعوام ؟
ــ بل ستحتفلون معى بعد أسبوع بعقد الزواج ، ولولا وفاة صديقنا لربما كان الليلة احتفالنا هذا ..
ــ بل لعله لولا وفاة صديقنا لما انتويت ذلك أبدا ، ولولا زواج سلوى لما كانت خطبتك أبدا ..

وتحرك نحوى صاحب الوجه الثالث يصيح ثملا :
ــ فما اعتزم الخطبة هذا العربيد الا يوم أبلغوه زواجها ، وما يعتزم الزواج الا يوم أبلغوه وفاة صديقه ..

وضحكوا وتشاجروا ، ثم ضحكوا وغضبوا ، ثم ضحكوا وضحكوا .. وتلك لوحة ايزيس الندية وما انتشر حولها من لوحات قلائل فى جميعها افصاح وعبور ، وهذا أحدهم يتهيأون للاحتفال بزواجه بعد أسبوع ، ولئن كانت خطبة هذا العربيد الماضية نوعا من الانتحار الذى يدفع اليه اليأس ، فلقد بدا لى أن زواجه الحاضر هو نوع من الخلاص الذى يفديه الالم ..
ولقد غادرنا الغرفة نحن الخمسة جميعا ، حين انتصف الليل الا قليلا ، وبقايا المطر تساقط رذاذا رفيقا ، ولا هدف لنا سوى الاندفاع ــ ربما حتى يتبلج الفجر ــ فى طرقات خالية باردة متسعة معتمة ، تتصل ببعضها بعضا فلا تفضى الى شىء .. وكانت جميع الدكاكين قد أغلقت ولم يبق الا المقهى وصاحبه يهم باغلاقه ، والسماء توشك أن تصفو مما تلبد بها من غيوم فى أول الليل ، والقمر يبدو هادئا صامتا فى منتصف الطريق بين الارض والسماء ، وطرقات المدينة تمتد كأنها الابد ، وتلتمع فى أرضها المبتلة أضواء المصابيح المنتصبة فى يقظة وسكون ، ويختلج فيها نسيم ندى تشيع فيه عذوبة حبلى بالحركة والحياة ، وهم يحسون فى هذه الحرية الليلية الساكنة اللامتناهية أنهم يسعون كل شىء ولا شىء يسعهم ، فانطلقوا يترنمون ويصخبون ويضجون ، ثم يتناقشون ويتهامسون ، ثم يضحكون ويضحكون غير أنى كنت أحس أنهم يفعلون ذلك لآخر مرة فى حياتهم .
وكنت أدرك أن وفاة صديقهم أرعبتهم ، غير أنى كنت أدرك

أيضا أن الالم هنا هو بدء الطريق ·· فأنا أعلم أن المأسـاة ليست سوى جانب من جوانب الحدث ، بل أنا أعلم أكثر من هذا : ان كل مأساة تحمل معها عنصر خلاصها ، وان النور يضيء فى الظلمة ··

ففى ذلك الوقت كانت قد أكتشفت طريقة لمعالجة شـلل الاطفال ، وكان قد أبتكر أسلوب جديد لحفظ المعادن والآلات من الصدأ ، واخترعت آلة تحل مائة ألف مسألة فى دقيقة واحدة وتوصل العلماء الى أخرى تقيس ما يكون تخانته أقل من الشعرة البشرية بثلاثمائة ضعف ، وأكتشف قطب مغناطيسى آخر فى شمال الكرة الارضية ، وأجريت تجارب لاعادة الحياة بعد الموت وكان حكم الاعدام قد ألغى فى بعض جهات العالم ··



العيد

في الظهيرة أقبلت أمي ، وكانت تحمل معها شمامة كبيرة تفوح منها رائحة نفاذة ، قدمتها لسيدتي الكبيرة على سبيل الهدية .. وأحسست بفرح وفخر وطمأنينة وأنا أنظر الى وجه أمي ، ومضيت بسرعة أعد نفسي للذهاب معها ، فارتديت ثوبي الجديد المخطط بخطوط حمراء ، وقد خاطته لي سيدتي لأرتديه في العيد ، كما ارتديت حذائي المطاط الذى ضاق على سيدى فأعطاه لي ، ورغم اتساعه بالنسبة لقدمي الا أني كنت أشد على

رباطه حتى لا يكاد يفلت منهما ، ثم ذهبت الى صندوقى الصغير الذى أحتفظ فيه بأشياء أنتقيها من القمامة قبل أن أعطيها للزبال ، كان ملآن بأوراق مكتوبة وصـور ملونة جميلة ، فمددت يدى الى عروس كانت سيدتى الصغيرة تهانى قد حطمت ذراعيها وساقيها فألقاها سيدى فى صفيحة القمامة ، والتقطتها أنا واحتفظت بها لأن وجهها كان ما يزال سليما وستفرح بها أختى فرحا عظيما ·· وأختى سعدية ليست صغيرة ، لأنها تتكلم وتمشى ، ولكن ليست لديها لعب كالتى تلعب بها سيدتى ·· ليست لديها لعبة واحدة ، لا هى ولا صابر ابن خالتى ··

وسمعت أمى وسيدتى عليه هانم تتناقشان بشأن ميعـاد عودتى ، كانت أمى ترجوها أن أبقى معها لآخر يوم من أيام العيد ، وكانت سيدتى تريدنى أن أعود فى اليوم التالى ·· وأصرت سيدتى على ذلك وألحت ، فلم يسع أمى الا أن تذعن لها ·· وأدركت أننى لن أقضى الا ليلة واحدة مع أمى ، وأحسست بكآبة حتى كدت أبكى ، لولا أننى سمعت سيدى يقول : أنا جبت لك هديه يا عبده للعيد ··

فزايلتنى الكآبة وخفق قلبى ، ترى ماذا تكون اللعبة !·· وغاب لحظة ثم عاد وبيده ساعة صغيرة حمراء ، علمنى كيف أدير عقربيها من مسمار جانبى ، ووضعها حول معصمى الأيسر ، وأنا أطير فرحا ·· وقدمت لى سيدتى بدورها خمسة قروش · وتأملت القطعة الفضية فى يدى ، لم تكن أول مرة أمسك بمثلها فى يدى ، ولكنها كانت أول مرة أمتلك فيها مثلها ·· وقبل أن أغادر المنزل وضعت تحت ابطى لفة كبيرة ، فلما سألتنى أمى عما بها أجبتها بأنه ثوبى القديم سأرتديه عندما أصل الى بلدنا لئلا يتسخ الثوب الجديد ··

وفى الطريق وجدنا أخى رجب ينتظرنا ·· وسرنا معا نقصد موقف السيارات التى تمر بقريتنا ، وأقبلت احداها وقد ازدحم الناس فيها وعليها ، وحاولنا عبثا أن نركب ، ومضت السيارة ونحن ما نزال واقفين فى مكاننا ·· وهمست أمى فى أذن أخى بكلمات لم أسمعها ، وشردت أنا بفكرى فى قريتنا ، وتذكرت خور السيل الملىء بالرمل ، وكيف كنت أذهب اليه مع أصحابى نلعب فيه فى الليالى الصيفية المقمرة قبل أن تغمره المياه فى

موسم البطيخ ، ثم تأتي أمي لتأخذني بالقوة وهي تحدثني عن الضبع الذي يهبط الجبل ليأكل الاطفال الذين يجدهم في الخور ليلا ، فأخاف وأحجب عيني بثوبها الاسود الطويل ..

وفجأة مات والدي ، وبكته أمي كثيرا ، ولم أعد أذهب الى الخور ، ونمنا بدون عشاء ..

وبكت أمي ذات مساء وأخبرتني أناوأخي رجب ـ وهويكبرني قليلا ـ بأنه ليس لدينا مال نأكل به ، أنا وأمي وأخي وستي العجوز التي تجلس طوال النهار أمام بيتنا لا تعمل شيئا .. وفي اليوم التالي أخذتني أنا وأخي الى البندر ، هو الى سيدته روحيه وأنا عند سيدي كمال وسيدتي عليه ..

وتلفت الى أمي فرأيتها ما تزال واقفة الى جانبي ، بينما كان رجب قد اختفى ولما يعد .. وأحسست بانقباض ، وسألت أمي أين ذهب رجب ، هـــل تاه ؟ واغرورقت عيناى بالدموع ، وأحسستها تجري على وجهي .. وسمعت أمي بكائي فقالت لي انه ذهب الى الموقف العام حيث تبدأ السيارات سيرها ليحجز لنا مكانا ..

ولم أصدق كلامها ، فالزحام شديد ورجب قد ضل عنا ، وأمي تخدعني لكي لا أبكي .. ومسحت دموعي بظهر يدي ، وبكيت من جديد ، وسالت الدموع ومسحتها من جديد .. ولاحت لنا سيارة مقبلة ، فحدقت فيها طويلا ، ولمحت هناك .. في احدى نوافذها ، يدا تلوح لنا ، فلما اقتربت رأيت وجه أخي يطل علينا وهو يضحك في انتصار ، حتى لقد شاهدت فمه مفتوحا ولسانه يتأرجح بين أسنانه .. وانحشرت بين الراكبين أشق طريقا لأمي حتى وصلنا اليه فوجدناه قد حجز لنا مقعدا يسعنا نحن الثلاثة ، فجلسـنا عليه ونحن ننضغط وننحسر لنفسح مكانا للآخرين ، بينما كان هناك قفص من أقفـاص الدجاج يحمله رجل يجلس خلفي ، وكان القفص يضغط بشدة على عظمة كتفي كلما اهتزت السيارة هزة عنيفة ، وحاولت أن أقف لكي أستريح ، ولكن أمي نهرتني وأمرتني أن أجلس حتى لا يحسبني قاطع التذاكر كبيرا فيطلب عني أجرا ..

أما رجب فكان يجلس الى جانبي بيني وبين أمي .. ولاحظت أنه لا يضع ساعة حول معصمه ، وأن ثوبه ليس جديدا مثـل

ثوبي ، فقلت له :

ـ شوف يا رجب الساعة اللي هداها لي سيدي ..

ونظر اليها رجب ، ومد يده يحاول انتزاعها ، فأبعدت يدي عنه ، وفي نفس الوقت الذي انغرس فيـه القفص في كتفي الايسر كان رجب يلكزني بشدة بمرفقه في جانبي الايمن ، حتى صرخت من الالم ، وبدأت أبكي ، ورجب يقول لي همسا :

ـ هاكسرهالك لما نوصل البيت ..

وخشيت على ساعتي منه ، وحاولت أن أستعين بأمي ، ولكنها كانت بعيدة عني ، بيني وبينها رجب ..

وكان قاطع التذاكر قد مر بغير أن يطلب أجرا عني ، وحسبت أنني أستطيع أن أقف الآن لأبتعد قليلا عن أخي وعن قفص الدجاج ، ولكن أمي عادت وأمرتني بالجلوس لأن المفتش قد يمر

وعندما وقفت السيارة أمام قريتنا ، هبطت أمي أولا ثم هبطت أنا وأخي قفزا ، وسرنا على الجسر قليلا وقد ظهرت المنازل .. وتركت أمي وأخي وعدوت بأقصى ما أستطيع الى منزلنا خوفا من أن يحسدني الناس لأنهم لا يرتدون ملابس نظيفة جديدة كملابسي ، ولأني أبيض البشرة أحمر الخدين أصفر الشعر ، فاذا رأوني لن يلبثوا أن يقولوا : « صلاة النبي ، صلاة النبي على عبد الفتاح ، شوفوا يا اختي أبيض وزي الفل ازاي » ..

وسمعت ولدا يقول :

ـ حاسب يا جدع انت بتجري كده ليه !!..

وقابلني آخر فتصدى لي وهو يقول :

ـ ازيك يا عبده ..

فسلمت عليه بسرعة واستأنفت عدوي وهو يصيح ورائي :

ـ يا جدع مالك مكروب كده على بيتكم ؟!!

وعندما دخلت بيتنا وجدت خالتي كفاية تطبخ لنا ، وحين رأتني قابلتني وهي تقول :

ـ أهلا ، أهلا يابن أختي ..

وأخذت تقبلني .. وكنت قد علمت من أمي أن خالتي قد لجأت الى منزلنا لأنها غاضبة من زوجها الذي يشتمها ويضربها كلما ذهبت اليه في الحقل لتغسل له ملابسه أو تحمل اليـه طعامه .. ثم دخلت فخلعت حذائي وثوبي النظيف وارتديت

الثوب القديم .. وأخفيت الساعة فى الصندوق الكبير الذى تضع فيه أمى ملابسها ..

وعلى الارض لمحت ابن خالتى صابر وبجانبه أختى سعديه ، فاتجهت نحوهما وأعطيت العروس لسعدية ثم قلت لابن خالتى الذى كان يبكى :

ــ أسكت يا صابر ، هديك تعريفه من اللى معاى ..

ولكن أمه قالت لى :

ــ خلى التعريفه معاك وبكره الصبح خده هات له من العيد حاجه يلعب بيها ..

وعندما جاءت أمى كانت العتمة فى المنزل ، فأضاءت المصباح البترولى ووضعته فى الطاقة ثم جلسنا نتعشى وقد وضعت أمى الطبق الكبير أمامنا وحوله الحصير مفروشا على الارض ، وكان بالطبق صحون الحساء والعيش وذكر الاوز الذى ربته أمى انتظارا لهذه الليلة .. وكنت جوعان جدا لأنى لم أتغد غذاء كافيا فى منزل سيدتى ، وذلك لفرحى واستعجالى السفر ..

فلما أكلت قمت وغسلت يدى ــ كما علمونى فى منزل سيدى ــ وجلسنا نشرب الشاى ، شاى أول دور ، وشربت الكوب الصغير بسرعة ، ثم انتظرت ثانى دور وأنا جالس ورأسى الى ذراعى ، بينما كان أخى رجب يلعب مع أختى سعدية وهى تصرخ قائلة :

ــ يا عيال فطسونى ، فطسونى ..

فيضع رجب يده على فمها حتى لا تستطيع أن تتكلم ، وعندما يتركها تقوم وتضربه ..

وفجأة رأيت رجب يتجه نحوى ثم يقبض على يدى باحــــدى يديه وعلى رجلى باليد الاخرى ، وأحسست ألما شديدا من قبضته فصحت فيه لكى يتركنى ، وحاولت أن أضربه فلم أستطع ، وأقبلت أختى ورجب يقول لها :

ــ اضربيه يا سعديه ، اضربيه يا بت ..

فقلت لها متوسلا :

ــ لا يا سعديه دنا أخوك ..

وفى هذه اللحظة ، بينما كنت ممدودا وظهرى الى الارض وعيناى تلمحان نجوم السماء ، انهال رجب على ضربا فى جانبى الايمن حتى أحسست الالم شديدا كأنه صبغة اليود التى يضعهــا

سيدى على كل جرح أصاب به •• فبكيت من شدة الالم ، ولو كنت طفلا صغيرا لصرخت ••

وأقبلت أمى عندما رأتنا نتعارك وصفعت أخي على وجهه فبكى بدوره ، ولكن بطريقة جعلتنى أمتنع عن البكاء ثم أضحك ، فمسحت دموعى وأنا أقول له :

ــ تستاهل !!

ولم يكن عمى شحاته بين الجالسين ، فاستأذنت أمى لكى أذهب اليه وأناديه ليشرب الشاى معنا ، ولكنى قابلته فى الطريق ، فلما رآنى حيانى وحييته وأخبرته بأنى كنت ذاهبا الى منزله لأدعوه لتناول الشاى معنا ، فحذرنى من الذهاب الى بيته قائلا :

ــ اوع تروح لحسن فيه هناك ناس كتير قاعدين ، عشان عاملين ليلة للميتين قريب ••

فألححت عليه أن يأتى الى بيتنا ليشرب الشاى حتى قبل أخيرا ، وعندما دخل سلم على أمى وهو يقول لها :

ــ كل سنه وانت طيبه ••

وبينما نحن نشرب الشاى ، شاى تانى دور ، كان منزلنا يمتلىء بضيوف كثيرين ، حتى اضطرت أمى أن تصنع الشاى ثلاث مرات فى تلك الليلة ••

كانت هناك امرأة عمى وأم امرأة عمى وخالتى ستهم التى تعيش مع جدى ولا يريد أن يزوجها لأحد لأنها تقوم بخدمته •• وجلسوا يتسامرون بينما كان النسيم يهب رقيقا رطبا فيشيع النعاس فى أجفانى المتعبة ، فانحنيت فى حجر عمى شحاته لأغفو قليلا ، ولكن أمى صاحت فى :

ــ قوم يا واد اختشى ••

فأجبتها :

ــ وانت مالك ، مش عمى ؟••

فردت قائلة بفتور :

ــ يا واد عيب ••

وأخذ النعاس يثقل على ، وأنا أسمع أصواتهم وضحكاتهم كأنما تأتينى من الحقول البعيدة ••

وحلمت حلما مفزعا وأنا بين النوم واليقظة ، حلمت أننى

في الحقل مع أمي وعمي ، وطلب مني عمي أن أركب على النورج ولكني رفضت فاتجه نحوي يشدني من أذني ويحاول القائي فى الترعة ، وسمعت أمي صراخي وأنا أرتعش ، فصحوت منزعجا ووجدت عمي يوقظني بينما كانت أمي تناديني ٠٠ وكانوا كلهم قد انصرفوا ، وقد فرشت أمي الحصير ، فذهبت نحوه واستلقيت عليه ، وأنا ما أزال أتحسس أذني ٠٠ فقد كانتا كبيرتين على عكس وجهي الابيض الجميل ــ حتى أن سيدى كان كثيرا ما كان يقول لى عنهما « دول زى ودان الحمار يا واد يا عبده » ثم يشدهما من أسفل حيث تتسعان حتى لأخالهما تنفصلان عن بقية رأسي وأنا لا أعرف هل هو هازل أم جاد ٠٠

وبينما كان النعاس يغالبنى كان يقفز الى ذهنى خليط من الذكريات وكان أوضحها هو هؤلاء الاولاد الذين يقابلوننى فى شارع البندر كلما أرسلتنى سيدتى الى السوق وهم ينظرون الى قبقابى وسلتى وثوبى المتسخ ثم يشيرون نحوى قائلين :

ــ أهو الواد الخدام ، أهه الواد الخدام ابن الكلب ٠٠

فأتألم وأود لو أستطيع أن أرد عليهم بالمثل ، ولكنى أبتعد عنهم بسرعة ٠٠ وظلت هذه الصورة تتكرر أمامى حتى استغرقنى النعاس ٠٠

وفى الفجر استيقظنا مبكرين ، ما عدا ابن خالتى صابر الذى ظل يبكى طوال الليل حتى ان أمه لم تستطع النوم ٠٠ وغسلت رأسى فى الطشت وأمى تصب لى الماء من كوز بيدها ، ثم أخرجت الكحك استعدادا للذهاب الى « القـرافة » ، وارتديت ثوبى النظيف وحذائى ، كما وضعت ساعتى حول معصمى لكى يراها أولاد البلد ٠٠ وكانت أمى تنوى الذهاب حافية ، لأنها لو لبست حذاءها لتهامس الناس قائلين : شوفوا يا اخواتى سنيه فرحانه ازاى ٠٠ ولكن خالتى كفايه قالت لها : « حتروحى حفيانه ، لازم تلبسى ، رجليك تلم تراب ، خلى الناس يقولوا اللى يقولوه » ٠٠ وهكذا لبست أمى « الكتانيلة » ٠٠

وفى طريقنا وقفنا بمنزل عمى فوجدناه ينتظرنا مع زوجه ، وقد قطع لنا سعفا لنضعه على قبر والدى ٠٠ ثم استأنفنا سيرنا وعبرنا على « النقطة » وعلى خور السيل ــ وكان الآن شديد الحرارة بسبب الشمس ــ ثم وصلنا الى المقابر ٠٠ وهناك رأيت

« ناس الدنيا » ما بين رجال وسيدات وأطفال ..
وذهبت أمي وجلست مع الناس قليلا ثم استأذنت وانفردت على قبر والدى ووضعت فوقه السعف ثم جلست ، ولمحت دموعا تنحدر من عينيها في صمت أول الامر ، ثم أخذت تنهنه ، وكانت تتوقف من حين لآخر لتتمخط وتمسح دموعها ثم تستأنف بكاءها من جديد ودموعها تسح منها بغزارة ، وانزعجت لبكائها وانتظرت أن تنتهى منه سريعا ، فلما استمرت حاولت اسكاتها وأنا أربت على ظهرها متوسلا ، ولكنها كانت كأنما لا تحس بى ، فأقبلت امرأة لا أعرفها تقول لها : « اسكتى يا بت .. بصى لابنك شوفيه بيقولك ايه » .. ولكنها لم تسكت الا بعد زمن طويل وأنا جالس أحدق فيها بعد أن يئست من محاولاتى معها وتمخطت للمرة الاخيرة ، ومسحت عينيها بطرف ثوبها ثم التفتت نحوى تقبلنى وقد احمرت عيناها احمرارا شديدا وكأنما انتفخ أنفها قليلا ..
والى جانب المقابر كان الباعة قد افترشوا الارض أمامهم ووضعوا عليها اللعب من شخاشيخ وحلقان وبالونات وأساور كما كان أمامهم خبز وسمك وكنافة وكوكاكولا ، فطلبت من أمي أن أذهب اليهم ولكنها أمرتنى أن أنتظر قليلا ، بينما كان الشيخ نصر الاعمى يقرأ على مقبرة بجانبنا .. فلما انتهى من قراءته نادته أمى قائلة :
ـ تعال يا عم الشيخ نصر ، اقرأ سورتين على حسن وسورة على اختى سعد الهنا ..
فأتى وجلس القرفصاء ومضى يهز رأسه هزا يضحكنى كلما تذكرته ..
وعدت أطلب من أمي أن أذهب لأشترى اللعب ، فسمحت لى فقمت ووقفت أمام الباعة أتأمل فيما يمكن أن أشتريه وأنا أسأل :
ـ الكوره دى بكام يا عم ؟
ـ بقرش صاغ
ـ لأ بتعريفه ..
ـ يفتح الله ..
ـ طب والشخشيخه بكام ؟

ــ بتعريفه
ــ ادينى اتنين ·· والصفاره بكام ؟
ــ بقرش صاغ
ــ طب هات صفارتين ··

ونظرت فى يدى فوجدت أنه لم يبق الا قرشان أريد أن أشترى بهما كنافة ومشمشا ، وكان هناك حلق أود أن أشتريه لأختى سعديه ، ولكنى نظرت اليه فى أسف وحسرة ·· وحملت اللعب وصررتها فى منديل معى ، ثم ذهبت الى بائعى المأكولات فاشتريت كنافة بقرش وأخذت حملى ذاهبا الى أمى حيث كانت تجلس مع أقربائنا فأعطيتها قطعة من الكنافة كما أعطيت عمتى وخالتى ورجب وسعديه ، ولم يبق لى من الكنافة الا قطعة صغيرة ولكن طعمها كان لذيذا جدا ، وأعطيت القرش الباقى لأخى ليشترى لى به مشمشا ·· وكان الشيخ نصر قد انتهى من قراءته ، ومد يده نحو أمى ، فوضعت فيها برتقالة وثلاث كحكات ورغيفين ثم قمنا عائدين الى منزلنا ··

وعندما وصلنا الى المنزل ذهبت توا الى صندوق الملابس ، وأعدت فيه ساعتى قبل أن يعود أخى رجب ، ورأيته بعد قليل مقبلا يحمل معه المشمش ، ولكنه ما فتح المنديل حتى رأيت جميزا !! وأنا لا أحب الجميز ولا أذوقه ، فزعقت فى أخى وبعثرت له الجميز على الارض ، فالتقطته أختى سعديه ··

أما أنا فمضيت أوزع هداياى : شخشيخه لصابر وأخرى لأختى وصفارة لابنة خالتى واحتفظت بصفارة لنفسى ·· وهز صابر شخشيخته وهزت أختى شخشيختها وصفرت ابنة خالتى فى صفارتها وصفرت أنا أيضا بصفارتى ، وامتلأ المنزل بالضجيج وأخذت أقفز مرحا وهم يقفزون مثلى ويهزون لعبهم ، بينما أمى تبتسم وتقول :

ــ يا رب حوش العين ··

وكان الظهر قد أقبل ، وأنا آكاد أموت جوعا لأننى لم أفطر فى الصباح ، فقد خرجنا مسرعين الى المقابر ·· وكانت خالتى كفايه قد طبخت لنا « المبرومة » فأردت أن آكلها بسكر ولكن أمى قالت لى بأنه ليس لدينا سكر ··

وبعد الغداء كان على أن أعود الى سيدى بالبندر فذهبت

لأودع جدى وعمى شحاته وعمى مسعد .. ثم رافقتنى أمى الى محطة الاوتوبيس وهى تقول لى :

ـ خلى بالك ، خليك ناصح ، عشان أنبسط منك ..

ثم قبلتنى ..

وأقبلت السيارة فركبت فيها وأنا أودع أمى ، وكنت أغالب البكاء لئلا يلمحنى الراكبون ويرون دموعى فيقولون « ايه المره ده » وكانت أمى قد أعطتنى قرشا ونصف قرش ، ورغم أننى ظللت جالسا فى مقعدى ولم أقف ، الا أن قاطع التذاكر حين مر بى أخذ منى النقود ، والواقع أنى أنا الذى قدمتها اليه بمجرد رؤيته ، ثم أعطانى تذكرة صغيرة حمراء ظلت فى يدى حتى تركت السيارة .. وكان الزحام شديدا فى أول الامر ، لكن الناس كانوا يهبطون واحدا بعد الآخر ..

كنت أعود حزين القلب لأنى تركت أخى يقضى بقية أيام العيد هناك ، أما أنا فأعود بعد يوم واحد لأكنس الأرض وأمسح البلاط وأذهب الى السوق عشرين مرة فى اليوم ..

وكانت الصفارة التى اشتريتها فى الصباح ما تزال فى يدى وقبضتى قد امتلأت بالعرق ففتحتها قليلا لأجففها ، وتنبهت الى أن الساعة ليست فى معصمى ، وانزعجت لحظة واحدة ، تذكرت بعدها أنى نسيتها بصندوق الملابس فى بيتنا ، وكنت أحب أن تكون معى الآن ..

وعندما وصلت السيارة الى البندر ، وقفت أمام المنزل الذى أعمل به ، فنزلت وحدى لأول مرة بدون أمى ، واتجهت نحو الباب الكبير ثم صعدت السلم وطرقت الباب .. وعندما فتحوا لى استقبلتنى عيونهم وسيدتى تسألنى :

ـ انت انبسطت يا عبده ؟

وأحسست عينى تغرورقان بالدموع ، فقد تذكرت قريتى وأمى وأخى رجب الذى لا يزال يلعب مع سعديه فى العيد هناك ولمحوا الدموع فى عينى وأنا أمسحها بظهر يدى ، وتساءلوا عن سببها فى دهشة ، ولم أجرؤ أن أقول الحقيقة ، وكان على أن أقول شيئا يصدقونه ، فأجبت من خلال دموعى :

ـ أصل أخويا رجب ضربنى امبارح بالليل ..

ثم أضفت من عندى :

ـ وكسر لى ساعتى ..



قديس فى حارتنا

كان عم اسماعيل رجلا فيه من طبائع الناس الخير والشر ، له لحظات فرحه ولحظات غضبه ٠٠ وأنا أعرفه منذ زمن طويل ، منذ كنت صبيا ألعب مع أصدقائى فى حارتنا ٠٠

وانى لأذكر كيف راقبنا مجيئه مع عروسه الشابة ليسكنا طابقا فى حارتنا هـذه ، وكيف تتبعنا عملية نقل الأثاث ، وتعلقنا خلف العربات التى كانت تحمله ، وكيف كانت أمى والجارات ينظرن من خلف الشبابيك الى المراتب الفاقعة والحلل النحاسية والمقاعد المستطيلة الخشبية كأنما يحاولن أن يعرفن قيمة العروسين من نوع الأثاث ومقدار جودته ٠

ولقد سمعهما سكان حارتنا يتضاحكان حينا ويتشاجران حينا كما يفعل معظم الأزواج ٠٠ لكن مجرد التقائى العارض بهذا الرجل كان أحيانا ما يدفعنى الى الاحساس بشىء مسيطر كأنما أنا تحت رحمة انفعالاته ونزواته ، رغم أنه لم يحدث منه

ما يؤيد هذا الاحساس سوى بريق يتخطف فى عينيه لا يلبث أن ينقل القلق الى عينى .

ولقد حدث ذات يوم أن تشاجر عم اسماعيل مع زوجه الشابة ولما يتم على زواجهما العام ، فضربها فى الحائط بعنف ، وكانت توشك أن تضع طفلها الاول .. وكما سمعت ـ فيما بعد ـ أنها كانت مريضة بضعف القلب .. فما دفعها الى الحائط للمرة الثالثة حتى وجدها قد سقطت بين يديه .. ويبدو أن العم اسماعيل قد أدرك أن الاشغال الشاقة ـ على أقل تقدير ـ هى جزاؤه فاهتدى الى حيلة تنقذه من السجن ..

انى واثق أنها لم تكن سوى لحظة من لحظات الغضب الهائل رغم أن أحدا لم يسأل ماذا كان الامر ولا ما هى أسبابه ، ولقد تصنع الجنون أثناء المحكمة ، وقرر الطبيب أن به بعض الشذوذ الخطر ، فأحيل الى مستشفى الامراض العقلية ..

نعم ، نعم ، انى أعرف ان الانســان يجب أن يكون أكثر ضبطا لعواطفه وانفعالاته ، وألا يبلغ به الشطط أن يضرب زوجه الحامل حتى الموت .. ومع ذلك فتكاد تكون لكل منا هذه اللحظات .. لكن حظ عم اسماعيل ـ السىء أو الحسن ـ هو أن هذه اللحظة قد فرضت نفسها عليه فيما بعد .. فرضها هو أولا على نفسه بتصنعه الجنون ، ثم أكده الطبيب وقرار المحكمة ثم وجوده فى مستشفى الامراض العقلية مدى خمس سنوات . وعلى هذا النحو الذى ما توقعه ـ كل ذلك قد أذل نفسه فما أضحى له طاقة للتهجم على أحد ..

وحين غادر المستشفى عاد الى حارتنا يريد أن يؤجر مسكنا بها ، فما له ملجأ ولا أصدقاء الا هنا ، وما فكر فى الالتجاء الى أقاربه ولا أن يعرفوا عنه شيئا لأنه كان يخافهم ، فقد كانت زوجه التى قتلها ابنة عمه .. ولم يجد سوى غرفة بمنزلنا تجاور السلم .. وطفق يبحث عن عمل ..

كان يبدو متبرما بالحياة خائفا من وجوده .. ما يكاد يبدأ العمل حتى تجرى وراءه الحقيقة المخيفة أنه كان فى مستشفى الامراض العقلية ، وأنه ذبح زوجه الحسناء ، وفى رواية أخرى أنه أكل منها .. وما تكاد الحقيقة والاشاعات معها تصل الى مقر عمله حتى يخشى كل فرد أن يلحق ـ دون غيره ـ بمصير الزوجة اذا غضب معه اسماعيل وانفرد به فى زاوية هنا أو زاوية هناك

.. ويبدأ التهامس حوله والعيون تحدق فى جزء منه .. فما الهدوء والتجهم اللذان يكسوان وجه الرجل الا الرماد الذى يخفى وراءه الجنون واللا معقول ، أو المهلك والمخيف .. وما ينقضى الشهر حتى يعى عم اسماعيل بما يشاع حوله ، ولايعود يطيق العمل والمكان فيتركه باحثا عن غيره ..

وهكذا أصبحت حياته قلقا وتجوالا ، فاذا كان المساء دخل احدى الحانات ، فلا يكاد يستقر بها حتى يسمع همسا يعلو حتى يصبح لغطا ، فاذا شرب كأسا أو كأسين صاح فى الجميع : والله العظيم لست مجنونا ، أبدا لست مجنونا .. وبذا أخذت حاله تسوء .. وكلما حاول أن يقنع أحدا بأنه كان مجنونا فى يوم ما ، كان هذا دليلا جديدا لدى مستمعه على جنونه حتى ليخفى ابتسامة تكاد تنفرج عنها شفتاه . وقد يجلس الى أحدهم يحدثه فيتقبل الرجل حديثه ويناقشه ، حتى اذا أدرك من خلال الحديث أن هذا ليس سوى عم اسماعيل الذى ترامت اليـــه الاقاصيص عنه ، حدق فيه محدثه وهز رأسه ، فقد فقـــدت الكلمات فجأة معانيها وكأنما أصبحت تخرج من رأس فارغ . وهذه اليد قد تمتد اليه فى أية لحظة لتذبحه ثم تأكله ، فيتحين أول فرصة ليتخلص منه .. وهكذا كان وجوده فى مكان ما معناه فزع خافت يشوب طمأنينة الناس وأمنهم ، واثارة خفية لكفاح داخلى بأن هذا الرجل لا يثير الضر ولا يدعو الى الريبة ولكن جواره لك بالرغم من ذلك يستلزم كثيرا من الحيطة والحذر

فى هذه الاثناء كنت قد كبرت وتزوجت وأنجبت لى زوجى طفلا وطفلين .. ولم يكن عم اسماعيل يقص على ما يعانيه قليلا ولا كثيرا ، ولكنى كنت أحيانا ما أسمعه من آخرين وأحيانا ما أشاهده بنفسى .. وأعتقد أن عم اسماعيل كان يدرك أننى لا أصدق قصة جنونه .. وكان ادراكه هذا من خلال الأحاديث القليلة التى نتبادلها أحيانا ، ومن خـــلال نظراتى وحركتى المطمئنة الدائمة الى جانبه وأنا أدخل وأخرج من مسكنه الذى يحتل هو غرفة خارجية منه ..

لكن حدث ذات يوم أن عرض لى كتاب يبين فيه مؤلفه أن ليس بين الجنون والتعقل حدود فاصلة ، وثمة تدرجات دائمة بين الصحة والمرض كالتى بين البرودة والسخونة ، وأن أكثر المجانين تكون تصرفاتهم سليمة فى كل شىء الا فى شىء واحد

اذا أثرتهم فيه بدت عليهم أعراض المرض ‥ فلماذا لا يكون العم اسماعيل مجنونا بهذا المعنى اذن ؟ ان أحدا لا يشير أمامه الى حادث زوجه ، والجميع يتجنبون ذلك بحدسهم ، واذن فأنا أعرف الجانب المجنون في العم اسماعيل ‥

وقد حدث بعد ذلك بأيام قلائل أن جاء عم اسماعيـــل وأنا مستلق مسترخ على مقعدى المتأرجح يسألنى على غير عادته ما اذا كان هو حقا مجنونا كما يقول له الآخرون ‥ وكان يبدو عليه يأس وألم هائلان ، والبريق القلق قد ازداد تألقـا فى عينيه ، حتى أننى أحسست الخوف الحقيقى لأول مرة حين نظرت فيهما ‥ ولم أستطع أن أعرف من ذا الذى أثار هذا الاضطراب العميق فى حياة الرجل ، ولكن خوفى منه جعل بى رغبة حقيقية وخطرة الى تصديق كل ما يقال عنه ‥ ويبدو أن كل ما كان يرغب فيه هو أن أنفى عنه التهمة ببساطة ، لكننى لم أفعل ، بل قلت له فى سذاجة كل ما قرأته أخيرا فى الكتاب ، حاسبا بذلك أننى أوضح له أن ليس ثمة شىء اسمه الجنون بالمعنى الذى يفهمه الناس ، لكنه فهم أننى أردت أن أخبره بطريقةغيرمباشرة أنه كان على درجة من درجات الجنون ‥

ويبدو أن أعماقنا تتكشف مهما أردنا اخفاء ما بها ، فأنا فى الواقع ما نقلت اليه الا ايمانى الذى تزعزع فى تعقله ‥

منذ ذلك اليوم قرر عم اسماعيل مغادرة دارنا واتخاذ الخرابة المجاورة مسكنا له رغم ما أبديت له من شديد الاعتراض ، وهو اعتراض كنت أود فى أعماقى ألا يستمع اليه ، فما عدت أطمئن منه على زوجى وأولادى ‥ ولم يكن قد أفلح فى الاستقرار فى وظيفة ما ‥ وكانت حالته المالية قد ساءت ‥ وكما أنى كنت آخر من فقد ثقته فى الرجل ، فيبدو أننى أيضا كنت آخر من فقد فيهم الرجل ثقته ‥ وهكذا انفصل عن عالم العقلاء حيث أنى كنت فى الواقع الخيط الاخير والوحيد الذى يربط بينهم وبينه ، وأصبح يتعيش من الشحاذة ‥ ومع ذلك فقد ظلت غرفته بدارنا زمنا وهى لا تزال له ، يلجأ اليها فى الليالى العاصفة المطرة ‥ وأصبح جنونه هو أن ينفى عن نفسه تهمة الجنون . ولم يعد يعرف الواحد أكثر من الآخر ، فقـد استوى لديه الاصدقاء والغرباء وأصبح يحس أنهم جميعا من عالم الآخرين ، مجرد وجودهم أمامه معناه اتهامه بالجنون ، فيدافع عن نفســه

بكلمات يدهش لها من لا يعرفه ·· وهو يحس كأنما هناك خطر هائل موشك أن ينقض عليه ويمكن لهذه الكلمات أن تدفعه عنه حتى يعبر بعيدا ·· وكنت أحيانا ما أطل من نافذة بيتى على المنزل الخرب ، فأرى عم اسماعيل يقوم من فراشه المهلهل ويطبقه فى عناية ، ثم يشعل النار ، وقد وضع أحطابها فى مكان لا يصل اليه البلل ولا المطر اذا كان الوقت شتاء ، ثم يحمل الماء ليعد الشاى ، ثم أشاهده يخرج حافظته ويعد قروشه ومليماته ، ثم يبتسم ابتسامة كلها طمأنينة وارتياح حتى لأحس أن العالم كاذب ، وأن جنونه فكرة فى رأس الآخرين ، وها هو ذا فى وحدته كأعقل ما يكون وأقدس ما يكون ·· وهكذا بدأ اتجاهى الجديد نحوه ··

ولقد مات لى طفل ، وأنجبت لى زوجى طفلا آخر ، وأنامشغول بعملى وقضاياى ولكن ما يزال عم اسماعيل يحتل من تفكيرى جانبا كبيرا هاما ·· وهكذا كان على أن أقود سكان الحارة من ورائى نحو هذا الاتجاه الجديد ·· وكانت محاولة متواضعة ، لا تتعدى أن نوفر له طعاما أفضل وفراشا أفضل ، وكان أول من آمنت بفكرتى هى زوجى التى جعلته يشاركنا بعض طعامنا فترسل اليه مما نأكل بغير أن يعرف ·· وشاركنا فى ذلك بعض سكان الحارة ·· ولكن الامور لم تلبث أن وصلت الى أبعد مما كنت أظن ··

فقد أخذ عم اسماعيل يصبح أكثر هدوءا وأكثر تأملا كأنما هو على وشك مشروع خطير ، وانطفأ من عينيه قليلا قليلا ذلك البريق القلق ، وأصبح أقل دفاعا عن نفسه كأنما جنونه يستحيل الى نوع من البله ·· أما سكان الحارة فكانوا يرون تغيرا حقيقيا وجديا ومجهولا يوشك أن يحدث فى حياة الرجل ·· صارحنى بذلك المعلم دعبس صاحب المقهى ، وصارحتنى بذلك جارتنا القابلة الست أم ذهب ، ثم صارحتنى بذلك زوجى نفسها ··

وهكذا مضى سكان الحارة يكتشفون القديس فى المجنون ، وكان ذلك الاكتشاف بطيئا كأنه غير مقصود فى أول الامر ·· والواقع أن عم اسماعيل لم يمر بفترة العبط الا وقتا قصيرا جدا ، فقد أصبح سكان الحارة أكثر احتراما له وتفاؤلا به ، يتحينون الفرصة لتقديم شىء من ضروراتهم له ، يكفرون بذلك عن خطايا كثيرة متشعبة ومختبئة فى نفوسهم ·· وقد منحته

لحيته التى دب اليها البياض شيئا من مهابة ٠٠ ثم سرعان ما أسرعت الأمور أكثر مما توقعت ٠٠

فقد حدث فى احدى وقفات عيد الأضحى أن رأت جارتنا أم نادى فى منامها رجلا بثياب بيضاء من قمة رأسه الى أصابع قدميه ، يطلب منها فى صوت أجش أن تقاسم هى وزوجها عم اسماعيل ما يأكلانه من لحم العيد ، وبذلك تنال أمنيتها ٠٠

ولم تكن جارتنا أم نادى عاقرا بالمعنى التام ، فقد أنجبت فى أوائل زواجها أربعة أطفال كان أولهم نادى ، وماتوا جميعهم ولما يتموا العام ، ثم انقطعت عن الولادة منذ أكثر من خمسة عشر عاما حتى أوشكت أخيرا على اليأس الخالص الذى لا يشوبه قلق ولا شبه قلق ٠٠

فلما كان الصباح أذاعت القصة بين جاراتها ، وحرصت أن تفى ما تلقته من أمر فى المنام ، فكنا نراها من شرفة بيتنا وهى تضع له الطعام ثم تمر بنا تزورنا لحظات لتروى لنا القصة من جديد ، ثم تخرج مسرعة وهى تضع أطراف ملاءتها بين أسنانها

ولقد مضى شهر وشهر ، فلما كان الشهر الثالث تحققت لأم نادى معجزتها ، وبدأ اهتمامها واهتمام حارتنا بشيخنا اسماعيل وثمة مسحة من القداسة أخذت تشيع على وجهه وتضىء روحه ، وأم نادى دائبة تحمل الى الرجل صنوفا من الطعام وألوانا من الاقمشة المزركشة ، فما اكتمل على حلمها عام حتى ولدت جارتنا طفلا أبت الا أن تدعوه باسم اسماعيل ، وقد أشفق بعض الخبثاء والمتشككين من الشباب أن يموت الطفل ولما يتم العام ، ولكن العام مضى والطفل فى صحة وعافية ٠٠

وهنا فقط آمن جيراننا بشيخنا وبقدرته ، ووفدت نساء الحارات الاخريات يلتففن حوله يتبركن به ويطلبن المعونة منه ٠

وكنت أنا أرقب كل هذا وألحظ كيف يكافح المجنون فى حارتنا حتى يلتقى بالقديس ٠٠ فقد بدا على الشيخ اسماعيل أنه بدأ يسلك طريقا صوفيا صارما ويأخذ نفسه بألوان من الالتزامات كأنما يجهد فى سبيل الحصول على شىء حقيقى وضرورى لوجوده ٠٠ ثم ما لبث أن احتل الميدان الصغير الحائل الذى يفضى الى حارتنا والتفع بمجموعة من الخرق المزركشة التى خاطتها له جارتنا أم نادى ، ووضع حول رقبته سلسلة ضخمة كالتى يقيدون بها الاشقياء ، ثم مضى يدور فى الميدان من الصباح

حتى المساء وهو يردد آيات الله وأسماءه الحسنى ويعبث بين أصابعه بمسبحة والناس يتحدثون عن معجزاته وعن كراماته ، فثمة من تشفى وثمة من تلد وثمة من يعود اليها زوجها وكان قد انتوى طلاقها ·· ولقد أتت الحرب ودوت صفارات الانذار وكان سكان حارتنا جبناء ، يفقدون أعصابهم ويلجأون الى ما يشبه المخبأ باكين مولولين ، وشيخنا اسماعيل قابع فى خرابته لا يتحرك ، وحارتنا لا تمس ، وفى اليوم التالى يذيعون أن هذا أيضا كرامة من كرامات الشيخ ··

وحدث ذات يوم أن سافرت مع أسرتى الى شاطىء البحر ، وأنا أقص لأكبر أبنائى ما يشاع عن كرامات الشيخ ومعجزاته فلما عدنا وجدناه قد اختفى وهم يجمعون النقود ليقيموا له ضريحا فى الخرابة حيث أمضى حياته ·· وثمة من يقول أن المسئولين أرغموهم ألا يدفنوه هنا ، ولكن جثته اختفت من مقبرتها بعد أيام قلائل من دفنه ، وهذه معجزة أخرى من معجزات الشيخ ودليل على رغبته الاكيدة أن يقيم بين سكان حارته ··

ولقد استولت الاوهام حينا على وهم يوشكون أن يبنوا الضريح بجانب بيتى ، فكنت أنصت فى الليل علنى أسمع صراخ زوجه ــ الذى سمعته وأنا طفل خلال أحاديث الناس ورواياتهم ــ يعود مولولا مرتفعا فى الليل ··

لكن حدث ذات يوم أن اشترى شخص قطعة الارض ، ولم يكن صاحبها من أهل حارتنا ، فحطم مشروع الضريح ·· وشاهدناه ذات يوم وهو يقبل مع أحد المهندسين ليعاين الارض وكان يبدو عليه أنه من رجال الاعمال الذين لا يملكون وقتا للضياع ، ورمى الحارة بنظرة من خلال نظارته ، ولم يجرؤ أحد من أهلها أن يتحدث اليه ·· ومضى يقيم عمارة ضخمة فى حارتنا الصغيرة المتواضعة ·· ودخلت سيارات النقل تحمل الاسمنت والحديد والخشب ·· وما لبث أن وفد ساكنون من نوع جديد وغريب أشاع القلق والاضطراب فى الانسجام الطيب الذى ظل يسود حارتنا زمنا طويلا ··

وليس هناك سبيل للمقاومة ، فلقد تقدمت بى الايام ، وكونت بعض الثروة ، وهأنذا أنوى أن أزوج ابنى فى الايام القليلة المقبلة مقترحا عليه أن يستأجر مسكنا فى العمارة الضخمة المرتفعة التى تقوم حيث التقى المجنون « بالقديس » ··



سرقة بالطابق السادس

سطا لص ــ أو لصوص ــ فى صباح أحد الآحاد على غرفة سيد افندى عامر ٠٠ ومع أن اللص ــ الذى لم يقم أبدا بحث جدى عنه ــ ربما لم يكن شديد الرغبة فى هذه السرقة بالذات ، الا أن النتائج التى ترتبت على هذا العمل العارض قد أخرجت سيد افندى عامر بعض الشىء عن نظامه المتكرر المألوف وأضافت الى طبيعته أثرا كان له فى حياته صداه ٠٠

وقد اكتشف أمر هذه السرقة حين عاد فى الساعه الثانية والنصف بعد الظهر من المدرسة الابتدائية التى يعمل بها ٠٠ فقد صعد ــ كعادته ــ درجات السلم التسعين ، ولمح السيدة الايطالية البدينة وهى أمام بابها بالطابق الخامس وقد صرفت لتوها بائعا يحمل قفصا فوق رأسه ، وكانت تهم باغلاق بابها عندما أوشك أن يحاذيها فى طريقه الى غرفته بالسطح أو بالطابق السادس كما شاء أن يسميه ٠٠ فمر بها صامتا لأنه ماحاول ان يحييها أو تحييه منذ جمعهما هذا المنزل ٠٠ فلما وصل أمام غرفته توقف قليلا ليجفف عرقه ، ثم أخذ يفتش جيوبه باحدى يديه ، وكان دائما يبدأ بالجيب الايسر ، ثم يستخدم كلتا يديه ، ويفكر فى سرعة كأنما فى غير شىء ، حتى اذا وصل الى الجيب الداخلى وتحسس صلابة المفتاح ، تحايل عليه حتى يخرجه ويولجه فى الباب ٠٠ وقد أداره الآن مرة بل مرتين ، ثم دفع الباب فانفتح أمامه فى هدير خافت ٠ وكان سيد افندى يعرف غرفته معرفة جيدة رغم ما بها من فوضى لهذا سرعان ما أحس حين دخوله أن هناك نقصا بها ٠٠ وقد تملكته فى أول الأمر لحظة من الغباء كأنما نسى شيئا لايستطيع أن يتذكره ، وتوقف تفكيره ولم يستطع أن يقدم أى ايضاح ، لكنه أدرك الحقيقة التى حاول تأجيل ادراكها ، حين وجد أن الحلة الرمادية الجديدة والحذاء البنى القاتم قد اختفيا من مكانهما ، أما أدوات النحت والرسم فقد تركها اللص ــ كشأنها ــ مبعثرة ٠٠ فتمتم الرجل بضع كلمات كأنه يستعيذ بشىء من شىء ٠٠

وكان ثمة امرأة فى حياة سيد افندى عامر قد احتلت الجانب الدينى منها ٠٠ فهو ما يفتأ يستعيذها وما يفتأ يتمتم باسمها كما يتمتم المؤمن بصلاته ٠٠ وكان بينهما ما يشبه الحب فيما

مضى فلما افترقا وتزوجت ـ وأنجبت الآن أطفالا ـ أصيب سيد افندى عامر بما وصفه الناس بأنه « هوس » فأصبح قليل المشاركة فى الحياة الاجتماعية ، كثير الشرود والرغبة فى النوم ، يصاحب صديقته وتصاحبه فى منامه ومأكله وروحاته وغدواته وكأنما تحولت كل طاقات الشعور الدينى نحوها ، فهـــو يستلهمها فيما يعتزم عليه من أمر ، ويستشيرها فيما يجد له من أمور ، وقد كرس لها كل قوى التصوف فى روحه حتى ما عاد يحس أن حياته اليوم الا طريقا دائما نحوها ، وجهدا دائبا للحصول المتجدد المستمر عليها ٠٠ فلما أقبل ذات عام عـلى زملائه المدرسين ليعمل بينهم كانت حياته الداخلية قد رسمت منهجها ولم تبد لهم الا آثار منها فى حركاته وتصرفاته ٠٠ فهو منصرف عنهم وهم منصرفون عنه ٠٠ يضمرون له ما يشبه عدم الحب لأنه مشغول بنفسه عن الانصات اليهم وتقدير شخصياتهم ومدح أعمالهم ، ويرضون فى أنفسهم ما يشبه الثأر بمايتهامسونه من ملاحظات علىطريقة لبسه الطربوش وهويكاد يصل الى أذنيه كأنه أحد باشوات القرن التاسع عشر ، وعلى نعـاسه الدائم فيما بين الدروس بل فى داخل الفصل نفسه أمام تلاميذه ، وعلى طريقة مشيته التى تكاد تكون حركة آلية لا سيما وهو يرى قادما يهز يديه الى جانبيه كأنه لعبة من لعب الأطفال الخشبية ٠٠

وكان سيد افندى عامر فى أشد لحظات تعبه الآن ، فهـو شديد الرغبة فى النوم ، يحلم بهذه العودة كلما خـــرج فى الصباح ، فلا يكاد يعود الى غرفته حتى يسـتلقى على السرير ببذلته وحذائه ثم يذهب فى اغفاءة عميقة لذيذة لا يفيق منها حتى بدء هبوط الليل ٠٠ لهذا شد ما استاء حين أخذ يتكشف له ما حدث بغرفته ، وساءه أن يختار اللص هذا اليوم بالذات ، لأنه ما كان يريد لشىء أن يعكر عليه هذا الصفو الذى يحسه وهو مقبل على اتمام محاولته التى بدأها بالجبس منذ الأمس ٠

وما كان لأحد أن يفطن الى أن هذا الحالم المستديم يمكنه أن يشغل نفسه بأمور الرسم والنحت ٠٠ ومع ذلك فلم يكن هذا شاذا ولا مستغربا ، فأنا أعرف مثلا تاجرا معنيا بأمور الرسم بحيث اذا شاهدت لوحاته حسبتها مسروقة من متحف عالمى ،

كما أعرف آخر ـ وهو موظف للبريد باحدى القرى ـ ما يكاد يفرغ من ساعات عمله حتى يفرغ لصنع تماثيل رائعة من الجبس .. ولهذا فليس من المستبعد أن يكون سيد أفندى عامر أحد هؤلاء الاشخاص الذين يلبى لهم الفن حاجات شخصية وضرورية فهو يشعرهم بوجود حياة خاصة لهم الى جانب هذا العمل المتكرر اليومى العام الذى يؤجرون من أجله حياتهم للآخرين لقاء مرتب به يأكلون ويشربون وينسلون ، لايستهدفون الشهرة ولا عطف الجماهير بل يكون الفن لديهم مجرد شعور بالقدرة على الاحاطة والتعبير والابداع ..

ولقد طرق سيد افندى عامر هذا الطريق لأنه أخذ يحس أن الايام كلما أوغلت به كلما أخذت معبودته تضل أمام عينيه ، فهى تستحيل شيئا فشيئا ـ وفيما يشبه الذوبان الهادىء ـ الى مجرد شعور ضبابى ، حتى ليكاد يمازجها الكثير من طبيعة الفراغ .. ولم يستطع سيد افندى عامر أن يواجه هذا التيه الفسيح الحر المقبل نحوه ، بل أصر على أن يظل ملامسا لشىء متجمد محدود كأنما استيقظت فيه قوى المشاعر الوثنية بعدما عبر هذا الطريق الصوفى الشاق .. فحاول أن يستعجل حصوله على معبودته فى خطوط وألوان ثم فى الجبس المتجمد فيما بعد ..

وكان الآن فى حاجة الى ايضاح ، مجرد ايضاح سريع لما حدث ثم ينتهى كل شىء .. فعاد ينزل مهرولا حتى التقى بالسيدة الايطالية وهى تفتح الباب من جديد لأمر ما ، فحدثها لأول مرة فى حياته متسائلا عما اذا كانت « المدام » قد رأت أحدا يدخل غرفته التى اختفت منها بعض الاشياء .. وصاحت السيدة فى انزعاج :

ـ خرامى ، خرامى ؟ هل أخبرت البواب ؟..

ثم أطلت من حاجز السلم ونادت بصوت رفيع زاده الانزعاج رفعا وهو يرن فى أرجاء المنزل :

ـ يا عبده ، يا عبده ..

وأقبل عبده مهرولا وخرجت جلوريا ابنة السيدة الايطالية ـ وهى شابة ذات جمال رائع ـ تسأل عن مثار الضجة .. فلما علمت بالخبر التفتت فى شىء من الاشفاق نحو سيد افندى وهى

تجامله متسائلة عما سرق اللص منه بلكنة أعجمية لذيذة ..
ولم تكن قد حدثته من قبل، مع أنه كثيرا ما يلتقى بها صاعدا درجات السلم أو هابطا عليها ، فيبدو أن حركة يديه الآلية وطربوشه اللاصق بأذنيه ما كانا يشجعانها كثيرا على تحيته ، كما أن جسدها الابيض المصقول المتين البنيان كان كلما حف به أحس بشيء من الذلة ازاءه ، فيغض من بصره وتصبح حركته الآلية أكثر انتظاما ، ويزداد على طربوشه ضغطا حتى يجاوزها .. أما الآن فقد أصبح موضع اهتمام واشفاق مما قد يتيح له أن يحييها وتحييه مرات فيما بعد ..

وعلى صوت اللغط خرج ساكن الشقة المقابلة ، وهو رب أسرة ، ويبدو أنه موظف كبير باحدى الشركات .. ولم تكن له أية صلة سابقة بسيد افندى عامر ، بل انه ما كان يخفى وجود ابتسامة تكاد تلوح على شفتيه كلما لمح سيد افندى عامر صاعدا أو هابطا كالأوزة البلهاء .. وقد أقبل الآن مستفسرا عما حدث ، فلما سمع الخبر صاح متسائلا :

ــ وهل أبلغت الشرطة يا سيد افندى ؟

وأحس سيد افندى بألفة غير متوقعة حين ناداه هذا الموظف الخطير باسمه ، ولكنه أحس بلون من الضيق حين جاء ذكر الشرطة ، فليس بينه وبين اللص كره حقيقى بل مجرد عتاب ، وليس فى نيته أن تبلغ المسألة هذا المدى ، بل انه ما كان يريد أن يثير هذه الضجة التى تحدث الآن ويتوسطها هو بالرغم منه ، لكنه وجد السيدة الايطالية تؤيد كلام الموظف وترجوه أن يسرع فيكتب بلاغا الى البوليس ..

وكان سيد افندى شديد الرغبة الآن للعودة بأسرع قواه الى غرفته لينام .. ولكنه أدرك أنهم لا يريدون المسألة أن تمر فى غير جلبة .. ولقد جاء رابع وخامس وسادس يعرف سيد افندى وجوههم ولا يعرف أسماءهم أو أعمالهم ، وقد أصبحوا الآن جميعا فى خدمته : فأحدهم يحدثه عن ضرورة استعمال حقه القانونى ، ولابد أن يكون هذا محاميا ، والآخر يتحدث عن ضرورة الاقتصاص من اللص والا جرؤ على اقتحام المنزل مرة أخرى ، وربما يكون هذا أحد الذين يخافون على أموالهم وأنفسهم ، وبيد سيد افندى الآن أمر الدفاع عن أمثاله ..

وقد أقبلوا نحوه يلاطفونه ، ويستأذنه أحدهم أن يصعد الى غرفته ليعرف كيف دخلها اللص رغم اغلاقها ، ويسأله آخر أن يقدر له ثمن الاشياء المسروقة ، بينما تبرع ثالث أن يصحبه الى مركز الشرطة لابلاغ المختصين .. وقد حاول سيد افندى عبثا أن يحملهم على العدول عما يطالبون به .. فما لبث أن وجد نفسه فى الطريق الى مركز البوليس ..

***

ولم يكن قد دخل من قبل مركزا للبوليس ، لهذا كان يجتر أثناء عودته ما رآه هناك .. فثمة شرطة وثمة قضبان ورجـال ونساء ، والرجل المنحنى وهو ما ينفك يغمس قطعة من القماش القذر الممزق فى سطل قد امتلأ بماء أسود ثم يعود يمسح بها على الدرج الابيض ، ثم الرفوف المزدحمة ببنادق لا تكاد تنتصب الا لتنحنى .. وألوان من المفاتيح المدلاة كأنها مشانق صغيرة يمكن أن يلهو بها الاطفال فى عيد ما ، وصفوف من السـلاسل والقيود المعتمة البيضاء حتى لكأنما هناك صليل خافت يملأ المكان ، ثم تثاؤب طويل طويل ..

فلما وصل الى المنزل وجد البواب أمامه كأنما يقفز من العدم وهو يسأله عما اذا كانت تعترضه صعوبة فى مهمته ، ثم عاد يسأله عن مدى الخسائر ، فأجابه سيد افندى فى اقتضاب وفى شىء من الزهو :

ــ قدرناها بسبعين جنيها .. والحمد لله على كل حال ..

فصاح البواب منفعلا :

ــ سيقبض البوليس بلا شك على هذا اللص ابن ...

ثم تساقطت لعنتان سمع سيد افندى أصداءهما وهو يعلو السلم ، فلما بلغ الطابق الثالث لمح ساكنا يهبط فانحرف ليفسح له مكانا ، لكنه ما لبث أن رأى الساكن يعترضه ليسـتوقفه متسائلا :

ــ هل قبض البوليس على اللص يا سيد افندى ؟

وعجب سيد افندى من معرفة الرجل به وبقصته وبالمهمة التى كان يقوم بها الآن ، فأجابه فى شىء من الخجل والتواضع :

ــ أرجو أن يقبض عليه ..

فأجابه الساكن متحمسا :

ـ بل سيجد المسروقات كذلك حتما ٠٠
ـ انى أشكرك على شعورك يا أستاذ ٠٠

ثم مضى صاعدا ، حتى اذا ما بلغ الطابق الخامس لمح السيدة الايطالية البدينة بانتظاره ، وما أن لمحته حتى ابتدرته متسائلة عما فعل ، فلما أجابها وهم يستأنف صعوده سمعها تناديه :

ـ يا سيد افندى ٠٠
ـ نعم يا مدام ٠٠
ـ أظنك في حاجة الى بعض الملابس مؤقتا ٠٠ وهاك بعض الملابس الخاصة بزوجي يمكنك استعمالها فهو يمكن أن يكون فى غنى عنها لبضعة أيام ٠٠

ثم لوحت له بمجموعة الملابس فى يديها ٠٠ فاللص قد أخذ كل ملابسه الداخلية والخارجية ولم يترك له سوى تلك التى يرتديها ٠٠ وقد رفض فى أول الامر ما عرضته السيدة عليه لكنه ما كان يعرف في الواقع كيف يمكن أن يستمر حتى نهاية الشهر على الاقل بدون ملابسه ، فهو ما يزال فى اليوم العاشر منه وقد أنفق كل مرتبه ولا يعيش من الآن الا بالدين ، فهو يأكل ويشرب ويتحرك « على الحساب » وان استطاع أن يعيش فى ملابسه هذه أسبوعا أو أسبوعين للضرورة فمن العسير عليه أن يستمر بها حتى نهاية الشهر ٠٠ ورأى السيدة تصر على عرضها ، فهى لا تجد منه مانعا حقيقيا سوى الخجل ، فقبل أخيرا أن يأخذ منها بعض الملابس ثم يشكرها وينصرف صاعدا الى غرفته ، وقد تملكه احساس حائر ما بين شعور بالزهو وشعور بالاستشهاد وشعور بالجميل وشعور بالارتباط بأشخاص كرماء أسخياء ٠٠ لكنه يود لو يظل بمنأى عنهم ، فكل علاقة انسانية ترهقه ، ويكفيه ما لقى من علاقته الأولى فى فجر شبابه وهى ما تزال تغذيه بمشاعر العبادة والخوف والقداسة والخطيئة ، فما دخل غرفته حتى استلقى على الفراش ومضى يرخى جفنيه ويغمض عينيه حيث تطمس له الظلمة ما حدث وما عساه يحدث

وكان هبوط الليل يملؤه كآبة ، ويشيع فى نفسه ألوانا من الاحاسيس المرتجفة الاسيانة ، فكان كلما استيقظ عند هبوط الليل هرب من نفسه ومضى يبحث عن وسيلة بها يقتل ساعات الليل البطىء الطويل الممل ، وكان أخشى ما يخشاه

هو أن يعود مبكرا بعض الشيء ذات ليلة فيأرق ويجد نفسه أمام نفسه زمنا لا يعرف متى ينتهي ، حيث تنبعث أمامه الرؤى والاساطير والعالم المزدحم بالعمالقة والنساء وبماضيه المتعرج الكئيب .. ولربما كان لهوايته بالرسم أو النحت أن تستبقيه بغرفته ، الا أنه كان يفضل أن يتفرغ لها في صباح عطلته الاسبوعية طالما هو لا يحس دافعا ملحا الى الانصراف اليها ..

وفيما عدا ذلك لم يكن يعرف وسيلة واحدة مجدية من بين الوسائل الكثيرة التي اصطنعتها حضارتنا لقتل الفراغ ، لم يكن يعرف النســـاء .. لامضاجعتهن ولا حبهن ، بل كان يخشاهن ويخشى المجتمع المزدحم بعطرهن وعيونهن .. ولم يكن يعرف طريقه الى احدى هذه الوسائل المنتشرة والتي كان يمكنه أن يتعاطاها فيعيش ذاهلا عن نفسه نصف حياته بل حياته كلها اذا شاء ..

كان في المقهى خلاصه المؤقت ، تتجدد حاجته اليه بتجدد اليوم ، وما يحمله اليوم من كآبة جديدة تظل تثقل عليه شيئا فشيئا ، فاذا هبط الليل تبلورت هذه الكآبة في روحه وغمرت نفسه ، فتفرزه غرفته الى ذلك المكان الصاخب المزدحم ، ينتحى فيه جانبا مكتفيا بمشاهدة الآخرين وهو يحتسى قهوته ويفكر في خليط رائع فظيع ..

وكان المقهى الذى تعود أن يجلس فيه سيد افندى عامر ، مقهى شديد الاستطالة شديد الانخفاض كأنه كابوس ، والناس يجلسون فيه ومن حوله مبعثرين في ارتخاء كأنهم بقايا جذور لشجرة هائلة مقطـوعة .. وكانت أضواء المقهى قليلة مبعثرة صفراء تكاد تميل الى الاظلام لولا أضواء الاعلانات وهي تعكس وهجا قلقا متلونا متقطعا يفيض على المكان لونا من الذهول المرهق المستطيل ، وقد التصق الناس بمقاعدهم والتمعت وجوههم وتركوا أقدامهم أمامهم مدلاة كأنهم ملل متكاثف أسود ، أو كأنهم ذباب أليف قد اطمأن الى قضاء ليلة في هذا المكان ..

وقد اقترب سيد أفندى عامر فوجد الخدم كعادتهم يتنقلون ويزعقون وينخنون ويبسمون والقـوم يتثاءبون ويتهامســون ويلعبون ويصفقون ويقهقهون وينصرفون ويقبلون، وهو يبحث عجلا عن أقرب المقاعد اليه كأنما يخشى أن يفقد نفسه وسط

هذه الزحمة ، حتى اطمأن الى منضدة رخامية بيضاء تكاد تنحنى عليها من كل جانب تلك المرايا التى ازدحمت بها جدران المقهى فضاعفت من عدد الناس ، وهى تفتح أمامهم ـ وخلف الجدران الجامدة ـ سراديب وهمية لا نهائية ، وقد لمح وجهه متكررا مرتين ثم ثلاث مرات ، فوجده أصفر شديد الامتقاع ، تكاد تغور فيه عيناه وتبرز منه وجنتاه كأنهما على وشك أن تغادراه ، فما لبث أن حوله عن هذه العيون الزجاجية الميتة ، والتجأ الى رخام المنضدة الابيض المصقول ·· وأحس بظهره أن هنالك منضدة خلفه قد انحنى فوقها رجل وامرأة فكونا ما يشبه القوس المتعرج ·· وأن ثمة صوتا لا يستحبه ولكنه يعرفه ، فالتفت قليلا الى الوراء بنصف وجهه وجسده ثم تحاشى أن يحدق فى الرجل تأدبا لوجود المرأة معه ، وكان صوتها واضحا ليس فيه كثير من الحذر رغم طبيعة الحوار القائمة بينهما ، ثم قهقهت المرأة قهقهة رفيعة متصلة ، وحملت لفائف أمامها وغادرت المقهى ··

وتناءب الرجل فسرت العدوى الى سيد افندى وتثاءب هو الآخر ، وكان هذا سببا كافيا لأن يتنبه أحدهما الى وجود الآخر ، فما لبث أن ناداه الرجل ، وفى الحال عرفه سيد افندى فالتفت اليه فاذا هو زميل له بالتدريس كثيرا ما يتشدق بمغامراته واطلاعه ، يتجنبه سيد افندى لأنه يحس بأن هذا الرجل يضمر له لونا من الاحتقار لسبب لا يعرفه ، وان كان لا يذكر حادثة بها يؤيد احساسه ·· ورآه سيد افندى وهو يستأذنه فى الجلوس الى منضدته وينادى الخادم ويبتسم ويطلب قهوة له ·· وأدهشه ألا يجد شيئا من السخرية على وجه زميله بل رغبة حقيقية للحفاوة والاكرام ، ثم وجده ينحنى عليه قليلا وتتخذ عضلات وجهه لونا من الجد ، وهو يهمس فى أذنه قائلا :

ـ سمعت أنك سرقت ··

فلما بلغ الليل ساعة متأخرة كان قد تجمع حول منضدته نفر غير قليل ، بعضهم ممن يعرفهم من قبل معرفة عابرة ، وبعضهم ممن لا يعرفهم أبدا ·· وقد بالغوا جميعا فى اكرامه كأنما يحتفلون بزواجه أو عيد ميلاده ، وهذا يعرض عليه أن يقرضه شيئا من النقود ، وذاك يقدم له سيجارة وهو لا يدخن

السجائر ، وألقوا عليه كثيرا من الأسئلة واقترحوا شــتى المساعدات ، وكان أحدهم ما يفتأ يسأله بين الحين والحين :

ـ لكن أخبرني يا سيد افندى كيف دخل اللص غرفتك ؟

ـ وهل أعرف !!

ـ لكنك متأكد أن الباب كان مغلقا حين عودتك ؟

ـ بكل تأكيد ..

ـ اذن كيف دخل !

ـ قلت لك وهل أعرف !

ثم يبرز شخص آخر كأنما تنبه فجأة الى ما غفل عنه الجميع :

ـ والنافذة ، هل كانت مغلقة ؟

ـ لا توجد نافذة بالغرفة ، بل مجرد كوة حديدية فى أعلاها

ـ آه ..

فيقفز ثالث قائلا :

ـ وماذا قال البواب ؟

ـ قال انه لم ير وجها غير مألوف يدخل المنزل ..

ـ وماذا قالت السيدة الايطالية ؟

وهنا يتقدم زميل آخر ليريح سيد افندى من عناء الاجابة وهو يقول :

ـ قال لك انها أمضت الصباح مع جاراتها على السطح أمام غرفته كعادتها صباح كل أحد ..

ـ ولم تر أحدا يحاول دخول غرفته ؟

ـ بالطبع لم تر أحدا ..

وهل لم يترك أثرا يدل عليه ؟

وهنا صمت الزميل المتطوع واتجهت العيون نحو سيد افندى من جديد وهو يقول :

ـ ماذا ؟ كلا ، لم أبحث الامر ..

ـ ولم تخبر الشرطة بأن الغرفة كانت مغلقة ؟

ـ لم أر فى ذلك ما يغير الاوضاع ..

ـ ولم يذهب أحد من رجال البوليس ليعاين المكان ؟

ـ كلا ، لم يأت أحد معى ..

ـ ولماذا ؟

وسأل أحد الذين لم يتكلموا بعد :
ـ ولا تخشى أن يذهب اللص الآن ليسرقك من جديد ؟
ـ الا اذا أراد أن يحمل السرير والمنضدة ٠٠
وسرت ضحكة خافتة بين المجتمعين وهم يدخنون ٠٠ وأحس سيد أفندى أنه يختنق وان وهج الاعلانات المتقطع يقلقه ، وقد تعرف الى أشخاص أكثر مما ينبغى ، وتورط معهم فى علاقة يخشى ألا يستطيع أن يحفظ عليها امتدادها ٠٠ وقد وضعوه موضع اهتمام قد لا يتاح له فى غير هذه الليلة ٠٠ وتثاءب الجالس عن يساره وتثاءب سيد افندى وتثاءب ثالث فرابع فخامس ، فلما تطلع الى المرايا التى تكاد تمس السقف المنخفض وجد أن الافواه الباقية بالمقهى تتثاءب جميعها وهى ترتفع بأصحابها عن مقاعدهم ٠٠

***

وعندما كاد يبلغ غرفته ، سمع أمام بابه حركة مفاجئة ، ثم سمع صوت جلوريا وهى تضحك فى شبه انزعاج قائلة :
ـ أرعبتنى ٠٠
فأجابها فى دهشة :
ـ هل أنت جلوريا ؟
فأجابته ضاحكة :
ـ بل أنا اللص !!
وعجب من وجودها أمام باب غرفته ، وتساءل عما اذا كانت تودع عشيقا كان معها فوق السطح أم أنها تستنشق هـواء الليل البارد ٠٠ وضغط على طربوشه ، ثم مضى يفتح الباب وهو يسمعها تقول :
ـ لقد أرسلتنى أمي لأنها تظن أنها نسيت خطابا بجيب البيجاما التى أعطتها ظهر اليوم لك ٠٠
فأجابها فى ارتياب واشفاق :
ـ اذن تفضلى ٠٠
ودخل أمامها ودخلت وراءه ٠٠ وخلع طربوشه ومسح على جبهته ، ثم أحضر كومة الملابس ـ فلم يستخدم شيئا منها بعد ـ ومضى يرقبها وهى تبحث بعينيها وأناملها ٠

وكانت جلوريا ترتدى قميصا شفافا طويلا ، وتنبعث من جسدها العملاقى رائحة عطرة مثيرة ، وشعرها ينسدل على وجهها ، ويكاد ثدياها يبرزان وهى واقفة فى انحناءة تبحث ٠٠ ولمح عجزها المستدير الطرى ، وعرف أنه يثور ، فأسرع يقدم اليها المقعد الوحيد بالغرفة يطلب منها الجلوس حتى تستريح وهو يأمل أن يكون منظرها الآن أقل اثارة ٠٠ ويبدو أنها أدركت ما أثارت فيه من مشاعر وفكرت لحظة أن تعبث به فتتركه يتعذب بضع لحظات ثم تغادره ، لولا أن بررت لها طبيعتها أنها ستقوم بعمل نبيل حين تحاول اخراج هذا الرجل عن طبيعته المتخشبة ، ومع ذلك فقد كانت تتزود دفاعا عن نفسها بشحنة هائلة من مشاعر السخرية القاتلة وهى تنظر نحوه فجأة كأنما تدعوه للبحث معها وتقول :

ـ لماذا لا تقترب ؟

وتركته يلامسها كأنما عفوا ، وكان تردده الشديد يملؤها احتقارا له ، لكنها صممت ألا تنسحب ، فقد بيتت فى نفسها أمرا ٠٠

كان مترددا يخاف المغامرة ، يريد أن يستوثق من كل حركة ـ بل من كل رغبة ـ قبل أن يقدم عليها ، كان يخشى أن ترده ، وكان على استعداد للتراجع عند أول بادرة بنفورها مما يفعل ، وكان يبرر ذلك بما يعتقده من اضطرارها الى سلوك سبيل لا ترضاه لكنها لا تقوى على مقاومته ، وكان هذا الاحساس بالجريمة يعذبه ويشقيه ، ويتمنى فى كل لحظة لو أمكنه التراجع ، لو لم تستعر هذه الرغبة الملحاحة الدؤوب التى تجعله يتأمل الآن عن قرب شديد عينيها وشفتيها المبتسمتين فى استكانة واستسلام ٠٠ وانحنى على جسدها قليلا ، وأحس طراوة اللحم ونعومة الجسد النسائى ودفئه وتماسكه ومقاومته ، وأدرك أنه يلج الآن منطقة جديدة فى المعرفة الحية ، ولكنه يلجها فى استحياء وتردد وخجل ، رغم ما يحمله هذا العالم الجديد من أسرار وخفايا وشهوات تدعوه وتغريه منذ استيقظ الاله والحيوان فى جسده الانسانى ٠٠ ومع ذلك فقد كان يود لو ينتصر ٠٠ كان يشعر أنه فى حاجة الى أن يزيح عن نفسه طبقات متراكمة ، وأن يجلو هذا الصدأ الكثيف ٠٠

ومد أنامله اليسرى نحو ذراعها العارية اليمنى ، فى بطء كأنما يتلمس طريقه وسط ظلمة ، أو كأنه طفل يحبو مشفقا أن يكبو ، والعرق يتصبب غزيرا منه ، وقلبه يخفق خفقانا متقطعا يكاد يشله عن كل حركة ، فقد عاش التجربة المشتهاة كلها بذهنه وجسده قبل أن يقدم عليها ، وأخافه أن رآها ترتعش قليلا وصدرها يرتفع وينخفض فى سرعة ملحوظة ، فتراجع فجأة وهو يسألها سؤالا غريبا ما توقعته أبدا :

ـ هل أنت متعبة ؟

وضحكت ضحكة مرتفعة خشى معها افتضاح أمره ، فأجابته فى تهكم :

ـ تقصد أنك أنت المتعب !!

ولاحظت أنه بدأ يفطن الى ما ارتكبه من خطأ ، وأنه يستجمع قواه من جديد ، حاسبا أنه يستطيع أن يبدأ من حيث انتهى ، لكنها قررت ألا يلمسها من جديد وألا تعرض له جسدها مرة أخرى .. وأحست بسيطرتها عليه ، وانتابتها نشوة هائلة بهذا الاحساس ، وأدركت بحدسها وخبرتها أن هذه هى أول تجربة له من نوعها ويكفيه أن يعرف معها هذه المرحلة منها .

وكان فى عينيه رجاء ، وود لو تقنع بأن تهبه فرصة من جديد ، لكنه لمح فى عينيها السخرية والتهكم ، فحز ذلك فى نفسه ، وأدرك أنها أصبحت بعيدة المنال ، وأنه قزم متضائل أمام جسدها العملاقى الشهوانى ..

وراعه أن تجلس أمامه مطمئنة ، كأنما لن يجرؤ على أن يقربها من جديد ، فتقدم نحوها ، وأدرك أنها أدركت ، فقد وقفت وأمسكت تعبث بالتمثال الجبسى المشوه كأنما لتدافع به عن نفسها ، وتملكته فجأة رغبة شيطانية .. أن يضربها ، أن يضرب هذا الجسد الملفوف الطرى فى عنف ولذة ، وكان واثقا لسبب خفى ـ أنها ستلين اذ ذاك ، ستستعذب ضرباته وتستلقى أمامه هذه المرة .. لكنه لم يتقدم ، كأنما هنالك شىء فظيع يعطله ويحجب عنه هذه المنحنيات الانسانية المزدحمة .. كان يريد أن ينتصر ، لكنه كان يخشى أن ينهزم ، وما لبث أن رآها تمرق من الباب وعلى شفتيها ابتسامة وهى تقول :

ـ لم أجد الخطاب ..

وأحس ضيقا عظيما وتلفتحوله باحثا عن وسيلة للخلاص ٠

***

وكانت المعركة القائمة بينه وبين الجبس قد بلغت الآن لحظتها الحاسمة ٠٠ وكان من قبل قد طرق محاولته فى الرسم ، فقد كانت له به هواية ترجع الى سن مراهقته ، الا أنه طلقه منذ أمد بعيد ، ولم تعد له به الا صلة باهتة من الذكرى ، ولم يمض بتجربته اذ ذاك الى نتائج ذات شأن ، فلم تتعد بضع محاولات لتصوير مناظر للطبيعة منقولة عن رسوم أخرى ، الا أنها أمدته ببعض المعرفة بطريقة تناول الفرشاة ومزج الألوان وصعوبات العمل ٠٠ ولذلك كان الرسم هو أول ما لجأ اليه الآن ، ولم يكن قد حاول رسم الوجه الانسانى ، ومع ذلك فقد أقبل على محاولته وهو يظنها يسيرة سهلة ، لكنها ما لبثت أن تكشفت له عن عقبات كان لا بد له من التغلب عليها أولا ٠٠

وقد بدأ أولا برسم الوجه ، فلما وجد أن لا سبيل اليه الآن أرجأه الى ما بعد ، وكان يريد أن يرسم صورة نصفية ، فمضى يرسم الصدر والكتفين ثم ترك فراغا كبيرا رسم حوله قوسا مستطيلا أخذ يسدل الشعر حوله ، فلما اطمأن أخيرا الى هذا الاطار العام أحس أنه لا يمت اليه بصلة وانه لم يخط حتى الآن فى محاولته الجديدة للتعبير ، فمضى يرسم الانف وهو يغامر والشفتين وهو يغامر ، ثم يحصل على ارهاصات وجه لا ينتمى على الاطلاق لمشاعره ولا حتى لفكرة مزعجة فى خياله ٠٠ وكأنما لا صلة بين ما يرسم وذلك الكائن الحى فى داخله ٠٠ وبلمسة من فرشاته يعيد الفراغ الى بياضه ، فهاهنا على الاقل أمل جديد وليس ثمة مواجهة لفشل متحقق ، ثم يعيد محاولته المرة بعد المرة ٠٠ وقد غير لوحة بعد الأخرى وهو لا يمل محاولته حتى استطاع أن يحصل أخيرا على شىء من الانتصار ، فحصل على وجه له ملامح تقارب ملامحها ، وقد يئس من الوصول الى كمال ما ، وظن أنه يستطيع أن يستريح الآن ، حين وجد أن رسما فوق لوحة لا يحقق حاجته الوثنية المستيقظة ٠٠

ذلك أن الصورة فوق اللوحة لم تقرب اليه كثيرا من ذلك الوجود المجرد ، وكان هو يريد واقعا له ابعاد ثلاثة مثلما للجسد ٠٠ وهكذا اتجه تفكيره نحو الجبس بحثا عن الصنم ٠٠ وكانت

مهمته هذه أشق ، يتجه نحوها وهو يدرك صعوبات العمل ..
واستفاد من خبراته السابقة في الرسم ، فبدأ أول ما بدأ بصنع الكتفين والرأس تاركا ملامح الوجه حتى يفرغ فى النهاية لها .
وقد استطاع أن يصل أخيرا الى صنع هذه الاجزاء الاولية من تمثاله ، وكان الآن حريصا ألا يهشمه ، ولكنه كان يخشى أن يواجه فشله ، فظل يمعن اتقانا فى ثنيات الثوب الوهمى ، وفى نعومة الصدر الاملس وفى اضافة شيء من التعاريج الى الضفيرتين المسدلتين وثمة فراغ سديمى أمامه يزعجه أن تضل فيه يداه .. ولكنه كان حريصا أن يصنع التمثال بيديه كأنما تجربته الوثنية لا تزال تشوبها هناتجربته الصوفية الأولىحيث يكون عمل التمثال طقسا من طقوس عبادته ..

لم يكن سيد افندى يريد مجرد التعبير بل كان يريد التعبير المقدس ، وكان هذا هو ما يزيد مهمته صعوبة ويجعله يحس أنه ازاء محاولة أبعد كثيرا عن قدراته .. وقد أخذ الآن يغامر ليخلق المعنى من المجهول ..

والواقع أنه لم يكن يحس بمعنى الخلق ، بل كان يشعر أنه يزيح طبقات جيولوجية متراكمة عن وجه متألم رائع قد طمسته قرون وأحداث ، وأنه الآن فى سبيله الى هذا الوجه .. وكان قد أتم بالامس صقل الانف وابراز الشفتين وأوشك على خلق النور للعينين ، وكان معنى ذلك أنه أوشك أن يشرف علىحصول لكنه كان يحس الآن بقلقلة فى روحه بسبب ما جد عليه من أحداث ما توقعها ، تتسلل الواحدة وراء الأخرى كأنها قطيع يتخبط فى وحل ، وأخذ يستعيد كلمات زميله بالمقهى الذى استطاع أن يصل معه الى حديث ذى ألفة ما توقعها ، فقد قال له أن حياته حرص متصل على فراغ ، فيظل يسيج ويغلق ولا شيء سوى الفراغ ، ووصفه بأنه ذو طبيعة متخشبة ود لو يخرج عنها ..

كان كثير الحرص ، فى حركاته وفى علاقاته بالناس ، وحتى محاولاته هنا ـ رغم ما بظاهرها من طابع المغامرة والجهد ـ كان جوهرها الحرص .. وكان الحـــرص يدعوه دائما الى النوم والانكماش ، لهذا سرعان ما أخذ يراوده النوم وهو لما يعمـل يديه فى التمثال ، وكان كثير الشك فى سلامة الانف وسلامة

الشفتين ويخشى أن يكون ظهور العينين محققا لهذا الشك ..
كان يحس أن هناك شيئا حقيقيا وجوهريا يعطل حياته لكنه لا يدركه ، وكأنما يستعيد الآن في تجربته الحجرية تجــربة حياته العاطفية التي لم يحصل منها الا على ما يشبه حصوله هنا على ثنيات الثوب الوهمى ونعومة الصدر وتكور الرأس .. لم يحصل عليها هى بالذات ، بل حصل على مجرد الاطار العام فى حياته للمرأة ، وفيما عدا ذلك فثمة فراغ سديمى قد ضل عنه وسط صخب الارادات الانسانية المتضاربة ..

وهكذا أحس بنفور من تمثاله وحياته ، وأطفأ النور ، ومضى نحو الفراش وأخذ يرخي جفنيــه وهو يتفحص العيون التى ازدحمت عليه اليوم ، والارجل التى وطئت غرفته ، والذين حدثوه ، والذين جاملوه ، يبحث بينهم عمن يكون اللص وهو يحس بزلزلة هائلة فى كل حياته ..

***

وكانت المدرسة التى يعمل بها سيد افندى عامر تتكون من طابقين ، أحدهما فوق الارض والآخر منخفض عنها ـ أو على وجه أصح ـ ينخفض مترا ويعلو مترا ، وكان أكثر عمله يتعلق بهذا الطابق الاخير ، ففى كل صباح ينحدر اليه ، ويواجــه حشدا من التلاميذ الصغار يجلسون فى حجرات هى أشــبه ما تكون بالدهاليز ، ولا يكون لدخوله كبير أثر ســوى أنهم يتصنعون الوقوف فتزداد فوضاهم ، وهم يتشاجرون ويغنون ويفتحون الادراج ويقفلونها فيضرب بيده على منضدته ويصمت التلاميذ لحظة ، لكنهم ما يستطيعون الاستقرار الطويل ، فما تلبث الحركة أن تدب بينهم من جديد .. وكان هذا يزعجه ويعطل عليه درسه ، كما كان يحرمه النعاس كلما راوده وود لو ينعم بلحظة منه أثناء الدرس ..

وكان أكثر التلاميذ صغارا لا تزيد أعمارهم عن الثانية عشرة قذرين يعلو الاصفرار الدائم وجوههم ، يقبلون من أزقة الحى وقد لوثهم الوحــل ولطخت بقع الحبر ثيابهم ، وقلما كانوا يحضرون أدواتهم كاملة ، وما ينفكون يضربون بعضهم بعضا ثم يأتون اليه شاكين باكين ، فيستمع الى شكواهم ويوازن بين حججهم ، وبقية التلاميذ يضجون ويضجون ، ثم لا يستطيع

أن يحدد المذنب ، فما يلتفت الى السبورة حتى تنهال عليه قطع الطباشير ..

وقد أقبل هذا الصباح الى عمله ، فاستقبله المدرسون مستفسرين يستيقنون مما بلغهم من أخبار ويستزيدون ويظهرون مشاركتهم بشتى الطرق والتعبيرات ..

ثم انحدر نحو الطابق المنخفض ودلف الى حجرة الدراسة وضرب على المنضدة بيده ، وفجأة سمع طرقا على الباب ، وصمت التلاميذ فجأة فما كان يخيفهم شيء مثلما تخيفهم عصا الناظر .. ولكن فرجة الباب ما لبثت أن كشفت عن وجه أحد السعاة وهو يعلن سيد افندى بأن حضرة الناظر يريد مقابلته ، وفجأة ضج الفصل بالهتاف واندفعوا يستأنفون ما كانوا فيه من عراك وتصايح ، وسيد افندى منطلق الى غرفة الناظر بالطابق العلوى ..

ولم تكن لسيد افندى صلة كبيرة بالناظر مثلما لم تكن له بأى زميل من زملائه .. لهذا تحير فيما عساه يريد اليوم منه . وما كان يدعى الى غرفة الناظر الا لمقابلة أحد المفتشين ، وهى مقابلة تشيع فيه الضيق ، ولكنه لا يتوقعها اليوم .. فازداد ضغطا على طربوشه كأنما ليعدل من منظره أو يرفع من أهميته ، أو كأنما هو ممثل أوشك أن يواجه النظارة .. فلما صعد الى حجرة الناظر طرق الباب ، ثم دخل بأدب وحياه .. ووجد على وجه الرجل بشاشة وترحيبا ما عهدهما .. فلما أذن له بالجلوس مضى يجاذبه حديثا وديا عن عمله ، ويعتب عليه أنه لا يكاد يراه .. وقد سر سيد افندى من رقة الناظر ودماثته ، ولو أنه دهش من اختيار هذا الوقت لتبادل التحيات والمجاملات حين سمعه يقول :

ــ انك تستطيع يا سيد افندى أن تترك العمل فقد كلفت به زملاءك ..

ــ ولكن هل من سبب ؟

ــ لقد بلغنى من زملائك أنك سرقت ..

ــ آه ..

ــ ولا شك أنك تحتاج الى بعض الوقت للبحث عن ملابسك

ــ لقد أبلغت البوليس ..

ـ ان رجال الشرطة لا يقومون بجهد خاص فى مثل هــذه السرقات بل هم يعتمدون على الصدفة العارضة أثناء العمل العام الذى يقومون به ..
ـ وماذا عسانى أفعل اذن ؟
ـ ستذهب الى دكاكين الرهن ، فهناك يلجأ اللصوص للتخلص من هذه السرقات ..
ـ وكيف السبيل الى هذه الدكاكين ؟
ـ سيكون فى خدمتك أحد السعاه .

وما هى الا دقائق حتى كان سيد افندى عامر يخرج من باب المدرسة وهو يحس بلون من الغبطة لما أبداه رئيسه من عطف عليه واهتمام بأمره ، ومن خلفه كان يسير أحد السعاه ..

ومضى سيد افندى بصحبة الساعى الى حى الرهون ، وهو حى لا يذكر أنه سمع بوجوده من قبل وكان الآن مجرد مقصد مجهول ، لكن له به صلة وثيقة ، فهناك ، فى زاوية أحــــد الدكاكين التى لم تقع عليها عيناه أبدا ، قد يرقد فى انتظاره حذاؤه أو حلته أو قطعة من ملابسه الداخلية التى كانت تلتصق بلحمه هو ..

ووجد نفسه يسير مع الساعى فى حى عليه مسحة من الغرابة فالمنازل ما تنفك تزداد ارتفاعا ، والطرقات ما تنفك تزداد ضيقا كأنها أخاديد حفرتها أظافر مجنون ، وقد رصفت أرضها بقطع من البلاط فى غير استواء ، وارتفع الى أنفه خليط ما بين رائحة كريهة وأخرى لطعام شهى وثالثة لبخور ، ومجموعة أخرى من الروائح لا يكاد يميز بينها .. وكان يسير صامتا أكثر الوقت ، لكن احساسه بوجود أحد السعاة فى خدمته كان أمرا لا شك فيه .. ثم ما لبث أن دلفا الى ميدان فالى طريق أكثر انفساحا وأكثر حرية ، ثم أشار الساعى الى دكان قريب عرجا عليه .. وكان واضحا أن الطريق كلها تزدحم بعدد كثير من الدكاكين المتجاورة المتشابهة كأنما اتفق عــــلى أن تختار الدكان الذى تقصده قبل مجيئك الى هذا المكان .

وأمام كل دكان كان ثمة حاجز رخامى أبيض مصــقول ، ووراءه تماما يهودى ذو ذقن طويلة قذرة ، وقد ازدحمت الجدران وراءه برفوف مقسمة الى شتى الاحجام من أسفل الارض حتى

أعلاها واكتظت الرفوف بشتى الاشياءوالمتناقضات كأنها تلخيص لمعرض أقامه هواة عابثون ، وقد علق بكل رهن رقم صغير هو الصلة بينه وبين صاحبه ·· فهنا ساعة ذهبية لا بد أن تكون لأحد الباشوات المعربدين ، وهنا مجموعة من الكتب القديمة الصفراء لا بد أن تكون لطالب أزهرى متقاعد ، وهناك كفتا ميزان لعلهما لتاجر أفلس ، وهنا ــ أمامه تماما ــ عينا اليهودى ولحيته الطويلة ذات الرائحة الفريدة وهو يســـأله من خلف عويناته عما يريده ·· وامتلأ سيد افندى بشىء من ذلك الزهو الذى عرض لمشاعره منذ الامس ، فهو لم يقبل هنا ليرهن شيئا من أعوازه بسبب عوز أشد ، بل هو أقبل يسأل عن حق له ، مجرد سرقة يحتمل أن يكون اللص قد حملها الى هذا المكان للتخلص المؤقت أو الدائم منها ·· ومضى يصف له الأشـياء المسروقة ، والرجل يتظاهر بالاصغاء ثم يقاطعه بلكنة أعجمية شـــــارحا له أن اللصـــــوص لا يبيعون سرقاتهم فى مثل هذا الحى لأنهم أدرى الناس بانتشار البوليس هنا ، بل هم يذهبون بها الى الريف حيث لا يمكنك أن تتبع شيئا ولا أن تسترد شيئا ··

ولقد واصل سيد افندى عامر جولته فى الحى وهو يتلقى نفس الاجابة من كل يهودى ، وكان يتفرس فى رواد الحى عسى أن يلمح أحدا يرتدى قطعة من ملابسه أو يحمل شـــيئا مما يخصه ، لكنه ما كان يرى غير نسوة أتين ليرهن بعض متاعهن ما بين طست أو ابريق أو مجموعة من الاثواب المتآكلة ، ثم طلبة وخدم وفنانون وفتيات مراهقات ··

فلما خرج من الحى وصرف الساعى ، مضى يتتبع مرة ثم أخرى شخصين خيل اليه أنهما يرتديان ما يشبه قميصا أو حذاء له · وقد فقد احدهما فى شارع مزدحم ، أما الآخر ، فقد قام سيد عامر بأجرأ عمل قام به فى حياته كلها ، فقد اقترب منه وحياه وهو يعبر الطريق الى الجانب الآخر ، وقد رد الرجل تحية سيد افندى وهو ماض فى طريقه ، لكن هذه اللحظة كانت كافية لأن يتبين زيف اتهامه للرجل فتركه يغيب عن بصره ·· لاسيما وقد أقبلت الظهيرة واشتد القيظ ··

وقصد الى غرفته ، وحاول عبثا أن ينام ، فعاد وقام وغادر غرفته على غير عادته فى مثل هذه الساعة من النهار ٠٠ والتقى على السلم بالسيدة الايطالية وابنتها فابتسم لهما ، ثم قابل الموظف الخطير ومعه أحد الساكنين يصعدان فحياهما ، فلما بلغ البواب رد عليه تحيته ٠٠

ومضى سيد أفندى عامر يجول الطرق في مثل هذا الوقت من النهار ، يفحص بعينيه الملابس والاحذية ، ويرتاب فيمن يحملون لفائف من الورق أو القماش ، فقد ارتبط بالمدينة كلها وأصبح كل شخص فجأة ذا أهمية له !! وأخــذ يتفرس فى الذاهبين والمقبلين ، والجالسين على الأرض وفى المقاهى ، والمطلين من شرفات منازلهم ، حتى لكأنما له شيء فى كل منزل وفى كل نافذة منزل ٠٠



مهداة الى الاستاذ نجيب محفوظ
صاحب زقاق المدق

صنع يصنع فهو صانع ، وصنع المصنع السيارات ، وصنعت المصانع القنابل ، فهى صناعة ، وهى مصنوعة ، وعم كامل يصنع البسبوسة ، وحسنيه الفرالة وزوجها جعدة يصنعان الخبز ، وكانت الست أم حميدة الخاطبة تصنع العائلات ، وصنع المسيح المعجزات ، وصنع زيطه المعجزات ..

وتوفى زيطه فى السجن منذ أيام ، ورأيت أن أتقدم بالتماس الى الجهات المختصة مطالبا بأن يصنعوا له تمثالا ويقيموه على رأس زقاق المدق ، راجيا أن يفصل حضرات المختصين كل الفصل بين ذلك العمل الاضافى الذى أدى به الى السجن وأخذ

جزاء عنه ، وبين هذا العمل البطولى الذى وقف زيطة حياته عليه ، والفهم الرائع لمعنى العاهة الذى كان يدركه بحدسه وعبقريته ، وكيف استطاع وحده أن يواجه مدينة صاخبة ضاجة وأن يلبى لها في اخلاص حاجة ملحة ضرورية ٠٠

فقد قبض فى ليل أحد الايام ـ ومنذ سنتين ـ على زيطة وصديقه الملقب بالدكتور بوشى لاتهامهما بسرقة جثث الاموات ، وشاع فى الزقاق أنهما كانا يسرقان طقم الاسنان الذهبى من جثة المرحوم عبد الحميد الطالبى الذى كان بائعا للدقيق بالمبيضة فلما سمعت بذلك الست سنيه عفيفى ، وهى جالسة تشرب القهوة التي صنعتها لنفسها بنفسها ، رمت بطقم أسنانها الذهبى الذى سبق أن صنعه لها الدكتور بوشى ، ثم صرخت وولولت حتى أغمى عليها ، ومنذ ذلك الحين اختفى زيطة وصديقه من حياة الزقاق وانقطع كل منهما عن صناعته ، ومع ذلك فلم تكن سرقة جثث الأموات هى العمل الرئيسى لزيطه ، بل هو عمل اضافى اضطر أخيرا أن يقوم به الى جانب الصناعة التى وقف عليها حياته ٠٠

ولقد ولد زيطة لأبوين يصطنعان الشحاذة ، وكان ذلك أول العلامات الدالة على تأهبه للصناعة التى تفرغ لها فيما بعد ٠٠ وكان مجيئه ـ كمجىء أى صانع عظيم ـ بعد انتظار وترقب وحاجة ٠٠ فقد كان والده فى حاجة الى ابن تحمله الأم أثناء تجوالها لتثير العطف وتستدر الاحسان وحسن الصنيع ، وقد انتظرا طويلا حتى اضطرا أن يكتريا طفلا ، فما أقبل زيطة الى هذا العالم ، حتى وفر عليهما ثمن الاكتراء ، فكان فرحة عظيمة لهما ، كما كان خلاصا للكثيرين فيما بعد ٠٠

وفى التراب نشأ زيطه ، وفى التراب عاش ، كانت أمه تتركه يزحف بحرية يرعى بين القاذورات والحشرات ، يتذوق الوحل ويختبر مواطىء الاقدام ٠٠ كانت نفايات البقدونس وقشر الطماطم والهوام السابحة فى المياه الراكدة هى عالمه الجمالى المنقطع النظير ، وكان يحس بالتصاقه فى الطين لذة يتصنع الآخرون الجزع منها ، والتقزز من مواجهتها ٠٠ وقد هيأت له هذه القذارة فرصة الابتعاد عن الناس فيما بعد ، متفرغا لتأملاته ومتفكرا فيما ألقى عليه من مهام ، فقد كانت رائحته الكريهة

تنفيه عن الناس ، وكانت قذارته تجنبه فضولهم وتحديقهم فيه ، لا يصانعونه ولا يصانعهم ، وهم متحصنون بأنفسهم من أنفسهم بروائحهم العطـرية وأناقتهم المصطنعة اذا فكروا فى الانتحار فكروا فيه بغير أن يجـرؤوا عليه ، لا يدركون المعنى المخلص للعاهة ولا القيمة المطهرة للتشويه ..

ولسنا نعرف كثيرا عن حياته أيام صباه فهذا الجـــزء من تاريخه غامض ومجهول أكثره لدينا ، وكل ما نعرفه مما بلغنا من أخبار أنه كان يعمل فى « سرك » متجول حيث تدرب على فن « الماكياج » وأصبحت له فيه يد صناع .. وحيث يمكننا أن نستنتج أنه لابد أن يكون قد تعرف بذلك على جوانب كثيرة وصناعات متعددة فى الحياة وهكذا أعدته ولادته وطفولته وأيام صباه للصناعة التى ألقى على عاتقه أن يأخذ بها فيما بعد ..

فى هذه الاثناء كان زعماء العالم يصنعون الحقد والكره فى القلوب ويصنعون القنابل والطائرات فى المصانع ، ثم مزجوا الجميع معا وصنعوا منه حريقا عالميا كبيرا .. وفى الشـــوارع الفخمة فى المدينة كانت صناعة التجميل قد انتشرت ، تصنع السمنة للنحاف والنحافة للسمان وتزيل الشعر وحب الشباب وتبرز الأرداف وتكور الاثداء ، وانتشرت الصالونات تسوى الاذن المنكمشة وتصغر المفرطحة ، وتعدل الانف المنحنى وتدقق الشفتين الغليظتين ، وتعيد الصبا الى « شمطاوات » الطبقـة « الراقية » وفى الغرب كانت قد ظهرت مدارس تعبر عن المشوه وزعماؤها ينشرون الدعوة فيليبها تلاميذ مخلصون يبرزون فى الجانب الميت قرف الانسانية وفزعها ..

ولقد حدث ذات صباح أن نشرت جميع الجرائد أخبارا عريضة تلقتها بالبرق عن طفلين ولد أحدهما بالهند والآخر باستراليا وكان الاول بلا ذراعين ولا قدمين وتوفى بعد دقائق من ولادته ، أما الآخر فعليه شعر ماعز وله ذيل قصير وقد ولد ميتا .. فما أقبل مساء ذلك اليوم حتى كان زيطة قد أشرف على زقاق المدق ، وقد أعد العدة لصناعته ، فحمل معه أدواته ومهماته ، واختار الخرابة القائمة أمام الفرن مكانا يمارس فيـه عمله ، لا يفهم التشويه مجرد معنى جمالى فى الجامد أو الميت بل هو معنى نابض حى سيأتيه من أجله المجهولون والمخفقون متسللين

من مشارق المدينة ومغاربها ، ثم يغادرونه رسلا وحواريين له في مختلف الاحياء والزوايا ٠٠

وفي الطرق والميادين ، وفي الموالد والاعياد ، وقرب المساجد والكنائس وفي المقاهي والمقابر ٠٠ كان المتصدقون والمحسنون يطالبون سائليهم بما يؤهلهم للشفقة والاحسان وكانوا ينظرون شذرا ــ كما ينظر أصحاب الشركات ومديرو المصانع الى طالب لا مؤهل له ــ كلما وجدوا واحدا منهم صحيح الجسم معافى ، في عينيه النور وفي لسانه الذلاقة ، وفي جسده الامتلاء ٠٠ كانوا أشخاصا عمليين ، لا يريدون أن ينفقوا أموالهم بلا عاهات تستدرهم ، ولا أن يبعثروها على غير مستحقيها ، كانوا يريدون عميا وعرجا وبلها كي يغدقوا عليهم مما يغدقونه على عشيقاتهم وهم يتطلبون العاهة فيهم تطلبهم الذلة والحاجة في عشيقاتهم

وهكذا أخذ يفد على زيطة أصدقاؤه الجــــدد وصنائعه في المستقبل ٠٠ انهم منتشرون الآن في كل مكان ، في الأزقة والحارات ، وفي طرقات المدينة الواسعة وميادينها ، معترفون له بالفضل والثناء ، وكل منهم يذكر جيدا هــذه اللحظة من حياته التي أقبل فيها على زيطة وهو عاطل لا صناعة له ، يقوده في جنح الليل صـــديق أو دليل ، فتداعبه الرائحة الرطبة التي يواجهه بها الزقاق ، ثم الأصوات والأضواء المتسربة من أعلى أحد المنازل حيث تجتمع غرزة المعلم كرشة صاحب المقهى ، وفوهة الفرن متقدة كأنها شهوة أو مقت ، ثم الخرابة المعتمة الرهيبة كأنها كهف ساحر أو جني ، والرائحة الكريهة المنبعثة من أرجاء المكان كأنها احتجاج أموات أو معذبين ، وضوء المصباح البترولي المرتعش يحيل الظلال الى رموز ، والأدوات الموضوعة على الرف ما بين زجاجات وآلات وضمادات ، وزيطة مختف مع العتمة في جلبابه الاسود القذر لا يدل عليه الا عينان تبرقان ، وصوت ساخر طاغ ، ونار خافتة تنبعث من بقايا سيجارة ما بين يده وفمه ٠٠

كانوا يأتونه صحاحا ، وكانت صحتهم تقف عثرة في سبيل حياتهم كما تقف اخلاقيات شاب يافع ، كانوا يمدون أيديهم فيردها لهم الناس فارغة ، وكانوا يطـالبون بحقهم في الحياة فيأباها عليهم الآخرون ، فيقبلون على زيطة ثم يغادرونه ،

عميانا وكسحانا وأحدابا وكسعانا ومبتورى الاذرع أو الارجل ·
وبذلك يهبهم حقهم فى الحياة ، وما يبرر لهم اصطناع صناعتهم ·
وهكذا كان الليل هو المجال الذى يتحرك فيه زيطه ، كان الليل هو مملكته التى يسيطر على ما فيها من حركات وهمسات ورغبات ، وكان صنع العاهة يربط صاحبها به كما تربط المعجزة المريض بمنقذه ·· فما ينتصف الليل وتسرى الهدأة فيه حتى يبدأ زيطة عمله ، فيجول فى حى الحسين العامر مارا برعيته من الكتل البشرية المتكورة فى هذه الزاوية أو على ذلك الطوار كأنها بقايا هزيمة ، فيلتقى بميدان الحسين بكسيح الى جانبه ما يشبه صندوقا ذا عجلات أربع ، فيركله ثم يسأله عن حال كساحه ويستوى الرجل واقفا على قدميه ثم يعطيه مليما ·· يوميته ·· فاذا انعطف صوب الباب الاخضر التقى بأعمى ذى ذراع مبتورة تعود أن يبرزها للمارين كأنها بقايا شمع جمد ، فيوقظه ليأخذ منه المليم ، فاذا بلغ القبو القديم التقى بأعمى آخر قد انتشرت على صدره وفخذيه قروح تعود أن يعرضها على المارين كأنها تقيؤ دموى ، وهو يغط الآن فى نومه هادئا مستريحا ، فيركله ويسأله عن قروحه ، فيفتح « الاعمى » عينيه ويعطيه المليم ، وعند الجامع الكبير يلتقى بالاحدب الذى تعود أن يسب الناس ويشتمهم اذا ردوه خائبا كأنما لم يقنعهم الفرق بين حدبه واستواء قاماتهم ، وفى ذلك الوقت يكون أكثر تكورا وأكثر سوادا واكثر هدوءا وقد انكفأ على وجهه وعقد يديه كأنما يصلى فما يحس بالخطوات المقتربة حتى يرفع يده بالمليم فيأخذه منه زيطة فى صمت ويمضى ، ثم يدور حول المسجد مارا بصنائعه واحدا بعد الآخر ، ثم يبتاع رغيفا وتبغا وجبنا أو حلاوة ، ثم يعود الى خرابته حيث يستأنف دورا آخر من أدوار عمله ··
وكان شأنه ــ شأن كل صانع عظيم ــ يرضى حاجة خاصة فى الوقت الذى يرضى حاجة عامة ·· فهو يتعيش ويصنع لغيره سبل العيش ·· فلسنا نزعم أنه اختار هذا النوع من الصناعة اشفاقا على الانسانية وبرا بها ، فلقد كان يرضى باختياره ذاك حاجة دفينة الى القسوة فى مجتمع قسا عليه حتى لتذوق التراب ·· وكان يرضى كذلك حاجة فى الآخرين يفيدونها مما تضطرب به نفسه من رغبة ·· كان للرجل عذاباته

ووحدته ووحشيته ، وكان سماعه تأوهات الرجل الذى يهرس له ذراعه أو يبتر له رجله يثير فيه لذة حيوانية هائلة ٠٠ ولكن فلنذكر دائما ـ باعتراف واجلال بالغين ـ أنه ما كان يضع لذته فوق المصلحة العامة ٠٠

فقد حدث في أحد الايام أن دخل مزبلته بعد رحلته الليلية ، فوجد عملاقا قويا فى انتظاره ، وصفه زيطة بأنه « بغل بلا زيادة ولا نقصان » وكان الرجل يقول في خور : « حظى اسود وعقلى وسخ » وأدرك زيطة أن صحة هذا « البغل » مثار للحنق وعقبة كأداء فى سبيل حياته ، ولكنه كظم شوقه الى تهشيم رأسه وتقطيع لحمه ، واكتفى بأن يعلمه فن العته وان لم ينقصه منه شيء كما قال صانع العاهات ـ ويحفظه بعض مدائح الرسول كما أدرك ذات مرة ـ وهو يبصق على الارض ويمسح شفتيه بكم جلبابه الاسود أمام متسول مهيب الطلعة ـ أن العاهة قد تكون وقارا به يستطيع الشخص أن يحصل على وجوده فى المجتمع ، كما تكون الذراع المقطوعة وملاحة البغى وشهادة الطالب ونفاق السياسى وكما تكون الالقاب والثروات ٠٠

وكان لزيطة أحلامه البهيمية مثلما لى ولكم ٠٠ وكانت أحلامه تتركز حول سنية الفرانة صاحبة الخرابة التى يستأجرها منها ، والتى كانت تصنع الخبز ٠٠ وكانت حسنية مكتنزة ذات لحم كثير وبنيان عملاقى ، يتمنى زيطة لو تحتاج اليه يوما كما يحتاج اليه الكثيرون ٠٠ ولقد راودها عن نفسها أكثر من مرة ـ ورأسه تزدحم بأخيلة محمومة ـ فما كان يلقى منها الا القسوة والزجر ولم تكن حسنية فى حاجة الى صانع للعاهات يشوه عليها حياتها الزوجية لأنه كان لها فى هذه الحياة ما يغنيها عن معونته ، فهى ما تنفك تضرب زوجها جعدة كلما حرق رغيفا أو سرق آخر ، وهو يستلذ قسوتها وهى تستلذ بكاءه وصياحه فلا يلبثان أن يقتربا معا فى عاطفة مشبوبة ، وشيئا فشيئا ، نحو لحظة من لحظات صفائهما الخالص ٠٠ فلا عجب أن استغنيا عن زيطة كما استغنى عنه بقية سكان الزقاق لانهما استطاعا أن يصنعا بأنفسهما ما يربط حياتهما معا ، وما يضمن لهما اللذة والاستمرار فما لبث أن قنع صانع العاهات بأن يراقبهما من خلال مزبلته وهما مستمران فى شجارهما المنتهى الى

صفاء وهو مسترسل في الاحلام والعذابات ٠٠

ومن قبل كانت صناعة المطاحن البخارية قد نافست طواحين الهواء ، وكانت صناعة المذياع قد نافست الشاعر الذى يروى أخبار الزناتى والهلالى ، وكانت صناعة القنابل قد أخذت تنافس زيطة فى صناعته ، فقد كان انتاجه فرديا وان كانت فيه مهارة الفنان وهوايته وكان تصنيع العاهات على نطاق الجملة ٠٠ ومع ذلك فلم يكن هذا معناه بالضبط الاستغناء الكامل عن خدمات زيطه ، لأن مصر لم تصب أولا كثيرا بمثل تلك الغارة التى شهدها زيطة ذات يوم ، ولأن حاجة مجتمعنا الى صناعة التشويه هى حاجة ملحة وضرورية ، بعضها تشـــويه محطم كالذى تصنعه لنا الحرب والغارات ، وبعضها تشويه خلاق كالذى كان يصنعه زيطه ، فالشحاذ يأتيه ـ على حد قوله ـ وهو لا يساوى مليما ، فاذا غادره فقد ساوى ثقله ذهبا ٠٠ لهذا كانت لديه عقيدة راسخة لا تتزلزل ـ كان يقوم عليها ايمانه بصناعته ـ ذلك أن الناس فى حاجة دائمة اليه ، فلا يعدم الليل أن يفرز له شخصا من هذه الزاوية أو تلك ٠٠ ومع ذلك فقد اضطر أخيرا أن يقوم بعمل اضافى ، حيث يذهب مع صديقه الملقب بالدكتور بوشى بين ليلة وأخرى لانتزاع بضعة أسنان ذهبية أو فضية من جثة هذا المرحوم أو ذاك حتى قبض عليهما أخيرا ، وحوكم زيطة من أجل عمل لم يكرس له جهوده ، وكان مجرد مهمة عرضية فى حياته ٠٠

وكنا نحن منتشرين فى الموالد والافراح أو جالسين نلهو فى المقاهى والحانات فاذا تدحرج علينا أعمى أو مفأفيء أو كسيح خالجتنا ريبة فى استمرار سلامتنا ، وساورنا قلق على اتصال طمأنينتنا وكنا ندفع عنا تلك الريبة وذاك القلق بمليم أو قرش فى يد سائلنا كان يشيع فى نفوسنا ادراك عام لمعنى الزمن المتقلب ، وللطمأنينة التى لا وجود لها ، ونحن أكسل من أن نحاول النفاذ الى مواطن أصدقائنا وعشيقاتنا وشحاذينا ، وكان زيطة يدرك هذا الضعف فينا فيوفر علينا ما يتطلبه ذلك من مجهود لا قبل لنا ببذله ، فكان يبرز لنا فى يد مبتورة أو رجل مشلولة أو عته أو بله آخر صورة من صور المأساة التى يمكن أن ينحدر اليها والتى نجد أسبابها ونحس أصولها فى أرواحنا ومجتمعنا ٠٠

ومنذ ألفين من السنين أقبل المسيح الى العالم ، ومضى ذلك الانسان الالهى يشفى المرضى والعمى والعرج فيهبهم بذلك حياة جديدة حتى سمى صانع المعجزات ·· ولما جاء القرن العشرون أقبل زيطة الى هذا العالم يصنع المرضى والعمى والعرج ليهبهم بذلك حياة جـــديدة حتى لقـد سمى صانع العاهات ·· وقد يحدث أن يأتى اليوم الذى تنتشر فيه صوره فى المعابد والمخادع ، وتباع تماثيله فى الحوانيت والموالد ، وتؤلف الكتب عن أعماله وحياته ، ولهذا تدركون تواضع ما نطالب به من صنع تمثال صغير يقام له الآن على رأس زقاق المدق ·· كما تدركون أهمية ذلك الطلب تبجيلا لما قام به واعترافا بفضله على كل من صنع له صناعة وتمييزا له عن غيره ممن يشيعون التخريب المحطم والتشويه الذى لا طائل وراءه فتصنع لهم تماثيل عالية ومرتفعة ··

كما أنصح كذلك بالاهتمام بأمر خرابته التى أمضى فيهـا حياته لعلها تصبح ذات يوم أثرا تقصده الوفود من كل أقطار الارض ·· فلقد كان زيطة صانعا ، وكانت له صنعة وصنيعته منتشرون اليوم فى كل مكان ، فلا أقل من أن نرد اليه بعض صنيعه ··



مصرع عباس الحلو

« مهداة أيضا الى الاستاذ نجيب محفوظ صاحب زقاق المدق »

حضرات القضاة ، حضرات المستشارين ..

لقد قرر المحقق الذى صرح بدفن جثة عباس الحلو أنه مات نتيجة اللكمات والركلات والزجاجات التى تطايرت عليه من الجنود الانجليز بحانة النصر ، ولم يكن فى مقدور المحقق أن يوجه التهمة الى أحد ، أولا لكثرة الذين اشتركوا فى ضرب عباس الحلو وازدحام الحانة بهم ساعة وقوع الحدث ، وثانيا لأنه ما كان لأحد أن ينال من جنود الحليفة وهم فى نشوة انتصارهم

بهذه الحرب العالمية الثانية ·· وربما لو أتيحت للمحقق الفرصة كما تتاح له في القضايا الاخرى لما استطاع أن يتعرف على متهم بالذات ·· وهكذا « ضاع الفتى هدرا » كما صرح بذلك صديقه حسين كرشه ابن المعلم كرشه صاحب المقهى الواقع على رأس زقاق المدق ··

ورغم عدم اختصاصي في القانون ، الا أنني رأيت أن أقحم نفسي وأقوم بتحقيق هذه القضية لحسابي الخاص ، فقد أولعت حديثا بمثل هذه القضايا ، وربما كان عدم اختصاصي القانوني يبيح لي حرية التفكير والاتهام مما لا يتاح للمحقق المحترف ··

لقد جاء في تقرير المحقق أن عباسا الحلو لم يقتل مع التعمد أو سبق الاصرار ، وأن الطبيب الشرعي قد فحص الجثة فلم يتعرف الا على شج في الرأس وجرح كبير في العنق نتجا عن استعمال زجاجات متكسرة ، ثم كدم في الجانب الايسر وآخر في أسفل العمود الفقري ، وقرر أن سبب الوفاة كثرة ما نزف منه من دماء ، وقد حدثت اثر هبوط شديد في القلب ، أما القاتل فقد نعته التقرير بكلمة « مجهول » ··

لهذا رأينا أن نهمل ذلك التقرير الرسمي ونبحث عن آثار أخرى عسى أن نستدل منها على السبب الذى أدى الى مصرعه · ونحن نعلم أن مهمتنا شاقة وقد نتهم أبرياء وقد نغفل آخرين · ومع ذلك فقد آثرنا المخاطرة لما بين أيدينا من أدلة قد يتهمنا الكثيرين بأننا أسأنا استعمالها وبالغنا في تأويلها الا أنها على أية حال تلقى ضوءا على المأساة خيرا مما يلقيه هذا التقرير ·

ولا شك أنكم ستعلمون مقدار الصعوبة التى واجهتنا حين تدركون أن عدد المتهمين قد كان من الكثرة بحيث امتد فشمل – على سبيل الاحتياط – العصر بأسره ·· ولقد وجدنا أن خير وسيلة نضمن بها عثورنا على المتهم أو المتهمين هى أن نوجه الاتهام الى العصر كله ، وهذا ليس من اختراعنا ولا هو شطط منا ، فأنتم تعلمون أنه عندما تقع جريمة – في حفلة مثلا – فأول ما يفعله رجل البوليس هو أن يوجه التهمة الى الجميع وليس الى أحد ·· وبهذا المعنى شمل اتهامنا هؤلاء الجنود الذين أصابوه بالزجاجات اصابات قاتلة في رأسه وعنقه وهؤلاء الذين اشتركوا في صنع هذه الزجاجات ، وهؤلاء اللواتى ولدن أولئك

الجنود ، وشمل اتهامنا هؤلاء الاقربين الذين كانوا يعـــرفونه ويرافقونه ، حتى هؤلاء الزعماء العالميين الذين قادوا الحـــرب ووضعوا الجنود فى الحانة ليلة الحادث ٠٠ انه يبدو أيها السادة أن مصرع عباس الحلو وهو شاب فى الثالثة والعشرين ، وكان يعمل حلاقا فى زقاق المدق بمدينة القاهرة ، ان هو الا جريمة اقترفها عصر ٠٠

وأنتم تضحكون بلا شك من جدوى هذا الاتهام ، فهو يتناول لفظا مجردا ، ولا يتعلق بأفراد معينين نستطيع أن نبصرهم ونلمسهم ونكرههم وأن تقتص منهم (العدالة) التى تحرصون عليها دائما ٠٠ ولكنكم تدركون كذلك أن كثيرين غير عباس الحلو قد ماتوا أيضا بسبب العصر ، قتلتهم روح الحرب التى ازدحم بها العصر ، بعضهم غرق فى البحر وأكلتهم الأسماك ، وبعضهم صعقتهم الغارات ودفنتهم تحت الانقاض ، وبعضهم قتل وجها لوجه أمام أخيه الانسان ، بعضهم جن وبعضهم تشوه وبعضهم ترمل أو تثكل أو تيتم ، وبعضهم مات مثل عباس الحلو بسبب حادث غرامى فى حانة من حانات اللهو وفى بلد لم يذق من أهوال الحرب ما ذاقته بلاد أخرى ، وفى كل حالة من هذه الحالات كان القتلة مجهولين ، وكانت العدالة التى تحرصون عليها أيها السادة تقف دائما « معصوبة العينين » ٠٠ ومع ذلك فسنتمشى طبقا لتقاليدكم ونوجه الاتهام أولا الى أشخاص معينين ، ولكنكم ستدركون معنا فى النهاية وبســبب توزع المسئولية على الكثيرين جدا أنه اتهام قليل الجدوى ٠٠

ولما كان يتضح فى معظم القصص البوليسية أن المتهم هو الذى كان أبعد الناس عن الشبهات أول الامر ، كأن يكون صديقا أو حبيبا ، فاننا استفدنا من هذه الخبرة السابقة ووجهنا الاتهام مباشرة الى صديقه حسين كرشه ٠٠ ولقد صـــدقت فراستنا ووفرت علينا كثيرا من المشاق التى كنا معرضين لها ٠٠ فقد ثبت لدينا أنه ما كان لعباس الحلو أن يغادر صالونه بالزقاق يوما لولا وجود هذين الشخصين فى حياته ٠٠ كان يود لو ظل فى زقاقه هادئا قانعا بهذه الغيبوبة الحالمة التى يحيا فيها الزقاق فهو زقاق صغير معتم مقفل ، ومنزو فى حى من أحياء المدينة العظيمة الصاخبة ، تنبعث فى أرجائه رائحة خدرة مهلكة ،

ويرى دائما على رأسه « عم كامل » بائع البسبوسة بمذبته القصيرة وجسده المترهل السمين ٠٠ لا يفيق الا لحظات في الصباح عندما يقبل تلاميذ المدرسة الاولية يدسون في كفه البضة الملاليم ثم يعود الى اغفاءته المستديمة ، وامامه المعلم كرشه صاحب المقهى يتناول « فصا » كل بضع ساعات ليتصل له ذهوله الحالم المستديم ٠٠

لقد كانت حياة الحلو بطيئة متكررة ، لا يمل اتصالها الرتيب ولا يتطلع الى تعديلها أو تحويرها ٠٠ كان عالمه لا ينفسح خلف الزقاق ولا رجاء لديه الا في حياة هادئة في حدود دخله المتواضع في ظلال حميده وفي ظلال عيونها وأنفاسها ٠٠ وكان راضيا قانعا ، متحملا لو تقسو عليه الايام يوما ، منشرحا لو منحته لحظة من هناءتها ، لا يعشق الا رائحة الزقاق وترابه ، ويقلقه أن يجد نفسه في شوارع ما تنفك تتسع وما تنفك تصطخب وما تنفك تضيق ٠٠ ومع ذلك فقد كان يبدو أن هناك جانبا من حياته يتمرد في خفاء على هذه الدعة وهذه الطمأنينة اللتين لا يطمح الحلو الى سواهما ، جانبا مجنونا يرجوه ويخشاه ، تعبر عنه صداقته لحسين كرشه وتمسكه بهذه الصداقة ٠٠ كان هذا الصديق يقلقه حينا ما ويشيع في نفسه لونا من الريبة في قيمة حياته هذه التي يحياها ، وفي المعنى الحقيقي لقيمه التي يتمسك بها والتي تستمد دعائمها من رائحة الزقاق وعتمته ، كان كلما وقعت عيناه على حسين أحس أنه ازاء جزء من هذه الطرق الفسيحة المزدحمة حيث قيمه تنهار وشخصيته تضؤل وتضؤل وسط الزحمة المصطخبة ٠٠ كان صديقه يفتح عينيه على عالم آخر مزدحم بالمطامع والمطامح وصاخب بالتشاجر والتنافس في سبيل الظفر بالقوة والمال ٠٠

وفي هذه الزحمة الوهاجة المضيئة فقد فتاته حميدة ٠٠ ظل صديقه يلح عليه كي يرحل ، أن يترك هذه الغيبوبة الحالمة وينطلق ليشارك في السباق المرهق العام ٠٠ وظل يزعق فيه : سافر سافر (ماذا أكلت ، ماذا شربت ، ماذا لبست ، ماذا رأيت) وما كان لزعقاته أن تقلقه الا قليلا ثم سرعان ما تخبو ، لولا حميدة التي هناك ، وكان هو يحبها ، وكان في حبه لها شيء غريب عن طبيعته ، كان صوتها الاجش ما ينفك يعلو

بين حين وآخر فيخرج بالزقاق عن طبيعته ، وكانت ما تنفك تتشاجر مع الرجال ومع النساء ومع أمهــا فتزلزل الزقاق و (تصحيه) من سباته المستديم بضع لحظات ، وكان الحلو يحبها ويرجو أن تشاركه حياته ، ولكنه ما كان يدرك فداحة الثمن الذى وجب عليه أن يدفعه ، حقا لقد أدرك أنه سيدفع ثم يعود ويستأنف حياة الدعة والهدوء ٠٠ كانت هناك صــداقة غريبة ولكنها طاغية ، وكان هناك حب قوى لكنه طموح ، فرضى أن يحمل نفسه ما يكره ، وأن يغترب عن طبيعته قليلا ٠٠ لكنه ما أن سافر حتى وجدت حميده أن مشاريعه تضمحل ، وأصبح حب الحلو لها فكرة لا حقيقة لها ، مجرد أمل باهت لا تستطيع هى أن تقبض عليه وتعتصره بين يديها ، وأصبح طموحها معلقا بمصير ذى غياهب مجهولة ، مما أعطاها القدرة على أن تغادر الزقاق ملبية أى نداء رأت أنه يحقق لها طموحها فى سرعة وقوة ووضوح ٠٠ وهكذا شارك حسين وشاركت حميدة فى حياكة هذه المؤامرة التى انتهت بمصرع عباس الحلو ، الواحد بصداقته الطموح والاخرى بما أثارته فيه من حب خلاق ٠٠

وقبل ذلك ، ومنذ ست سنوات كان هتلر قد أعلن الحرب على انجلترا ثم على الروسيا وبذلك كان مصير الملايين من البشر قد تقرر فيما تسمونه « القدر » كان قد تقرر أن يموت هــذا غريقا وأن تتشكل هذه وتترمل تلك ، وأن تصبح حميدة عاهرة ويموت خطيبها عباس الحلو مقتولا وهو لما يزل فى الثالثــة والعشرين ، فصراع العصر لم يعد يقتصر على هؤلاء الذين يريدونه ويعلنونه ويشاركون فيه ، بل هو يمتد الى الآخرين الذين لا يدلون برأى فى المعركة ويحــاولون عبثا أن يتجنبوا لفح الصراع ، وهكذا يشارك كل بما يملك أو يستطيع ، فشاركت حميدة بجسدها وشارك عباس الحلو بمصيره ٠٠

والواقع أن عباسا الحلو كان يدرك هذا المعنى من قبل ادراكا واضحا ــ رغم أنه لم يفلسفه ــ كلما انطلقت صفارات الانذار وسمع أزيز الطائرات وقصف المدافع فوق رأسه ٠٠ كان يحس أن الحدث العام قد وصل الآن الى مخدعه ، وقطع عليه هدأته وراحته ، وعطل له آماله وهواجسه كى يشارك هو والآخرون بعضهم بعضا فى ترقبهم وانتظارهم وفى خوفهم وانصاتهم ٠٠

وهكذا أدرك أن الحدث العام جزء جوهرى من حياته الخاصة وأن الجميع يشاركون فى هذا النذير المنتشر فوق رؤوسهم وقد مد أطرافه الممسوخة الجزعة الى قلوبهم وخواطرهم ·· وكان أحيانا ما يخشى أن يضطر الى المشاركة فى هذا الصراع بذراع له أو ساق ، لكنه ما كان يحسب أبدا أنه سيشارك فيه بحبه وسعادته أولا ، ثم بمصيره كله فى النهاية بعد أن تكون الحرب قد انتهت فصمتت المدافع فى الميادين واطمأنت القلوب فى الاوطان ··

وهنا نستطيع أن نضيف الى قائمة الاتهام شخصا لم يشارك فى المأساة بصداقته أو حبه أو قيادته صراعا عالميا ، بل بمجرد سعيه الى مصلحته الخاصة ، وبما يفرضه عليه عمله ·· لم يعرف الحلو يوما ولم يعرفه الحلو الا شبحا مقيتا نغص عليه حياته وعقدها وأشاع الفوضى فيما استقر عليه من رأى ، ولم يحدث أن تقابلا أبدا ومع ذلك فقد كان لفرج ابراهيم أهميته الكبرى فى المؤامرة ، وكان عمله أن يهىء الفتيات أمثال حميدة لصاحبة جنود الحلفاء ، فما أن سافر الحلو الى التل الكبير ليعمل فى جيوش الحليفة ـ كى يعود ويفتح صالونا بالموسكى تحقيقا لأطماع حميدة وتسليما لصرخات صديقه ـ حتى تغير كل شىء

فى هذه الاثناء كان هناك جنديان انجليزيان يعودان من ميدان القتال ·· ومنذ ست سنوات أقبلا على باخرة الى مصر ·· وكانا يدركان أنهما سيحاربان فى الميدان وقد يقتلان وقد يقتلان ، وادعى أحدهما وهو مخمور أمام أصدقائه ذات مرة ـ ومنذ زمن بعيد ـ أنه قد جاء فى مهمة سرية فى الشرق الاوسط ، فضحك السامعون اذ ذاك وضجوا ، ولكن لم يجل بخاطر أحدهما أنه سيشارك يوما فى مصرع الحلو فى حانة من حانات القاهرة ، وكانا الآن عائدين الى القاهرة من ميدان القتال وقد قتلا عددا من الألمان والطليان وظنا أنه بقى عليهما الانتظار حتى يعودا الى وطنهما ، ولكن ثمة مهمة واحدة بسيطة كان عليهما أن يؤدياها للشرق الاوسط فى يوم قريب ثم يرحلا عنه فى اليوم التالى الى الابد ··

أما فرج ابراهيم فقد كان بالنسبة لحميدة فى أول الامر مجرد « عينين » ، عينين متفرستين وسط زحمة من الناس فى حفل

فقد ذهب الجميع ليشاركوا فيه من غير أن يدبده أو يعلم به أحد وتثيران ما تهيأ في جسدها من رغبة وطموح وميل الى المغامرة والانطلاق ٠٠ ولقد لبت حميدة ذاك النداء ، وفي الضوء الوهاج الذي بهر به فرج ابراهيم عينيها بدا لها الحلو قزما ضـــئيلا والحياة معه سخرية كبيرة ، وبدا لها فرج شخصا بيديه مفاتيح عالم متسع كبير يحقق لها ما تبغيه من تميز وتفرد على بقيـة صديقاتها اللواتي لا يحلمن جميعهن الا بمصير واحد متكرر حيث يلف النسيان والعدم ظلالهما عليهن وهن يخدمن أزواجهن ويرضعن أطفالهن ويسمعن بقية العمر شتائم أولئك وهؤلاء ٠ كان الرجل يسعى في سبيل عمله وكان الحلو مجرد اعتراض صغير مجهول في هذا السبيل ، شد ما سهلت ازالته بلا تهيب ولا تردد وهكذا أختفت حميدة من الزقاق ، وكانت تحسب أن فرج ابراهيم يهيم بها ، وكانت هذه هي وسيلته في اجتذاب هذا اللون من النساء ، فلما أدركت الحقيقة ، لم تكره حياتها الجديدة ، ولكنها كرهت هذه الخدعة فأضمرت في قلبها السوء والانتقام ٠٠

وفي باريس ، ومنذ عشر سنوات ، كان ثمة عمال يصنعون الزجاجات الفارغة ، وفي ليون ، ومنذ تسع سنوات ، كان ثمة آخرون يملأون بالنبيذ هذه الزجاجات ٠٠ ورحلت هـــــذه الزجاجات وصدر بعضها للغرب وصدر بعضها الى الشرق ، وتدحرجت بضع زجاجات من يد تاجر الى يد آخر وعددها يقل ويقل حتى استقر بعضها في شارع من شوارع القاهرة ٠٠ وقبيل مصرع الحلو بيومين كانت احدى هذه الزجاجات قد استقرت على رف من رفوف حانة النصر وفي متناول أحـــد الجنود ٠٠

ولقد عاد الحلو من التل الكبير فوجد كل شيء معدا لمصرعه ٠ ولقد عثرنا على محاولات قامت لاحباط هذه المؤامرة ، وأهمها تلك المحاولة التي قامت في اللحظة الاخيرة ، ولكنها كانت محاولة فردية لم يكن لها تأثير كبير على مجرى الاحداث ٠٠ ففي زقاق المدق ، وفي ليلة الحادث ، كان السيد رضوان حسين ينوي أن يقوم بالحج ، وسمعه الحلو وهو ينصح الحاضرين قبل سـفره بالشجاعة والصبر وأن لا يضعفوا أمام اليأس والغضب ، لكن

هذا الصوت الهادىء قد ضاع وسـط الضجيج الهائل الذى كانت نفس الحلو تصطخب خلاله فى تلك الليلة ، حقا لقـد تردد قليلا ، لكنه ما كان يمكنه أن يعود الى طبيعته الأولى ٠٠

ولقد عثرنا مع القتيل ليلة الحادث على علبة بها عقد ذهبى مركب من سلسلة وقلب رقيق ودلت تحرياتنا على أن الحلو قد بلور فى هذا العقد عواطفه وجسد آماله وارتبط به ارتباطا أكثر واقعية فى حركته نحو حميدة ٠٠ وعلمنا أيضا أنه حين قابلها فيما بعد ووجدها تزين رأسها بهلال ماسى وتزين أذنيها بقرط لؤلؤى أحس بالحقارة والاحتقار وهو يتأمل أمامها عقده فى ذهول حتى لكأنما بريقه الذهبى الذى كان ينعكس على وجهه يشيع فيه قلقا صاخبا عربيدا ٠٠ وبهذا كان وجود الهلال والقـرط عليها ووجود العقد الذهبى فى جيبه حتى ليلة مصرعه عاملا قويا قد استطاع أن يغذى فيه بحق قوى الكراهية والغضب ٠ واستطعنا بتحرياتنا أن نتعرف على الصائغ الذى قام للحـلو بصنع ذلك العقد ، وهو غير الصائغ الذى باع لحميدة الهلال والقرط ولو أنهما يسكنان فى حى واحد ودكان كل منهما يكاد يواجه دكان الآخر ٠٠

كان قد لقى حميدة وأشعلت فيه نار النقمة من الرجل الذى سلبه سعادته ، وتواعدت معه على أن يلقاه يوم الاحد ليقتص منه ٠٠ ومع ذلك فان الحدث لم يقع يوم الاحد أبدا ، فقد كان لقاء الاحد مدبرا ويعرفه انسانان هما حميدة والحلو ، أما مصرعه فقد ذهب الجميع ليشاركو فيه من غير أن يدبره أو يعلم به أحد ٠٠ وهكذا تمت الامور بأسرع مما دبرها الفتى والفتاة ٠٠ فعندما هبط الليل الذى شهد هذا الحدث الكئيب ، وقبل يوم الاحد بأيام كان الحلو يسير مع صديقه حسين ليعرفه بطـريق الحانة التى سيلقى بها غريمه فى الميعاد المضروب ، ولكن كل شخص كان قد أعد الآن دوره : صديق ملحاح ، وفتاة منحته أملا أهاب به الخروج عن طبيعته ثم تركته يتمزق فى الطريق اليها ، وثالث يسعى فى سبيل عمله للحصول على قوته ، وصائغ صنع عقدا ذهبيا ، وزعماء قادوا الحرب ويستريحون الآن قليلا والمساء والحانة والذين صـنعوا الزجاجة والذين عبؤوها والذين تاجروا بها عبر البحار والخادم الذى يضعها فوق

الرف والجنديان الراحلان غدا أحدهما يسقيها من كأس فى يده والآخر يضع ساقيها على حجره وآخرون وآخرون حفوا بهم وهم يشربون ويعربدون ..

فى هذه اللحظة حصل عباس الحلو على قمة تحرره ، وزايله فجأة تهيجه وتردده ، وأحس أنه يقوم الآن بمغامرة حياته ، وهى مغامرة لا يعرف لأول مرة نتائجها ولا يحسب فيهـــا خطواته .. ومن قبل كان قد غادر الزقاق على ان يعود ، اما الآن فقد كان يغادر الزقاق فقط ، لا يهمه أن يعود أو يذهب الى الابد .. كان يحس أن هناك تحولا حاسما وملموسا يحدث الآن فى حياته كلها ، فاندفع يضرب حميدة بزجاجة من زجاجات الجعة الفارغة ، ورأى الدم ينزف منها ويغمر وجههـا عنه .. وبهت الآخرون لحظة ، لكنهم سرعان ما رفضوا أن يأذنوا له بأن يعترض بحريته الجديدة طرق حياتهم ولهوهم ، حتى صديقه حسين كرشة الذى طالما غذى فيه جانب التمرد والجنون قد وقف الآن ذاهلا خارج الحانة ، وهو يحس بأن كل نصائحه وكل مغامراته لتضؤل الآن أمام هذه اللحظة التى حصل عليها الحلو فى حياته ، ولقد حصل عليها فى الوقت الذى كان يتلقى فيه اللكمات والركلات فتحرر وأشاع معه فى الحانة حرية لا يحصل عليها السكارى بخمرهم بل هى تحتاج الى صحو شـــديد ، فأيقظهم ليحررهم معه لحظة ثم دفع الثمن .. وسرعان ما كان فى خدمة اللحظة حشد من القوانين بعضها رياضى يتعلق بحركة الاجسام وثقلها ومقاومتها للضغط ، وبعضها كيمائى مثـــل التأكسد فى الرئتين ، وبعضها فسيولوجى مثل محاولات الدم للتخثر ونقص الكرات البيضـــاء والحمراء وهبوط القلب ، وبعضها انسانى عاطفى .. كانت هنالك شهوات ظمأى وكانت هنالك عاطفة جريحة وسفن فى البحر وقبلات فى المخـادع ونظرات عابرة فى الطريق وأشخاص يحجون وأشخاص يتمردون وحب ومقت وقوانين وزمن وأزمنة .. وفى لمح البصر أدى كل مهمته ، وتصادمت العواطف والاهواء كما تتصادم الشهب فى سماء ليل حالك فيندلع حريق كبير لحظة ثم يخبو .. وأنا وأنتم أيها القضاة والسامعون موجودون نشارك فى حشد المهـــازل

والمآسي ، بعلمنا أو جهلنا بحركة أو كلمة أو نظرة ، ونحن نسعى في سبيل عواطفنا وأعمالنا ، فيطرب شخص ويمرض آخر ويصرع ثالث ، وقفص الاتهام خال لا أحد فيه ٠٠

كنا جميعا موجودين ليلة ذلك الحادث ، ونحن نتحرك حركاتنا فيقوم على أكتافنا تاريخ الانسان ولم نفعل شيئا في سبيله ، وحرمناه حقه في التحرر لئلا يحررنا معه ، واحتمينا بجهلنا وفضائلنا السابقة والمقبلة فتركناه ، ونحن نتنفس معه عصرا واحدا ، ونتناول معا خبزا ربما صنع في مخبز واحد أو من قمح حقل واحد ٠٠ كان كل منا يعبر طريقه في الحياة ، تختلف مدى أطماعنا ومدى قدارتنا ، وكان طريق عباس الحلو قد تعرج بين هذه الطرق حتى ضاق عليه الخناق ، شيئا فشيئا ٠٠ وقتلته اللكمات والركلات والزجاجات وفحص الطبيب الجثة ، وكتب المحقق التقرير ، وخط أمام القاتل بخط واضح ظاهر كلمة : « مجهول » ٠٠


أمنية

كانت الفتيات الصغيرات جالسات يحدقن فى مدرستهن العجوز وهى تقص عليهن قصة يهوذا ، وكانت تصف لهن كيف كان المسيح يحب تلاميذه جميعا « كما تحبكن أمهاتكن أيتها الفتيات ... »

وكانت أنيسه عبد الملاك أكثر هؤلاء الصغيرات تحديقا وانصاتا ، فقد كانت من أسرة من أقباط مصر المتمسكين بتعاليم الدين تمسكا شديدا ، يأخذ والدها نفسه به كما يأخذ به أفراد أسرته جميعا ، يؤدى الشعائر الدينية كأحسن ما يكون الاداء ، فيصطحب أسرته صباح كل أحد ليؤدى فروض العبادة فى الكنيسة ، لا يفوته صيام كبير أو صغير ، كما كانت له عادة الاجتماع بأفراد أسرته صباح كل يوم يصلى بهم ويطلب من الله المعونة وعدم الخطأ فيما يؤدونه أثناء النهار ، وهى عادة أخذ بها نفسه قبل الزواج ، ثم أشرك زوجه فيها فيما بعد ، وظل محافظا عليها حتى بعد أن ازدادت الاسرة وأصبحت تتكون من خمسة أشخاص .. كذلك كان يغمض عينيه كلما جلست الاسرة الى المائدة يذكر الله أنه لم ينس الفقراء والمساكين رغم ما أمامه من طعام ، بينما صغيرته أنيسة ـ وكانت أصغر أفراد الاسرة ـ متلهفة على الطعام ، تود لو ينتهى أبوها من صلاته بأسرع ما يكون لتخطف اللقيمات الى فمها الصغير .. وكل مساء كانوا يجتمعون مرة أخرى يرتلون معا ترتيلة دينيةمسائية حتى اذا وصلوا الى هذين البيتين :

ان أتى فى الليل سقم ... أو دنا أمر رهيب
عز قلبي يا سرورى ... واشف نفسى ياطبيب

أحست أنيسة بالرهبة والفزع من هذا الليل الذى تقبل عليه وشعرت أنها تدخل فى مغارة لا تدرى نتيجتها ، ثم ما تلبث أن تتجه نحو فراشها حيث تنحنى لتصلى صلاة حفظتها عن ظهر قلب تطلب من الله أن يحميها من « الحيات والعقارب وكل قوات الشرير » وهى جملة تدرك معناها جملة وان لم تدركها لفظا لفظا ، شأنها فى ذلك شأن الترتيلة .. ولهذا كانت تتصور الليل مليئا بالعقارب والثعابين واللصوص ، ولن ينقذها من كل هذه الاهوال سوى هذه التمتمات التى يجب أن تتلفظ بها والا حدث ما لا يحمد عقباه ..

وكانت المدرسة تتحدث الآن عن قلب يهوذا الاسود وكيف أنه أحب شيئا آخر أكثر من المسيح ، فقد كان يحب النقود .. وقد عرض عليه الاشرار الذين يسكن الشيطان قلوبهم أن يبيع المسيح ويقبض ثمنه ليشترى به منزلا كبيرا وعروسة كذلك لابنته الصغيرة سالوما ..

وتذكرت أنيسة أنها سمعت مثل هـــذه القصة من والدها عشرات المرات ، فالامر لم يكن يقتصر فى منزلها على مجـــرد هذه الشعائر ، بل كان يتغلغل الى كل صغيرة وكبيرة من حياة الاسرة .. فلقد لقنوها بهذه الوسائل المختلفة ـ وفى هـــذا العمر المبكر ـ أن هناك صدقا وكذبا ، أن هناك خيرا وشرا ، أن هناك ملائكة وأبالسة ، أن هناك نعيما وجحيما ، أن هناك أبيض وأسود ، وعرفوها أين يجب أن تكون ، وماذا ينتظرها ان هى انحرفت .. فقد حدث ذات مرة أن أقبلت الصغيرة من مدرستها تتلفظ بكلمة سمعتها ذلك اليوم من زميلة لها ، وكانت معجبة بمخارج الحروف وبقدرتها على تحريك لسانها وشفتيها بلفظ جديد وان لم تفقه له كثير معنى ، فما أن لفظتها حتى التفتت اليها أمها منزعجة تسألها من علمها التلفظ بتلك الكلمة فلما أجابتها بأنها زميلتها صفاء أمرتها ألا تتفوه بها مرة أخرى لأنها كلمة « قبيحة » وأن تتجنب مثل هذه البنت ، وسرعان ما نسيت البنت هذه النصيحة وما لبثت أن كررتها مرة أخرى أمام والديها ، فما لبثت الام أن صرخت فيها وهددتها بأنهـا ستذهب الى « النار حيث يأكلها الدود » ان كررت هذا اللفظ ، وحاول الوالد أن يهدىء من ثورة الام حين رأى ابنته تبكى ، لكنه حين علم بأنه قد سبق التنبيه عليها انضم الى الام مقرعا ابنته حتى أحست أنيسة أنها كائن بائس لا نصير له ، وأن النار والدود ينتظرانها ما دام والداها غير راضين عنها ..

وعادت المدرسة تقول ان الاشرار تركوا يهوذا ، ولـــكن الشيطان بقى يوسوس فى أذنه (ومثلت المدرسة شكل الشيطان وهو يوسوس فى أذن يهوذا) وضحكت بعض التلميذات ، ولكن أكثرهن ظللن واجمات تنطق وجوههن بالخوف والاشفاق على ما ينتظر المسيح من مصير على يد يهوذا .. والمدرسة تقص كيف انتصر الشيطان واتفق معه يهوذا على أن يسلم المسيح

للاعداء ·· ولما كان الاعداء لا يعرفون المسيح فانه سيتقدم نحوه من دون التلاميذ ويقبله ، فيظهر أمام المسيح بمظهر الصديق الحميم ويعرف الاعداء أنه الشخص الذى يريدون ··

وتذكرت أنيسة أن الكذب أنواع ، وأننا مهما تحايلنا فان الله يكتشف أين كذبتنا ·· لقد كان يحلو لها أن تتخيل أحيانا ما لا وجود له ثم تقصه على والديها أو أخويها كأنما رأته رأى العيان ·· وكان والداها يدركان ـ بما هما عليه من ثقافة ـ أن هذا أمر طبيعى ينشط به الطفل ملكة التخيل لديه ، فلم يكونا يفسرانه على أنه كذب ، ولكن والدها قص فى أحد الاجتماعات العائلية الدينية الصباحية قصة الزوجين حنانيا وسفيرا اللذين ورد ذكرهما فى الانجيل ، وكيف أقبل الزوج على بطرس تلميذ المسيح وأخبره بأنه باع ما يملكه ويهب كل ثمنه للكنيسة ، ثم قدم له مقدارا من المال ، ولكن بطرس أدرك أن حنانيا لم يحضر له كل الثمن وواجهه بذلك فسقط الكذاب ميتا على الارض ، وما لبثت زوجه أن أقبلت بغير أن تعرف ما حدث لزوجها وأكدت أن المبلغ الذى أحضره زوجها هو ثمن ما باعاه حقا ·· فقال لها بطرس ان الذين دفنوا زوجك سيدفنونك أيضا ·· ومن يومها تعلمت أنيسة أن كل من يقول غير الحقيقة يقتله الرب ، ويكون مصيره مصير حنانيا وزوجه سفيرا ·· ومع ذلك فقد كانت كثيرا ما تقص قصصا لم تحدث ·· وعندما كانت صغيرة جدا لم تكن تميز بين الحقيقة والخيال ، ولكنها بعد أن كبرت قليلا واستمرت على عادتها كانت تدرك فعلتها لكن بعد أن تكون قد روت كل ما لديها فتذهب الى النوم خائفة تحسب أنها ستقتل فى كل لحظة وأنها لن تستيقظ أبدا من نعاسها ان هى استغرقت فيه ·· وهكذا وقر فى نفس أنيسة صورة العقاب المخيف سواء على شكل موت أم على شكل نار لا تطفأ ودود لا يموت أم على شكل عين الهية لا تنام ، وذلك لكل من يكذب أو يشتم أو يحلف ، ولم يكن الامر يخلو من أن تكون هى واحدة من هؤلاء بين حين وحين عندما يغرر بها الشيطان ··

وقبض أصدقاء الشيطان على المسيح ، وانصرف الجميع ، وأصبح يهوذا وحده وبيده النقود يحدق فيها ، وهنا جاءه

الشيطان وهو يضحك ضحكا شديدا هذه المرة ويخرج لسانه ليهوذا صائحا بصوت مستنكر (وزاد وجه المدرسة تجعيدا وهى تصيح فعلا مقلدة صوت الشيطان) : ها ها ٠٠ لقد ضحكت عليك أيها العبيط وجعلتك تبيع الصديق الذى أحبك بنقود ستنفقها ولا تبقى منها شىء معك بعد قليل ، ولكن ستبقى فى قلبك الاسود هذه الفعلة الشنيعة ، ولن تستطيع أن تكلم بعد اليوم أبدا تلاميذ المسيح الآخرين مثل بطرس يوحنا ولوقا ٠٠ وتلفت يهوذا حوله يريد أن يضرب ذلك الذى مكر به وخدعه لكن الشيطان انحنى بسرعة وتفادى يهوذا ثم تعلق بقفاه ، فكان يهوذا يحس به ولا يراه ، يسمعه ولا يستطيع أن يمسك به ٠٠ (واقشعرت أصغر الفتيات سنا مثل فهيمة وأنصاف وشفيقة وليزا وأنيسة) ٠

وكانت أنيسة تعانى أزمة نفسية عنيفة ٠٠ فمنذ أيام اكتشفت أسرتها ذات صباح أن يمامة صنعت لها عشا على قاعدة شباك المطبخ ، وخلف صينية القلل تماما ، وقد تفاءلت الام بوجود هذا الطائر الوديع (ويبدو أن ذكره قد أتى فى آية من آيات الانجيل) فحرمت على أولادها أن يعبثوا بهذا العش ، وأفهمتهم أن اليمامة ستبيض وشيكا وتضع أفراخا صغارا ، وحرام ألا يوفروا الهدوء اللازم للأم وأطفالها ٠٠ وظل الاطفال يراقبون العش باهتمام كل يوم حتى شاهدوا ــ فى غياب اليمامة وأمهم أيضا ــ بيضتين صغيرتين غارقتين فى أعشاب العش القصيرة الجافة المتماسكة ، وقد فرحوا برؤية البيض فرحا عظيما وعدوه كأنما هو انتصار لهم أو كأنما هو نتيجة لمجهودهم ، وظلوا يترقبون يوما بعد يوم افراخ هذا البيض لينعموا برؤية طائرين صغيرين لم يشاهدوا مثلهما فى حياتهم ٠

وبالامس مساء ، وقبل العشاء ، كانت الاسرة تجلس فى شرفة المنزل فى الطرف الشمالى منه يستمتع أفرادها بالهواء الرطب المنعش وهم يتسامرون ، وقد جلس على مبعدة منهم خادمهم عجيب ، وهو صبى لا يتجاوز الحادية عشرة كان قد أحضره بواب المنزل من قريته كفر النصارى ليشق طريقه ويجرب حظه فى مدينة مزدحمة كالقاهرة ، وكان الآن قدأنهكه عمل النهار ، فانزوى على الارض فى ركن الشرفة شبه نائم ٠

وفجأة تسللت أنيسة من بين الجماعة معللة نفسها برغبتها في قليل من الماء . والواقع أنها لم تكن ظمأى الى الماء بقدر ظمئها الى رؤية ما تم فى أمر البيضتين ، فاتجهت على أطراف أصابعها الى المطبخ ، وهناك سحبت مقعدا ووضعته بجانب الشباك ، ثم اعتلته ونظرت خلف القلل ٠٠ كانت اليمامة هناك ، لكنها رأت ـ ويا لفرحة ما رأت ـ فرخا صغيرا ضئيل الحجم يفتح فمه بجوار أمه كأنما يبحث عن شيء ، أما البيضة الأخرى فيبدو أنها كانت ما تزال كما هى ، ولم يفزعها وجود اليمامة ـ التى كانت الآن نائمة ـ ولا هو غير من خطتها التى صممت عليها ، بل مدت يدها تريد أن تخطف الفرخ الصغير لتمسكه وتتأمله عن قرب ، وفزعت الأم من نومها وحلقت فى عنف بعيدا حتى لقد تطاير منها الريش ٠٠ وليست تدرى أنيسة حتى الآن هل وقع العش وتناثر بسببها أم بسبب طيران اليمامة المفاجىء كل ما تعيه هو أنها وجدت أمامها وعلى بلاط المطبخ الابيض بعض أعشاب العش المتناثر ، ثم البيضة الأخرى وقد تكسرت فظهر من داخلها فرخ آخر أقل حجما ينبض بالحياة وان كانت قطرتان من دم تنتشران على جلده الشاحب المنحول ٠٠ أماالفرخ الآخر فيبدو أنه سقط خارج النافذة فى فراغ المنـــور ٠٠ وفزعت الصغيرة مما رأت ، وجرت الى الخارج ، فلما اطمأنت الى أن الجميع غافلون عنها ، ولم ينتبه واحد منهم الى ما حدث ، أطفأت نور المطبخ ثم تسللت الى الشرفة حيث كان والدها وأخواها ما زالوا يتسامرون ، بينما كان الخادم الصغير يغط الآن فى نوم عميق ٠٠ وما لبثت أن صـــاحت فى عجيب لكى يستيقظ ، ثم طلبت منه أن يذهب الى المطبخ ليأتيها بكوب ماء ، وكأنما تذكر الجميع فجأة ظمأهم فطلبوا واحدا بعد الآخر نفس الطلب ، ولهذا عدلت الام طلبها وأمرت خادمها أن يحضر القلة نفسها ، واتجه الصبى نحو المطبخ ، لكنه حين أضاء النور لاحظ الفرخ الصغير الملقى على الارض وهو ما يزال ملتصــقا بقشرته يفتح منقاره كأنما يلهث ٠٠ وتأمل الصبى المنظـــر العجيب مندهشا ثم قاده حب الاستطلاع الى أن يمسه بيديه ، وجلس الطفل يداعب الفرخ الذى كان يقاوم الموت ونسى ما كلفته به سيدته حتى طالت غيبته ، فصرخت تنادى عليه ، لكنه

كان مشغولا باكتشافه الرائع ، لهذا قامت بنفسها لترى ماذا يفعل الصبى ، ولدهشتها وجدته منحنيا على الارض وبيديه الفرخ وقد تدلت رقبته وأسلم أنفاسه بينما تناثر قشر البيضة وأعشاب العش الجافة على أرض المطبخ فصاحت السيدة فى دهشة : « باسم الصليب ، ماذا تفعل أيها الولد ؟ » ، وفزع الصبى بينما أطلقت السيدة صارخة : « لماذا فعلت هذا ؟ لماذا اقتربت من العش أيها المجرم الذى لا قلب له ؟ » وأقبل على صراخها أفراد الاسرة ، وأنيسة من بينهم ، وصاحت الأخت الكبرى نصيفة : « باسم الآب والابن والروح القدس ، ماذا حدث ؟ » والخادم يزعق ويحلف بأنه لم يقترب من العش بل وجد الفرخ ملقى على الارض ، ولما كانت له سوابق فى الكذب فان السيدة انهالت عليه ضربا ، وكان كلما حلف ضوعف عقابه . وزعق الابن الاكبر شفيق قائلا : « اخرس ، يا الكذاب » وقال الوالد : « اذا قلت الحق سامحناك » وكان الحق الوحيد أن ينسب الى نفسه ما وقع بالعش ، ولكن الولد أصر على أنه لم يعبث بشىء ، وأنيسة تستمع الى ما يدور وتلاحظ غضب والديها وأخويها الشديد وترتعد خوفا لا تدرى ما عسى أن تكون النهاية .. وازاء اصرار الصبى على الانكار التفتت الام الى أولادها تسألهم : « هل اقترب أحدكم من العش ؟ » وقبل أن تسمع الاجابة من أحدهم استمرت تسأل : « هل اقتربت من العش يا شفيق ، هل اقتربت يا نصيفه ، هل اقتربت يا أنيسة ؟ » وكأنما كانت أنيسة لا تملك اختيار اجابتها ، فقد سمعت أختها تقول « لا » وأخوها يقول « لا » وبطريقة آلية قالت هى أيضا « لا » .. ولا يمكن أن يكون لدى السيدة أم شفيق ابن يكذب ، لهذا انهالت مرة أخرى على الولد وهى تقول له : « انك ستعلم أولادنا الكذب » ، وأنيسة واقفة ترقب ما يحدث ، انها لا تحس أنها كذبت فحسب ، بل وان بريئا يعاقب بدلا منها .. وزاد احساسها بثقل الخطيئة حين جلسوا يتناولون العشاء وقد حرموا منه الخادم الكذاب ، وهو يبكى صارخا : أريد أن أعود الى أهلى أريد أن أسافر بلدى .. والاب والام يأمرانه بالصمت .. ولم تتناول أنيسة الا لقيمات فى بطء ، فقد انعدمت شهيتها الى الطعام ، وبزغ فى نفسها صراع بين أن تقول الحقيقة وأن تصمت

ءكلما مرت الدقائق وجدت أن فرصة الاعتراف تتضاءل ، ومع ذلك ظلت حزينة حزنا عميقا ، حتى أنها حين رقدت فى سريرها عاودها ذلك الخيال المرعب ، إنها ا ن نامت فلن تصحو أبدا ، ستموت كما مات حنانيا وكما ماتت زوجه سفيرا ، ثم تذهب الى النار حيث يأكلها الدود ، وكانت تفزع لهذه الخواطر فلم تجد الا دموعها تلجأ اليها فى محنتها ، فاغرورقت عيناها ، وأصداء التراتيل المسائية تملأها رهبة ، وقامت وركعت تكرر صلاتها وتطلب حمايتها من الحيات والعقارب وهى تحس أن أحدا لا يسمع منها وأن عين الله لا تنظر نحوها الا فى غضب مقيت ، وظلت تناوشها هذه الافكار حتى استغرقت أخيرا فى النعاس ٠ وعندما قامت فى صباح اليوم التالى لم تكن قد نسيت شيئا مما حدث ٠٠ لقد وجدت أن عجيبا كنس المطبخ فأزال الاعشاب الجافة وقشر البيض والفرخ الميت ، ولكنها رفعت عينيها تبحث عن جريمتها فى وجوه والديها وأخويها ، ولكنهـا لم تجد الا عجيبا متجهم الوجه يبدو عليه الخوف من كل حركة تتجه نحوه كأنهـا موجهة لضربة ، والكل ينظرون اليه نظـرتهم الى الكذاب الخائن الذى حطم عش اليمامة الوادعة ، وهى وحدها التى تعرف الحقيقة ولا تستطيع أن تصرح بها ولا تسـتطيع كذلك أن تنساها ٠٠ وهكذا ذهبت فى طريقها الى المدرسة وهى تحس بضيق شديد لا تعرف كيف تقضى عليه وتتخلص منه ، فان عين الله التى تراءت لها ليلة الامس تتابعها الآن ولاتستطيع الاختفاء منها ، لا فى ثياب أميرة مسحورة (فهى لا تسـتحق ذلك) ولا فى شكل أوزة ولا حتى أرنب ، وكانت عين اللهماتزال تلاحقها وهى جالسة فى حصة الدين تستمع الى قصة يهوذا بانتباه شديد وتتلهف لمعرفة مصيره ٠٠

واستمرت المدرسة فى قصتها ، تروى كيف أن يهوذا لم يستطع أن ينام طوال الليل ، وكيف أن ابنته سالوما كانت تسأله عن العروسة التى وعدها بها لكنه لم يجبها بشىء ، وكيف أن الشيطان كان يقفز حوله طوال الوقت بحيث لم يجد طريقة للخلاص الا أن ينتحر بشنق نفسه ٠٠

وقالت طفلة فى انفعال : أحسن ٠٠

وسألت أخرى : ما معنى شنق نفسه ؟

فأجابتها زميلة لها : يعنى علق حبلا حول رقبته ·

وفجأة رؤيت أنيسة وقد تشنجت أطرافها وأصرت بأسنانها وهي تبكى بكاء مرا ، وأسرعت المدرسة ، وفزعت الطالبات ، وأخذن يبكين بدورهن ·· وكانت عينا أنيسة المحمومتان محدقتين ـ رغم ما فيهما من دموع ـ تبحثان هل يمكن أن يكون هناك شيطان يمسك برقبتها ·· وكأنما هى تنبه ببكائها هذه المجموعة من الناس ليتجمعوا حولها فتحتمى فيهم من « عين الله » · وكان الآن شعر المدرسة الابيض يقف بينها وبين هذه العين مما طمأنها قليلا ·· وأقبلت ناظرة المدرسة على الهرج الذى شاع فى الفصل تسأل عن سر الضجة ، فأخبرتها المدرسة قائلة : لقد كنت أقص قصة يهوذا ، ويبدو أن هذه الطالبة قد تأثرت لمصير المسيح على يد هذا الخائن ، فانتابتها هـذه النوبة من البكاء ·· انها الآن أحسن قليلا ··



المعدم الثامن

كان ذلك يوم الجمعة ·· وكان محجوب قد أمضى الصباح كله فى عمل قام به بكل نشاط واهتمام ·· كان قد خــرج الى « الحوش » ، فوجد نفسه أمام بيت من بيوت النمل ، فسلط عليه الماء حتى أغرقه وهو يتأمل محاولات النمل للخلاص ·· ووجد لذة غريبة فى هذا الاكتشاف المفاجىء ، وأدار نظره فى الحوش فوجده مليئا ببيوت النمل الكبير والصغير والاسود والاصفر ، فأمضى الصباح كله يملأ أقداح الماء ويصبها فوق بيوت النمل وهو

يتأمل الطرق التى يحاول بها النمل انقاذ نفسه ، وهو يجد لذة مرهقة فى أن يسد عليه كل منافذ الخلاص ..

والواقع أن هذا العمل لم يكن ليستأثر الا بانتباهه السطحي أما فى أعماقه فكانت ثمة زحمة من الاحاسيس والعواطف الفزعة الاسيانة ..

كان فى المحكمة بالأمس ينادى كعادته بصوت مرتفع جاد : محكمة ! فتدخل هيئة القضاء ليسمع ما تصدره من أحكام على اللصوص والمدمنين والقتلة والعاهرات وعلى افرازات هذا المجتمع .. ومنذ عمل محجوب حاجبا بالمحكمة والمجتمع يفرز صديده دائما وباستمرار كل يوم .. كل يوم ، منذ خمس سنوات .. وكان المجتمع عبقريا فى هذا الافراز ، بحيث لم تعرض لمحجوب قط حالتان متشابهتان ، دائما كان الافراز من نوع جديد وغريب وفظيع وبلا انقطاع ..

وبالامس - ولسابع مرة فى هذا العام - يسمع حكم الاعدام .. ولم يكن سماعه حكم الاعدام يعنى لديه سوى بضعة كلمات يقولها القاضى ، لولا أنه اتضح له بالامس فقط أنه يمكن أن يكون هو ذلك الشخص المحكوم عليه بالاعدام ولا يزال يمكنه أن يكون الشخص الثامن ..

كان المحكوم عليه بالاعدام فى الثانية والثلاثين - أى فى مثل سنه تقريبا - رقيق التقاطيع ، خجولا ، حييا ، له أنف دقيق كأنه أنف فتاة ، وعيناه عسليتان تدوران فى أرجاء القاعة كأنما تبحثان عن منقذ أو معز له فى بلواه ..وكانت تلك هى خامس جلسات هذه القضية وآخرها .. وكانت الدلائل والقرائن على جريمة الشاب واضحة ..

كان الزوج قد دخل وهذا الشاب يضاجعها ، فلما هم الرجل بخنقه بيديه ، أمسك الشاب خنجرا كان يحمله معه تأهبا لما عساه يحدث ، وظل يطعن الرجل حتى مات .. وكانت المرأة تولول فى هذه الاثناء جزعا على زوجها وعلى عشيقها ، فأقبل أكثر من جار وشهدوا بعيونهم الشاب وهو يطعن الزوج طعناته الاخيرة ، واعترفت المرأة بالقصة وحاول الشاب الانكار فى أول الامر ، لكنه ما لبث أن اعترف ، فثيابه الملوثة بالدم ، وبصمات أصابعه على الخنجر وشهادة الشهود ..

وتذكر محجوب موعده مع حسنية فى عصارى اليوم ، وماذا يحدث لو دخل عليهما أبوها ؟ أما يمكن أن يكون هو الشخص الثامن الذى سيقف فى القفص المرة المقبلة ويسمع حكم الاعدام على نفسه من فم القاضى ؟

وعندما صحا من نومة الظهيرة كانت أمه العجوز تتشاجر مع بائع الفجل ٠٠ ولم يكن هذا جديدا عليه ٠٠ فقد كان محجوب يسمعه فى حارة الزرايب كل يوم من أمه ومن الجارات مع بائعى الفجل والفول ومع الست أم حسن بائعة الطعمية على طـرف الحارة الشرقى ٠٠ ومع ذلك فقد أنصت اليوم فى دقة الى النقاش الدائر بين أمه وبائع الفجل ٠٠ كانت أمه تريد شراء ست حزم بعشرة مليمات وكان البائع يصر فى صوته الاجش الغاضب على أن يبيعها باثنى عشر مليما ٠٠ وكان حجة أمه فى رأيها أنها ستشترى بسعر الجملة وكان الرجل مصرا على أن يبيع كل حزمة بمليمين مهما كان مقدار ما يبيع ٠٠ وأثار هذا الشجار فى نفسه مجموعة من الاحاسيس المتشابكة المختلفه الممتدة كأنما الى أعماق سوداء مظلمة لا آخر لها ، احساس بالاشمئزاز وبالحقارة وبالضعة التى تبلغ حد الجريمة ، وبرطوبة الحــارة وقذارتها والوحل المتراكم فيها ومجموعات الذباب المزدحم على أنوف أطفالها وعيونهم وأفواههم ، وبالشــجار الذى لا ينقطع خارج البيوت وداخلها ، وبالكابوس الجاثم من الازل على معدته وعلى روحه ٠

وتذكر موعده مع حسنية ٠٠ كان يحلم بهذا الميعاد منذ أكثر من أسبوع ، وان كان يمهد له ويعد العدة منذ شهور ٠٠ كان الرجال ينقسمون أمامه الى قسمين : رجال لهم نساء ورجال بلا نساء ، وكان يعذبه أنه من رجال القسم الاخير ٠٠ وانه ليحرم من الطعام ليلة ويعيش أشهرا على الفول والطعمية والفجل لكن الناس جميعا يأكلون ، أما هذا الجوع الجنسى فهـــو أزلى لا يتساوى فيه الناس ٠٠ وتذكر عدم الاعدام بالامس ٠٠

وعبر محجوب على الست أم حسن فلاحظ أنها علقت فوقها اليوم لافتة قديمة قذرة كتب عليها « هذا من فضل ربى » ،

ووصلت أنفه رائحة الطعمية ·· أما هى فكانت مشغولة بضرب طفلها محمد ضربا سريعا متلاحقا ، وطفلها يزعق زعقات متقطعات متحشرجات ··

وظل يسير من حارة الى حارة ومن زقاق الى زقاق ، حتى وصل الى الطريق العام حيث وقف ينتظر الترام ·· وملأ رئتيه بالهواء المضىء الجاف وملأ عينيه بمناظر الفتيـــات المتأنقات الناعمات ·· حتى أقبل الترام مزدحما ، فتعلق بسلمه واخترق الواقفين حتى وجد نفسه بالدرجة الاولى ·· لم يكن بها سوى

رجل بدين يرتدى جاكتة بيضاء ، رأسه صلعاء وقد برزت فوق جبهته كرة صغيرة من اللحم ، فدفع الباب الى الدرجة الثانية ، وأوجد لنفسه مكانا بين المزدحمين ، وحدثت المعجزة ·· فقد قام شخص بدين تفوح منه رائحة العرق ليجلس مكانه محجوب وكانت جلسته الى جانب فتاة رفيعة متبرقعة قد كشفت عن

احدى ذراعيها فبدت من خلال الملاءة السوداء بيضاء ناعمة طرية وأحس محجوب بالدفء وطراوة اللحم الى جانبه ، وأخذ يتحسس ــ فى حذر ــ طريقا لذراعه الى جانب ذراعها حتى التصقت بها ولم تحرك الفتاة ذراعها ، فاطمأن محجوب الى أنها راضية بهذا اللصاق مما أضاف الى لذته الحسية لذة خفية سعيدة بالانتصار

وكان على جانبه الآخر شاب فى بذلة عمالية بها بقع من الزيت هنا وهناك ، يقرأ باهتمام احدى الصحف المسائية ، فلم يلهه التصاق زراعه بالحسناء المتبرقعة من أن يقرأ الصحيفة على طريقته التى تعودها كل صباح ·· ذلك أن يمد بصره الى العناوين الضخمة فى الصحيفة التى يقرؤها الجالس الى جواره أو الواقف قبالته فى زحمة الترام ··

كان أبوه من أهـــالى دميـــاط ، وانه ليذكرهـــا حين كان يصـــحبه فى صغره اليها ، ولا يزال يذكر ســـوق الحســـبة والشيخ محمد الذى يحمل السلاسل والحديد حول عنقه ويدور وسط الميدان والناس يتباركون به ·· وكان يصحب أباه الى رأس البر وقت اعدادها للمصيف ·· ولم يكن يحسب أنها فى

حاجة الى مليم واحد ٠٠ أما حارة الزرايب !!

وأفاق من تفكيره حين لمح الفتاة الى جانبه تقوم لتغادر الترام وحين أخذ يتعالى شجار قاطع التذاكر مع أحد أولاد البلد ، ونزل أخيرا من الترام فى طريقه الى حسنية ، وقد بدأ يحس حاجته الى الحماس كى يواصل سيره ٠٠ فقد بدأ يغادر الطريق العام الفسيح المضنى ويخترق الازقة من جديد ٠٠ وراودته الرغبة أن يقفل راجعا الى « الحوش يصب الماء فوق بيوت النمل لاغراقه ، على أن يكون الماء ساخنا يغلى هذه المرة ٠٠ وأحس أنه لا يطيق صبرا حتى يذهب الى حسنية ثم يعود ليجرب تجربته الجديدة ويرقب نتائجها المريعة ، ورغم هذا فقد ظل سائرا ــ ومر على عم على والد حسنية ٠٠ كان منهمكا فى ترقيع أحد الاحذية القديمة فى مكانه المعهود بجوار الحائط الخشبى ، ووقف الى جانبه أحد الاهالى كأنما ينتظر اصلاح حذائه ، وتفرس محجوب هذه المرة جيدا فى عم على ، كان رجلا هزيلا كث اللحية أبيض الشعر ٠٠ ان فى الامكان قتله لو أنه فاجأه مع حسنية ٠٠ وعاوده الاحساس بالاشمئزاز والحقارة والضعة والكراهية ، ثم الحرمان ، الحرمان الضخم المخيف الذى يدفع الى كل جريمة والى كل جنون ٠٠

ورآها واقفة على باب الدار تستقبله بابتسامة عريضة ، وفى عينيها شهوة وفى وجهها ألم وفقر وحرمان ، وكانت تفوح من مدخل الدار رائحة كريهة قذرة ، بينما كان أخوها الصغير محمود يزحف على تراب الارض تاركا وراءه خطا طويلا من براز سائل أصفر ٠٠ واختفت حسنية لحظات ثم عادت تنظف الارض بقطعة من الورق ٠٠ كان شعرها غزيرا ناعما ، وبدا عجزها ، وهى منحنية تنظف الارض ، مستديرا ملفوفا خلف ثوبها الاحمر المتمزق ٠٠ وعادت حسنية ترحب به ٠٠ ومرت أمامه صور من المدينة الباهرة ، فأجلسها الى جانبه وهو يقص عليها قصة أمس وحكم الاعدام الذى سمعه كأنما يريد أن يخيفها ٠٠ أما هى فكانت تقترب منه فى تهالك واستجداء تريده أن يقبلها ٠

منذ خمس سنوات وهو يقوم بمثل هذه المغامرات ، ولم يحس فى يوم أنه حصل على امرأة ٠٠ وتذكر رأس البر ، ماذا

لو كان الآن مع واحدة من حسناواتها هناك ؟ انه لا يرقى ولا يتغير ولا يتحرك .. لقد ظل حاجبا بالمحكمة منذ خمس سنوات وهو لا يأمل أن يكون خيرا من ذلك في مقبل الايام ، ولقد ظلت حارة الزرايب بوحلها وذبابها وشجار أهلها هكذا منذ خمس سنوات ، بل منذ تاريخ لا يعرف متى بدأ .. ولقد ظل يضم اجسادا كجسد حسنية فى جنح الليل ، أو بعيدا عن العيون كالمجرمين واللصوص ومع ذلك فلم يكن له بيت ولا أطفال كما يكون للآخرين .. انه يدور ويدور لا يتقدم ولا يتطور ..

وكانت حسنية لا تزال تحاول مداعبته فنظر الى عينيها التعبتين المتألمتين والى الشهوة التي تضج فى جسدها أمامه .. وتذكر فكرة الماء الساخن الذى سيصبه على بيوت النمل فى « الحوش » بحارة الزرايب ، فضمها الى صدره ضمة قصيرة عنيفة ، وطبع على جبينها قبلة ، ثم خرج يهرول ..



محمود شاب مثقف ، وهذه لعنة كافية فى هذا العصر ..
فهو شغوف بأن يخلق الصعاب زاعما أنه سيتغلب عليهـا ،
فمثلا ، عندما صحا صباح هذا اليوم تخيل أن تدخينه للسجائر
أصبح عادة سخيفة تسيطر عليه ، وهو يحب أن يكون حرا ،
فالحرية عنده لا تكون أحيانا الا محاولة الافلات من عادة كتدخين
السجائر .. ولهذا قرر أن يمتنع عنها منذ اليوم .. وهو لا
يدرى لماذا اختار هذا اليوم بالذات من هذا الفصل من العام .
فهو يزعم أنه لولا هذا القيظ الملعون الذى غمر النهار كله منذ
الفجر ، وجثم على أنفاس المدينة ومنازلها الضيقة المزدحمة ،
لاستطاع أن ينتصر فى معركته التى خلقها ، غير أن شدة الحر

سببت له صداعا شديدا ، وأضعفت قليلا من هـــذه الرغبة فى اقامة أى نوع من المقاومة ٠٠ وهكذا عدل عن محاولته بعد ساعة واحدة من قراره ، ظل فى كل دقيقة من دقائقها يذكر أنه لن يدخن ، لن يدخن ٠٠ حتى تضخمت أمامه كل الاشياء ، ورقصت الحروف التى كان يقرؤها ، وسال العرق فى خفة على جبهته ، وأمسك بالسيجارة فأشعلها ، ثم ذهب فى شبه غيبوبة نشوانة ٠٠ لكن هذا لا يحدث للمثقفين فقط ، بل هو يحدث لكثيرين ممن يتنبهون فجأة ، فيجدون عادة قد سيطرت عليهم ، وبذا يقررون أن يقيموا معركة بينها وبينهم ، وما من سبب الا أن يثبتوا أمام أنفسهم أنهم أمام قوى لا يخضعون لها ، وهم يجدون فى هذا مرانا لذيذا لارادتهم ، غير أنهم يدركون بعد ساعة واحدة ، أو ربما بعد شهور ، أنهم خلقوا معـركة كى يثبتوا فيها هزيمتهم على أنهم يحتفظون على أية حال بذكرى ذلك الصراع ، ويقصونه حين تتقدم بهم البنون ، فهو قد دام ساعة أو ثلاثة عشر يوما أو سبعة شهور وهكذا ٠٠

وفى الضحى كان الطريق المهجور يتعذب من الظمأ ٠٠ وفى زاوية من زواياه برز شاب يجفف عرقه وهو يتجه نحـو بائع السجائر ٠٠ وفى المساء كان عليه أن يقابل « الهاما » ــ وهو اسم جميل بلا شك ــ ويخبرها أنه سيخطبها ، غير أنه سيعلق خطبتها على شرط عليها أن تنفذه ٠

وفى المدينة كان الثلج قد نفد ، فكنت لا تستطيع الحصول على شيء مثلج الا بثمن مرتفع ، وكانت أعمدة الترام النحاسية لا يمكن لمسها ، بينما اكتظت الفتيات وهن يمسحن عــرقهن ومساحيقهن محشورات بين رجال ثارت غرائزهم ، وفى الطريق كان السائرون يتجمعون كالذباب حول بائعى الغازوزة وعصير الفواكه والقصب يجففون عرقهم ويلهثون كالكلاب ٠٠

أما أمه فكانت قد نسيت أن تغلى اللبن ففسد ، وأخته تعانى مغصا ، بينما وقفت حمارة فجأة وسط الطريق المهجوروأفسحت ما بين قدميها الخلفيتين ثم روت قليلا هذى الارض المعذبة ٠٠ وراجت اشاعة فى المدينة مؤداها أن العالم كله أصبح شرا ، فرأى الله أن يوفر على نفسه عملية نقل الناس الى الجحيم بأن جعل من الارض نفسها جحيما ٠٠

على أية حال ، كانت فى حياته ثلاث فتيات ، احتللن بؤرة حياته الواحدة بعد الاخرى كعربات قطار ·· أما على هامش حياته فكان ثمة عدد أكثر قليلا ، وهو لا يفصـــل بين الحب والشهوة ·· ذلك الفصل الذى شاع بين شباب العصر وفسره علماء النفس بأنه تعلق بالام ·· فكل من كان محمود يحب روحها فهو يحب جسدها كذلك ·· غير أن هؤلاء اللاتى يضعهن على هامش حياته قد أحب منهن أجسادهن دون التعلق بأرواحهن ·· ومن الغريب ـ فى رأيه ـ أن الفتيات الثلاث بخلن عليه بأرواحهن وأجسادهن بينما بذلت له الاخريات ما أراد بغير ما مقابل الا اللذة العابرة ·· وكان هذا ما يدهشه ويحيره فى حياته حقا ·· أما الثالثة فكانت الهام التى كان عليه أن يفقدها الليلة ··

وقد اضطر أصحاب الموتى فى المدينة أن يعجلوا بدفن أحبائهم الموتى فى هذا اليوم قبل أن تزكمهم رائحتهم النتنة ·· وعندما جاءت الظهيرة كانت المحال العامة تروى ظمأ زبائنها بماء يكاد يغلى لأن المياه الباردة أتى عليها رواد الضحى ·· ورجال الحريق كانوا على استعداد لتلقى أى نبأ ، بينما ازدحمت الحمـــامات وارتفعت فيها الاسعار ، وأعلن الراديو أن المدينة لم تعان مثل هذا القيظ منذ أكثر من نصف قرن ··

وكان على محمود أن ينتظر حتى المساء ·· ولن يخلصه من ملل الانتظار والحرارة الا التدخين ·· وكان القيظ فظيعا حقا ، فعندما أرسل غلامه الصغير كى يشترى له السجائر ، عاد يزعق فقد كان حافى القدمين ، وأرض الطريق قد اكتسبت بالجمر ·· فاضطر أن يخرج بنفسه الى الطريق المهجور ، وهو يحس أنه يسير وسط أتون ، وأن ثمة دوامات نارية تنبعث من أسفل ومن فوق ومن شمال ومن يمين ومن الوراء ومن الامام ومن هنا وهناك ومن كل مكان ·· لكنه واصل سيره بشجاعة حتى وصل الى بائع السجائر ·

وكان بائع السجائر شابا صغيرا ضاعت احدى عينيه فى حادث ما ـ ربما أقصه عليك فى قصة أخرى ـ فوضع عليهـا زجاجة لنظارة سوداء ربطها الى أذنيه بقطعتين من قماش ، وترك العين الاخرى تتمتع بحريتها ، وكانت هذه الطريقة ـ فى

رأيه ـ كفيلة بأن تخفى عاهته أمام الخـــادمات اللائى يأتين بقباقيبهن ليشترين منه السجائر لأسيادهن ، غير أن هذا لم يكن رأيى ، فقد كان من المؤكد أن جميع الذين عبروا عليه لأول وهلة ، يدركون أن خلف هذه الزجاجة السمراء شيئا مخجلا لصاحبها ..

وكان اسم بائع السجائر أيضـا محمود .. وكان محمود ـ بائع السجائر ـ قد رأى محمودا ـ المثقف ـ آتيا من زاوية الطريق وعرف أنه يقصده ، فأبعد الجـــريدة من أمام عينه (السليمة بالطبع) وقد جمع منها محصولا لا بأس به ظل عالقا منه بذهنه شيئان : النظام الجديد للتجنيد الاجبارى فى مصر ، والحرب العالمية الثالثة .. وكان ـ ككل الذين حوله ـ يهتم بالموقف العام كى يرى أين هو منه ، وقد ربط ربطا آليا بين التجنيد والحرب ففزع بعض الشىء ، ولو أنه اطمأن الى أنه لن يجند بسبب عينه (الفاسدة بالطبع هذه المرة) .

غير أن محمود كان يبتسم ، وكان يفكر فى نفس ما يفكر فيه محمود ، وكان مثار الابتسامة على شفتيه فكرة فلسفية .. ذلك أن التجنيد والحرب سيخلصانه من أشـياء كثيرة متعفنة فى نفسه ، وسيغيران من حياته الخاملة الرتيبة ..

واقترب محمود من دكان محمود ، وظل يسير وسط اللفح واللهيب فى الطريق المترب ، حتى رأى نفسه مقبلا نحو نفسه فى المرآة التى علقها البائع أمام دكانه ..

كان محمود البائع سيعقد خطبته الليلة .. والواقع أنه كان ينوى الزواج الا أنه لم يوفق فى العثور على مسكن بأجر مناسب بسبب أزمة المساكن .. وقد رأى أن يدعو محمودا ، ولعـل الدعوة كانت للاخيار فحسب .. قال له :

ـ ستأتى الليلة يا محمود بك ؟

وكان محمود (بك) مشغولا يتطلع باحثا عن سـيجارته المفضلة فالتفت الى محموود وقال :

ـ لأحضر كتب الكتاب ؟ (أى حفلة القران)

ـ بل مجرد خطبة فى الساعة الثامنة من مساء اليوم .

ـ ولن تعلق خطبتك على شرط معين ؟

ـ ماذا ؟ .. آه .. ما أكثر الشروط والاشتراطات يا سيدى

فى هذه الامور وهى من جانب أهلها أكثر مما هى من جانبى .
ــ وهل عندك اليوم تبغ بدلا من اللفائف ؟
ــ نعم يا سيدى ، بلا شك ، هاك ..
فقاطعه محمود :
ــ ما هذه الحرارة ؟ لقد قال المذيع أننا لم نعرف مثل هذا منذ حوالى ستين عاما ..
وعبرت عليهما موجة من اللهيب ، ثم غمرت الطريق كله ، واستقرت بعض اللحظة ، ومحمود يعرض على محمود أصناف التبغ ..
ولم يكن فى امكان محمود أن يلحظ نفسه فى المرآة المعلقة وهو يبتعد شيئا فشيئا عن نفسه ..
وفى مساء ذلك اليوم رؤى محمود وهو يدخن غليونه فى مشرب مارلى بشارع قصر النيل أمام مكتبة كتان ..
كان قد تحرج من رفض الدعوة فوعده بالحضور .. وكان يدرك أنه فى مثل هذه الساعة تماما سيذهب ليفقد فتاته الهام
ولسنا نعرف ما هو اسم عروس بائعنا محمود ، وليس من المستبعد أن تكون الهام كذلك ولكن لا تتسرع وتظن أن هناك حيلة قصصية تجعل من الهام عروس البائع هى نفس الهـام الفتاة الثالثة فى حياة محمود شابنا المثقف ، فوجود الهوات بين هذه الفئات تجعل حدوث هذه المصادفات أمرا نادر الحدوث ..
ولماذا نذهب فى الاستدلال بينما الواقع يقول لنا انه فى الساعة الثامنة من مساء ذلك اليوم كانت هناك فتاتان ، احداهما تزف أو تخطب الى محمود فى حارة المغربلين رقم ٣ حيث أضيئت الكلوبات فأضافت الى الحر حرارة ، والاخرى تجلس مع محمود وهو يدخن غليونه فى مشرب مارلى .
لم يكن محمود واثقا من نفسه الى هذا الحد الذى به يعلق خطبته لفتاة على شرط تنفذه هى أولا .. فهو يدرك أنه ليس أسهل من فقده الفتيات ، فلقد فقد من قبل فتاة وفتاة غير أنه كان يحس أن حياته اليوم قد وصلت الى مأزق ، وكان هذا هو الذى يقويه ويجعلنا نتوهم أنه واثق من نفسه كل الثقة ، بينما هو لا يملك ما يضمن به شىء .. ثقة أساسها الاستهتار .. وهى ان نفذت هذا الشرط ربما نجا من المأزق ، فان لم تنفذه

فاما أن يظل يحيا حياته المنحرفة المظلمة الكئيبة ، واما أن يتزوجها فيرتبط بها ارتباطا سخيفا من نوع ارتباطه باللفائف والتبغ ، حيث يقيم معركة بينه وبينها من حين لآخر كي يجرب شخصيته ويمتحن إرادته ٠٠ اذن لم يكن يرى الحرية ـ مثلما يراها بائع السجائر وأمثاله ـ في الارتباط بعادة يحبهـــا ويألفها ٠٠ واذن لم يكن بينهما ما يمكن أن نسميه بالحب بل هو نوع من العملية الحسابية التى قام بها محمود وحده ورأى أن يشمل فيها الهاما أو يدعها الى الابد ٠٠

ولم يكن هناك غيرهما فى المكان عدا أصحاب المشرب وخدمه ٠٠ وطلبا شرابا مثلجا ثم شرابا ساخنا ثم آخر مثلجا ٠٠ ونضح العرق من وجهيهما وملابسهما وهما يتحدثان حديثا فيـــه الضحكات حينا وفيه الارهاق أكثر الاحايين ٠٠

أما سكان المدينة فكانوا قد اكتظوا رجالا ونساء فى دور السينما التى تعرض قصصها وضجيج موسيقاها فى الهـواء الطلق ، وعندما ارتفعت درجة الحرارة بحيث سجل مقياسها خمس عشرة درجة أصبح يخشى ازديادها فيتعرض بذلك خمسمائة على الاقل من سكان المدينة للموت بضربة الشمس ٠٠ وفى الساعة الثامنة والنصف أذاع المذيع للمرة الثالثة تقرير مصلحة الطبيعيات ، ويقول أن درجة الحرارة تســتمر أربعا وعشرين ساعة ثم فى فجر اليوم التالى يعتدل الجو ٠٠

ولن أوهم القارىء بأننى لا أعرف ما دار بينهما من حديث ، بل اننى لأدرك الآن مبلغ الرغبة فى تعرف كنه هذا الحديث ٠ ولكنى أخلص اذا قلت أنه حديث ليس من المستبعد أن يبدو تافها سخيفا ، فما أكثر ما يجعل الآخرون سعادتهم تتوقف على شروط تبدو لنا من وجهة نظرنا تافهة سخيفة ، وفى مجـرد سردها املال ومضايقة لنا ٠٠ أليس من الافضل أن تجعله أنت أى شرط يمكنه أن ينال من تقديرك بحيث يصبح أهلا لخلق مأزق اذا لم يتم تنفيذه ؟

على أية حال لقد رفضت الهام هذا الشرط ، رغم أنها لاتمانع ـ ان لم تكن ترغب ـ فى الزواج من محمود فقد كان هـــذا الشرط يحتاج منها الى أن تبذل قليلا من الجهد ، وهى ترى ألا تبذل أكثر مما بذلته فى سنواتها العشرين الماضيات ٠٠ كان

يطلب منها أن تكافح بعض الشيء لكي تصبح أكثر نضوجا وثقافة ، وهو مطلب غامض لا معنى له لديها ٠٠ وما كان ليطلبه الا مثقف مثل محمود ، فهو يرى أنهما بهذا فقط يستطيعان أن يعيشا معا خيرا مما يعيش سيد مع خادمه ٠٠ أما الهام فقد شكت فيما اذا كان محمود جادا فى علاقته القصيرة الماضية بها ، وجادا فيما يطلبه منها الآن ٠٠ كان كل منهما حرا مستقلا عن الآخر ، لم يعرفا بعد الحرية التى لا تحيا الا فى الضرورة ٠٠ عندما يصبح كل منهما ضرورة للآخر ٠٠

وخرجا وذراعه ملتصقة بذراعها ، والعرق ينضح كثيرا من جسده وأقل قليلا من جسدها ، كان يمكنه أن يتزوجها ، وكان يمكنه أن يدعها ، غير أن العقبة التى خلقها من أجل أن يحصل على الهام لم يستطع التغلب عليها ٠

وهو يمكنه الآن أن يستمر يحيا حياته الممزقة الكئيبة ، وهو يمكنه أن يرتبط بها ارتباطا أسخف من ارتباطه بلفائف الدخان ٠٠ وحاول عبثا أن ينام ٠٠ كانت غرفته شديدة الحر لا تطاق ، وكان يمكنه أن يخرج الى الطرقات يذرعها لولا أنها ليست أقل لهيبا ، فالقيظ يندلع فى كل مكان ، وعب كل مافى المنزل من مياه باردة حتى سبح فى بحر من العرق فاضطر أن يخلع كل ملابسه وينام عريانا ٠٠ ومع ذلك فقد ظل ساهرا وهو يذكر أنه عد فى تلك الليلة مائة نجم فقدها فجأة فبدأ يعد من جديد ٠٠

وفى الصباح التالى أخذ الجو يعتدل ٠٠ فبدأ يغفو قليلا قليلا بينما فتح محمود دكانه ومضى يرقب العابرين ٠٠


الطريق

ميدان العتبة يكاد يكون أزحم ميادين القاهرة ، لا سيما فى الصباح ، حين تكون الكتل البشرية المتراصــة فى الترامات والسيارات أخذت تزحف نحو المكاتب والمخازن والمصانع ٠٠ ويختلط الضجيج بالحركة كأنك تشهد فيلما أمريكيا عنيفا ، فالسيارات مع العربات مع الترامات مع الكائنات البشرية ما بين باعة وموظفين وسيدات من كل نوع وجنس ، يعبرون هذه الطريق دفعة واحدة ، حتى اذا أشار شرطى المرور بيده وأطلق صفارته وقفت حركة هذا الطريق دفعة واحدة ، وزحفت حركة الطريق الآخر تكتسح الهدوء المؤقت الذى ساد فيها بعض اللحظة ٠٠

ومن الميدان تمتد عدة طرق تبتلع هذا العدد الزاخر من الترامات والسيارات والخلائق البشرية المنطلقة على أقدامها ، وتصب فى الميدان كتلا أخرى ٠٠ وفى الطرف الشمالى من الميدان تمتد احدى الطرق الكبرى ، تأخذ من الوافدين عـلى الميدان بقدر ما تدفع اليه ٠٠

وكان محمد افندى عجور ــ وهو اسم قد يبدو مضحكا ــ يسير مسرعا كأنما يهرب من الميدان منطلقا فى تلك الطريق ، وهو يبحث عبثا عن سبب لاحساسه بالقرف ، وأمامه تماما ــ وعلى بعد ثلاث خطوات منه ــ كان الاستاذ قدرى يسير بسرعة أقل ٠٠ والاستاذ قدرى هو أستاذ علم الجراثيم باحدى كليات الطب ، وقد أتيح له ــ بما له من علم ــ أن يدرك الى أى حد يزدحم الهواء والطعام والملبس بالجراثيم ، والى أى حد تتربص الاوبئة والامراض فى كل مكان لتفجأك ٠٠

وقد حدث أن التقى الاستاذ الطبيب بعجور افندى من قبل فى غير هذا المكان وفى غير هذه الظروف ، ربما كان ذلك منذ عشر سنوات ، عندما ذهب عجور افندى مع قريب له يعـرف الاستاذ الطبيب ليحقن باللقاح الواقى من مرض معد كان منتشرا فى تلك الايام ٠٠ وقد أبدى الاستاذ الطبيب فى ذلك اليوم كل مواهبه واحتياطاته ، وأفاد كل الافادة من علمه وسعة اطلاعه ٠ فقد كشف عن ذراع عجور افندى ومسح بالمحلول المطهر على مكان الحقنة ، ثم لم يعجبه ما فعل فعاد من جديد يمسح على ذراع الرجل كأنما هو فنان ناشىء يرسم على لوحة زيتية ،

وعجور افندى مغمض عينيه يتوقع ولوج الابرة فى ذراعه فى أية لحظة ، ثم طهر الابرة على النار ثم غمسها فى محلول مطهر ، فهو يعلم الى أى حد يزدحم الهواء بالجراثيم ·· وقد انصرف عجور افندى وقريبه وهما يحملان ذكريات يتندران بها كلما جمعهما مجلس ·· ورغم ذلك فلا تحسب أن هناك الآن أية صلة من التعارف بينهما ، فقد كانت القصة منذ زمن بعيد ، وعجور افندى قد يتذكرها ولا يتذكر وجـه الطبيب ، وكان مشغولا بقرفه بحيث يصرفه عن تذكر أية نادرة مضحكة ذات ماض بعيد ·· فالصلة بينهما الآن هى صلة الطريق فى هذه الساعة المبكرة من الصباح ··

وكان يمكنك أن تستدل بسهولة على أن ذلك كان فى الصباح لأن الطريق ـ كما يقولون بلغة المجاز ـ كانت تستيقظ ، فالمطعم الذى يبيع الفول والطعمية يكاد يزدحم بالعمال يتناولون فيه طعام افطارهم ، والحلاق لا يزال يفتح صالونه فى تثاؤب وبائع السجائر ـ والحشيش أحيانا ـ لم يمر به غير عشرين من زبائنه ، والهواء بكر لم يلوثه بعد عرق الكادحين ولا جهدهم المتواصل المستديم ·

وكان الآن عجور افندى قد حاذى الاستاذ قدرى وأوشك أن يسبقه ، حين تذكر فجأة سبب استيائه واحساسه بالقرف ·

ولسنا ندرى أبدا ما الذى حدا بهذين الشخصين أن يسيرا فى مثل هذا الوقت المبكر فى تلك الطريق ·· فالساعة الآن السابعة والثلث ، وعجور افندى موظف بالحكومة المصرية ، ويبدأ عمله فى تمام الثامنة ، وقد أمضى فى هذا العمل نحـو خمسة وعشرين عاما بين شبابه وكهولته ، كان فى خلالها مثال الموظف الامين ، يستيقظ متأخرا دائما ، ثم يقوم فى عجلة ليرتدى ملابسه ، فاذا لم يجد أمامه فسحة من الوقت فليس من الضرورى أن يَغسل وجهه بل يكتفى برشه بالماء رشا خفيفا ، ثم يهرول حاملا فطوره تحت ابطه ، ليصل دائما فى الميعاد ·· أما الاستاذ قدرى فمحاضرته فى الجامعة تبدأ فى تمام التاسعة وليست طريقه من هنا أبدا ، فهو لا يسكن هذا الحى ، ولا تقع هذه الطريق بين مسكنه والجامعة ، وهو يدرك أن الشـــوارع المزدحمة بالناس هى أزحم الشوارع بالجراثيم ·· فضلا عن أن

اليوم كان يوم الجمعة ، وهو يوم عطلة للاساتذة والموظفين ٠٠
وكان ثمة شيء هام جدا يشغل الاستاذ الطبيب ، ذلك أن أحدهم تقدم مساء الامس بالذات ليخطب منه ابنته عفاف ، وعفاف وحيدته ، وهو يدرك أنه يحبها أكثر مما هي تحبه ، وكان يعلم أنها ستفارقه يوما ما ، غير أنه لم يكن يحب أن يواجه نفسه بهذه الحقيقة ، كما كان يجيد تأجيل التفكير فيها ٠٠ حتى زاره بالامس شاب أنيق أناقة ظاهرة ، لا يزيد عمره فيما يبدو عن الحادية والعشرين ، يضع عوينات أمريكية وينتعل حـذاء لا صوت له ، وأخبره أنه سيتزوج عفافا خلال الشهر القادم ، وأفهمه بطريقة غير مباشرة أنه لم يأته يطلب موافقته بل لمجرد التبليغ ومن باب الذوق وكي يتعرف به ، فهو متفق معها وهي متفقة معه ، ثم حياه في أدب وانصرف ، وكان هذا أمرا غير مألوف في مصر في ذلك الوقت ٠٠ وكانت عفاف قد أشارت الى شيء من هذا القبيل لوالدها ذات مرة ، غير أنه لم يحسـبها جادة في الامر ولم يكن ثمة قرار معين قد استقر عليه رأيه وتشغله الآن طريقة تنفيذه ، بل مجرد حيرة لا يعرف لها حلا ٠ فهو لا يدري هل يوافق على زواجها أم لا يوافق ، واذا مانع فهل تراه يستطيع السيطرة على الموقف أم لا يستطيع ، وهل تراه يفرح أم يكتئب ٠٠ وهكذا انطلق يسير متظاهرا بقراءة واجهات المحال ومراقبة وجوه العابرين ٠٠ فهنا عمامة وهناك طربوش ، وهذه عربة وتلك دراجة ، وهذا عابس وذا باسم وهذه لحية وذلك شارب ، وثمة مقهى وثمـة مطعم ، ودكان صابون ومخزن خشب ومحل قماش فأحذية فساعات فجبن وزيت وزيتون ، فرائحة تفاح ، فرائحة خبز ، فصوت سوط ، فأرض الطريق ، فطرف البنطلون ، فوجهان فوجوه فوجوه فوجوه ، فوجه عجور افندي ـ بغير أن يعرف اسمه طبعا ـ بظهره المنحني قليلا ، ولحيته البيضاء النامية قليلا ، وخطواته المسرعة كثيرا ، وكانت هذه هي اللحظة نفسها التي اكتشف فيها عجور افندي سبب قرفه ٠٠
والواقع أنه كان هناك أكثر من سبب باعث له على قرفه ، لكنه كان يريد أن يختار واحدا بالذات يراه هو المفسر الحقيقي لحالته النفسية ٠٠ وقد ظن أولا أنه ربما يكون نفاد المرتب ،

فهو في الايام الاخيرة من الشهر ، وهو يعرف مصير المرتب ٠٠ سيكون ما بين الجباز والجزار والبدال وايجار المنزل وبوفيه المصلحة ومصاريف الاولاد ومطالب الزوجة ٠٠ غير أنه أبعد هذا السبب ـ رغم وجوده ـ وفكر فيما وجهه اليه رئيسه الجديد بالامس من كلمات اعتبرها اهانة لكرامته بغير أن يستطيع الرد عليه ٠٠ قال له رئيسه ما نصه : انك مهمل ولا تؤدى واجبك كاملا ٠٠ وقد آذته هذه الكلمات أشد الايذاء ، واعتبر هذا تجاهلا من رئيسه للسنوات الطوال التى أمضاها فى خدمة الحكومة بغير أن يعترض عليه عقاب ولا يقدم اليه انذار ، وفجأة عرف السبب الحقيقى لاشمئزازه ، وكان ذلك أمام مكتبة العرب ، عندما اضطر أن ينحنى فى خط سيره ليتفادى السائر أمامه ـ وهو الاستاذ قدرى ـ ثم يعود فينحنى ليسير فى طريقه مسرعا من جديد ٠

فى هذه اللحظة وقف الاستاذ الطبيب ثم عبر الطريق ، ففى الجانب الآخر كان قد استلفت نظره محل لبيع المصوغات ، وكانت الالوان الفضية والذهبية والزمردية تبدو كأنها منداة ، فوقف يتأملها ، وقدأشاعت هذه الحركة المفاجئة بعض الاضطراب فى سير عجور افندى ، لكن سرعان ما انتظم خطوه ، واختفت مؤقتا قامة الطبيب الفارعة من مجاله البصرى ، وان ظل ظلها عالقا بمجاله الذهنى ٠٠

ولمح الفقاقيع تتصاعد من نرجيلة أحد الجالسين على مقهى ، وهم اثنان أن يتشاجرا ثم عدلا ، ونادى رجل وأجابت امرأة ، واصطدم به طفل وكاد يصطدم بآخر ، وأخذت الطريق تزدحم وحركة السائرين والراكبين تسرع فيها ، ومما لاشك فيه أنه كان هناك فى الطريق أشخاص كثيرون ليسوا أقل أهمية من الموظف الحكومى والاستاذ الطبيب ، غير أنهم ربما كانوا أقل حيرة وأكثر وضوحا فى حل مشاكلهم اليومية ومن بين هؤلاء كان العمال الذاهبون الى مصانعهم ، ومنهم ذلك الصانع النحيف الوجيه الذى فتح لتوه دكانه وكان أول الداخلين فيه هو الأستاذ الطبيب ٠٠

وسأله عن سعر الذهب اليوم ، وفكر لحظة أن يبيع مصوغات زوجه التى توفيت منذ زمن غير قريب ، ثم استنكر هذا الرأى ،

ثم عاد يسأل عن ثمن الاقراط والاساور والخواتم ، وتحير فيما عساه يختار .. فلما خرج كان يحمل فى جيبه سوارين دفع فيهما كل ما كان معه من نقود .. فلقد كان يحب أمهـــا ، وعفاف اليوم شديدة الشبه بأمها ..

ومرقت سيارة ومن خلفها دراجة ، وانبعثت فجأة موسيقى صاخبة من مذياع ما ثم عادت وتلاشت ، ونادى بائع على صحف الصباح ، ووقف عجور افندى وأشعل سيجارة وتأمل لهب الثقاب لحظة ثم سرعان ما أطفأه وعاد يسير ، وهو كلما تذكر تفاهة السبب ـ وهو يمسح احدى عينيه التى تطاير فيها بعض دخان السيجارة فآلمته ـ كلما زاد هذا فى قرفه .. فالمسألة كما بدت له فى ظاهرها بدأت هكذا .. (وهنا حك ظهـره لسبب ما) ففى المساء عندما حان وقت العشاء أحضرت له زوجه بيضا مقليا ، وهو لا يذوق البيض المقلى أبدا ، وصاح فيها مؤنبا : هل تعرفين أنى آكل البيض المقلى ؟ .. وأنت ترى من هذا أنه كان مؤدبا فى غضبه عن كثير من الازواج فى ذلك الوقت غير أنه لم يكتف بهذا بل تظاهر بقذف الصحن ، وكان ينوى ابعاده عنه فحسب اظهارا لسخطه وتعبيرا عنه (وهنا شاهد رجلا ينزلق فى الطريق فانطلق ضاحكا بصوت مسموع) ، غير أن الصحن الملعون ظن أن عجور افندى جاد فى غضـــبه فاندفع يتدحرج من فوق المنضدة على الارض ، وظل يتقلب ويدور محدثا صوتا متكررا مزعجا حتى استقر وقد تناثر ما فيه من البيض والسمن ، وكان عجور افندى جائعا كل الجوع غير أنه لا يستطيع التراجع الآن لا سيما وأن امرأته بدأت تدافع عن نفسها ، وكان هذا هو أفظع ما فى الموضوع ، فلماذا يتاح لها أن تدافع عن نفسها أمامه ولا يتاح له هو الدفاع عن نفسه أمام رئيسه ؟ وهكذا صرخ آمرا أن تصمت ، غير أنها لم تصمت وكان قد تزوجها منذ خمسة وعشرين عاما ، منذ اليوم الذى تسلم فيه عمله تسلمها هى من أبيها ، وتذكر الآن فقط أنه كان قد قرأ فى الصحف أن ثمة حركات نسائية ظهرت فى البلد (وهنا شم رائحة كعك ولمح غبارا يتطاير وراء عربة) غير أنه ما كان يحسب أن أثر هذه الحركات سيصل الى منزله ، فيرى زوجه تثور أمامه وترد على كلماته بمثلها ، وتزعزع مكانته

وهيبته أمام الاولاد الذين رآهم اذ ذاك يتسللون فى خـوف وحذر يراقبون المعركة من بعيد ·· وعندما حان وقت النوم لم يدعها معه على الفراش ، وأغاظه منها أنها لم تبد أى رغبة ···· وكان هذا ـ فيما يبدو له ـ سر قرفه الحقيقى ·

وفجأة وجد نفسه وجها لوجه أمام مصطفى بك رئيسه الجديد وكان شابا فى مقتبل العمر ، جميل الوجه أنيق الهندام شامخ الطلعة ، يصلح أن يكون زوجا ممتازا لكبرى بناته ·· وشوهد عجور افندى وهو يسرع ويسلم منحنيا ثم يشعر بنوع من الحيرة لأنه لا يدرى ماذا يمكنه أن يفعل فى هذا الظرف المفاجيء اكراما لرئيسه ·· وقد سأله مصطفى بك متلطفا عن سبب وجوده فى هذه الطريق ، وكان هذا فى الحق سـؤالا محرجا للغاية ، وعجور افندى ليس حاضر البديهة فيما يبدو ، فكان عليه أن يفكر قليلا ·· حتى سأله مصطفى بك مرة أخرى عن الاولاد وصحتهم ·· وكان من الواضح أنها أسئلة لمجرد التلطف فى الحديث ولا يهتم صاحبها بأية اجابة ، الا أن عجور افندى بحث عن اجابات دقيقة مخلصة ، ورغم أنه لم ينس كلمات الامس الا أن هذا التلطف فى الحديث أثلج صدره وأشاع الغبطة فى روحه وجسده وأزاح عنه مؤقتا ذلك الاحساس بالقرف والهم والشعور بالشيخوخة والنقص ، حتى لقد شوهدت ثمةابتسامة عريضة عالقة بشفتيه عندما انطلق يسير وحده من جديد ··

فى هذه اللحظة ـ وعلى الجانب الآخر من الطريق ـ كان الاستاذ قدرى قد عاد فسبق عجور افندى ، وكانت خطـواته الآن قد انتظمت بعض الشيء وأسرعت قليلا عن ذى قبل ، وفى تفكيره لم يكن قد استقر بعد استقرارا تاما فيما يتعلق بمستقبل عفاف ، وفى جيبه كان يحمل سوارين كمفاجأة وتهنئة ، ثم أصبح تتبعه عسيرا وسط الزحام المتكاثر ، فكان يختفى حينا ويبدو حينا ، ثم أصبح يختفى أحيانا ويظهر لماما ··

وسعل رجل وبصق آخر ، وتدلت الذبائح الحمراء المشوبة بالبياض ، وقد خرجت برتقالات صفراء من عربة تنهب الارض ، ومرت فتاة وأقبلت أخرتان ، فثلاثة رجال فأربعـــة رجال ، والمنازل تقل والحوانيت تتكاثر ، وجانبا الطـريق يزدحمان ويزدحمان ، ثم تمتلىء الطريق نفسها وتزدحم حتى يكاد يقف

المرور ، ويتكاثر الناس ويتجمعون فى شبه دائرة ، ربما هو شروع فى مظاهرة ، أو لعلهم يلتفون حول صبى جريح يتأملون فيه الموت وينزعجون ، وفجأة انطلقت أيديهم بالتصفيق ووجد عجور افندى نفسه أمام قدري وجها لوجه ، وتفرس فيه قليلا ، وتذكر شيئا غامضا أقلقه لحظة ، لعله شيء قريب جدا ولعله شيء بعيد جدا ، ثم عاد يمد قامته عساه يلمح شيئا وسمع بعضهم يقول انه مزاد أوشك أن يبدأ ، ثم سمع آخر يسخف هـذا الرأى ويقول بل هو خطيب يستريح لحظة ليعاود الصياح ، وقال ثالث مؤكدا : بل هو أيها المغفل حاو من الحواه ·· وود عجور افندى أن يتأكد مما يزدحم حوله الناس فى مثل هـذا الوقت من الصباح ، فقد كان يحسب الناس فى مثل هـذا الوقت من النهار وفى مثل هذا اليوم من الاسبوع لا يزالون جميعهم يغطون فى نوم عميق ·· ومد قامته ومد أذنيه ومد عينيه ·· وفجأة أخذت السماء تمطر رذاذا خفيفا ـ فقد نسيت أن أقول أنه كان يوما من طلائع الخريف ـ وقبل أن يعـــرف عجور افندى حقيقة الزحام كان الجمهور قد تفرق مسرعا فلما انجلت الطريق كانت الارض قد ابتلت بللا خفيفا ، والشمس عادت مشرقة اشراقا هينا رفيقا ، والاستاذ الطبيب قد انغمر فى الزحمة الهاربة ··

وفاحت رائحة عطر فرائحة شواء فرائحة عطر ، وأقبلت فتاة فأخرى ، ثم فتى وفتاة ، ثم فتى وفتاتان ، ثم فتيان وفتيات ، ممتلئين صحة وأملا ·· أما هو فكان يحس أنه قد استنفد ، وكان واثقا أن الشيخوخة شاعت فى روحه وجسده ، وانه عبر الطريق من آخرها منذ خمسة وعشرين عاما ، منذ اليوم الذى طلق فيه مدرسته ووجد وظيفته وتزوج ·· منذ ذلك الحين وهو يحس أن حياته كبندول الساعة تتحرك من تلقاء ذاتها ، نفس الحركة مرة كل أربع وعشرين ساعة ·· أما هؤلاء فلما يبدأوا طريقهم فى الحياة بعد ، وهم يستطيعون أن يفاضلوا بين شتى الطرق ويختاروا منها واحدة تلائمهم ، يجدون فيها أحلامهم ، ويعثرون فيها على كنوزهم المخبأة فى نفوسهم ··

ولسنا نعرف ما الذى أغرى محمد افندى عجور على هـذا النوع من التفكير المعقد الحزين ، فهو قد يشيع فى دماثه كسديم

عاطفى أسيان ، ولكنه قلما يتضح له هذا الوضوح ·· لعله رؤيته لرئيسه الشاب ، ولعله مراقبته حقا للفتيان والفتيات الممتلئين صحة ونضارة ، ولعله قرفه مما حدث له بالأمس ، ولعله أن يكون سيره الذى لم يتعوده فى هذه الطريق فى هذا الوقت الحى النابض من النهار ··

وكان ثمة خادم فى الطابق السابع تنظف سجادة على رأس المارين ، وأخرى تدلى بسلتها وتصرخ ، وسائر يقرأ صحيفة ، وآخر يحدق فى الفراغ ، وهذا رأسه صلعاء ، وتلك شعرها مسترسل ، وسيارة بوقها يدوى ، ومذياع قرآنه يعلو ، ورجل يسرع وامرأة تتحدث ، وكلب يجرى وطفل يزعق ، وهذا يحيى وذاك يجيب ، وعجوز أفندى يتذكر أسئلة مصطفى بك ويتساءل حقا عن سبب وجوده فى مثل هذا الوقت فى هذه الطريق ، وأخرج ساعته فاذا هى السابعة والنصف ·· وخشى أن يتهم عقله بضعف ما ، فأصر على أنه كان ثمة سبب واضح لديه حين غادر منزله هذا الصباح ووصل الى الميدان واتجه فى هذا الطريق ·· غير أن حوادث الامس الملعونه ، وغبطته المفاجئة حين التقائه برئيسه الناقم عليه منذ الامس ، ثم هذا التفكير المعقد الحزين ··

كل هذا ضيع منه هدفه ، فوقف وعصر ذهنه يحاول أن يتذكر ، فلما يئس قفل راجعا الى الميدان وهو يتطلع الى ما فى الطريق عساه يكون ذا صلة بما حمله على المجىء هنا فيعينه على التذكر ··

ومر فى طريقه بالعطر ولحظة المطر ومكان الزحمة والذبائح والغبطة والقرف والكعك والمكتبة والدراجة والمذياع وبائع المصوغات والنرجيلة والمذياع والصابون والقماش والساعات والعطر والاحذية والجبن والحلاق والعطر والسيارة والغبار والمطعم وبائع السجائر ــ والحشيش أحيانا ــ ثم الميدان والترامات وزرقة السماء وشرطى المرور وقلقلة العربات وأبواق السيارات ، وانحرف الى الشمال ، واخترق زحام احدى الطرق الكبرى الاخرى ، وانطلق يسير عسى أن يكون هدفه هناك ··



كانت فى الثلاثين من عمرها ، وهو عمر بدأ منــه عظماء كثيرون رسالاتهم ٠٠ اذن فقد زلت عندما كانت فى العشرين من عمرها ، عندما كانت قد غادرت سن المراهقة وأصبحت ذات ارادة وذات جمال ٠٠ وكانت من أسرة من الطبقة الوسطى ، حيث الحدث الجنسى مرتبط بالخطيئة والله والجحيم ، ولما كان الخلاص الوحيد من الجريمة أمامها هو أن تظل مجرمة بقيــة حياتها ، فقد فرت لتقع فى يد سيدة تدير متجرا للاشـــلاء البضة يقصده المحرومون والمعوزون ٠٠ غير أن أخلاق الطبقة الوسطى كانت قد تركت ضميرا عالقا بها ، ظل يزعجهـا فى الليل وفى النهار ٠٠

وقد مرت الايام ومرت الشهور ومرت السنون وضميرها لا يزال عالقا بها ٠٠ واعتادت هذا اللون من الحياة الصريحة العارية

المستخفة ، ورأت من حولها لا يهزأن بشيء مثلما يهزأن بكل من يحاول اقناعهن بفساد حياتهن ، ومع ذلك فقد ظلت تحس أن هذه مرحلة مؤقتة من تجربة حياتها وعليها أن تمر بها ثم تنفصل عنها الى الابد ·· وكان هذا حقا غريبا وشاذا ··

وقد بدأ الامر هكذا ·· كان مندوبو هيئة الامم المتحـدة يهاجمون بعضهم بعضا ، وفي باريس عقد أكبر مؤتمر دولى فى تاريخ السحر ، حيث اشترك مندوبو أربع عشرة دولة نجحوا فى خداع بعضهم بعضا ، فكان الماء يتحول الى خمر ، وكانت تبدو فى الهواء النقود والسجائر وكرات البلياردو وآلات الكمان وكانت المناديل الحريرية تربط نفسها فى عقـد بينما العصى السحرية تمر فى الاجسام ··

وفجأة ظهر الوباء ·· بدأ أولا بعشرة أشخاص كأنما هـو رسالة شخص عظيم : توفى طالب فى الجامعة وسيدة حبلى وطفلان وخمسة فلاحين وصبى عبيط أعرج ·· وكان هـؤلاء هم شهداء الرسالة الجديدة ، بموتهم حملوا الخلاص الى بقية الشعب ·· ظلوا يتقيأون ويتبرزون برازا سائلا أبيض كالارز حتى جفت أمعاؤهم وتثلجت أطرافهم ·· وقد ظن أول الامر أن وفاتهم بالاعراض الواحدة نتيجة للصدفة الخالصة أو هى حوادث تسمم متشابهة ، لكن سرعان ما كشف الطبيب المختص عن الحقيقة التى روعت ملايين السكان ··

وفى الصباح قيل لتلاميذ المدارس أن يعودوا الى منازلهم · وصدر أمر باغلاق الاسواق ، فحملت كل فلاحة دجاجاتها ، وشد الفلاحون رباط بهائمهم الهزيلة المعروضة للبيع وأقفـل الجميع الى قراهم ·· وكف المثقفون عن جدالهم حول معنى الحياة وعدلوا عن رغبتهم فى الموت ، وتملكهم تشبث مجنون بالارض وانفضت الموالد ، وسارعت الحكومة بمنع الاجتماعات العامة ، وخلت دور السينما من روادها ، وأقفرت المطاعم والمقاهى ، وأغلقت الحمامات ومحال بيع البوظة ·· وأصبح كل فرد ما بين يأس وأمل ، يأس أن يصيبه المرض هو دون باقى الناس ، وأمل أن يصيب باقى الناس دونه هو ·· ورأى بعض المتدينين انه أمر أعمار فى لوح القدر ، ليس الوباء سوى وسيلة اليها · فلما انحدرت شمس ذلك اليوم كانت صحف المساء قد أعلنت

أنه صدر الامر بوقف الحج هذا العام .. وهكذا رفض الله محاولتها ..

كانت تعتزم فى كل عام أن تحج لتكفر عن حياتها الملوثة ، وتعود تعرض بضاعة غير جسدها ، غير أنها كانت تعدل فى كل مرة .. وفى هذا العام صامت رمضان ، وقررت السفر ، وأعدت الجواز واشترت التذاكر ، وسافر من قبلها فوج وفوج .. وعندما أوشك أن يقوم حاجز كبير بينها وبين ماضيها ، أدركت أن الله رفض نقودها ومحاولتها ..

وفى اليوم التالى ذكرت الصحف أن الاصابات تسع وعشرون والوفيات سبع ، وفى اليوم الثالث كانت الاصابات أربعا وتسعين والوفيات احدى عشرة ، وفى اليوم الرابع كانت الاصابات مائة وخمسين والوفيات سبعا وعشرين ، وفى اليوم الخامس هرب أحد الملوثين من قريته الى عاصمة القطر الثانية مخبأ فى برميل بسيارة نقل تنقل البضائع ، فما أن وصل هناك حتى ارتمى يتلوى ..

وهكذا أفلت الزمام وأعلن أن القطر كله منطقة موبوءة .. وبدأت المعركة الجبارة بين الناس وعدو صغير منتشر فى الاطعمة والاجساد لكنه لا يرى ، مما أمده بقدرة خارقة على ارعاب الناس وازعاجهم ..

ومنذ أكثر من ألف عام جاء (فى ذيل الروضتين لأبى شامة المقدس الدمشقى) أنه لم يزد نيل مصر واشتد الغلاء والوباء حتى مات أكثر الناس جوعا وأكل بعضهم بعضا ..

وفى الوقت الذى كان الناس يتزاحمون فيه حول مكاتب الصحة يطلبون اللقاح الواقى ، كانت نعمات تستعد للعودة مع أفواج الحجاج الذين لم يقدر لهم أن يروا بيت الله الحرام هذا العام .. لكن أحدا غيرى لم يكن يعلم شيئا عن معنى الحج فى حياة هذه المرأة ، ولا كان ثمة آخر يدرك أن هذه المحاولة ان هى الا رغبة بلورتها سنوات عشر من الذهب والقذارة والدم ..

وفى ضحى اليوم السابع من الشهر الاول للوباء حاول رجل بدين أن يركب أحد القطارات المتجهة الى العاصمة ، فرأى فيه زحمة الناس وتكالبهم على نحو لم يسبق له مثيل ، وأدرك أنه لا يمكنه أن يجد مكانا لشخص واحد فضلا عن أنه يحتل مكان

شخص ونصف شخص ٠٠
وعندئذ وضع اصبعه فى فمه ، ورآه الجميع يتقيأ فهرولوا فى ذعر هامسين أولا ثم صائحين :
ـ مصاب مصاب ٠٠
ولم يكن فيهم بخيل واحد يحرص على مقعده ، ولا قديس يبقى الى جانب الرجل ٠٠ بل تدافعوا جميعهم من العربة وأخلوها كلها له ٠٠ أما البدين فجلس واضعا يده على بطنه كلما بدا له من العربة الاخرى وجه فضولى ينظر ليتحقق أنه ما يزال على قيد الحياة ، فلما وصل المسافرون الجبناء الى المحط النهائى هرولوا الى الضابط المختص ينتقمون من هذا الذى أزعجهم وأخذ منهم مقاعدهم ويبدون له أعمق الاشفاق وأعمق الرثاء ، غير أن البدين سرعان ما خيب اشفاقهم حين أفهم الضابط أنه استغل مقتضى الحال كوسيلة لايجاد مقعد له ، فما كان من كرم الناس الا أن وهبوه عربة كاملة ٠٠
وهكذا شل الرعب الجميع ٠٠
فى ذلك الوقت كنت أنا قد أشرفت على الثالثة والعشرين ، حين كان العالم قد أصبح مهددا بالقنابل الذرية ، وتمت مذابح فى الهند ومجزرة فى اليونان لا تنتهى ، أما مؤتمر السحرة فكان قد انفض ٠٠
فى ذلك الوقت كانت الليمونة تباع بمليمين ٠٠ ثم نشرت احدى الصحف أن عصير الليمون الحمضى يقى من المرض ٠٠ وسرعان ما ارتفع سعر الليمونة الى خمسة مليمات ثم الى سبعة مليمات ثم الى عشرة مليمات ، وأخيرا نفد الليمون من كل مكان وقطف وهو لما يزل أخضر على شجيراته ، وبعد أن كوم كل فى منزله كومة من الليمون عادت احدى الصحف ونشرت أنه قد اتضح عدم دقة هذه المعلومات ، وسرعان ما عاد الليمون الى الظهور ٠٠
وأنا لم أتحدث بعد عن نفسى ٠٠ وهذا أمر لا شك متكلف ، فلئن كان من الانانية أو الفردية أن تجعل نفسك محور الحديث فانه من غير الطبيعى ألا تذكر نفسك أبدا ٠٠
هذا الى أنى كنت صديق نعمات ، بل لعلى أكون حبيبها المفضل ٠٠ فحين زرتها لأول مرة مع صديق لى أعطيتها كل

ما كان معي من نقود ، فمانعت في أول الامر وأبت أن تأخذ الا أجرها ، لكنني أصررت أن تقبل كل ما أعطيتها ، ويبدو أنها تأثرت بذلك كثيرا مما يرجح أنها لم تلق من قبل مثل هـــذا التعبير عن الامتنان ٠٠ أما أنا فلم أبادلها حبها لسبب بسيط ذلك أني متعلق بفتاة أخرى ٠٠ فتاة لست أقابلها ولن أتزوجها ولا أحبها ، لكنني متعلق بها ٠٠

فمنذ السادسة عشرة من عمري حتى العشرين كنا نتبادل الحب أو هكذا كنا نظن ، أربع سنوات كاملة كأنها مدة أمضيتها في وظيفة ما ٠٠ ثم حدثت أزمة ، أزمة سخيفة ، أبعدتها عني ، لكنها لا تزال باقية في حياتي مسيطرة عليها ، تحطم لي كل محاولة أن أعيش سعيدا ٠٠

ومنذ ذلك الوقت وأنا أعرف نعمات ٠٠ قامت لي بأعظم خدمة في الوجود ، فهناك عندها أردت أن أنسى فما نسيت !!

وكانت تعلنني بين حين وآخر برغبتها في الانصراف عن هذا اللون من الحياة (وهو ما لا تقوله أبدا لأحد غيري) ثم أراها تتردد وتعدل ٠٠ ولما كانت تربط هذه الرغبة بالسفر الى بيت الله الحرام ، فانني ما دهشت حين أخبرتني ذات مساء بما أزمعت عليه من سفر ، تعود بعده لتجد عملا بين جيش العمال والعاملات الذي أخذ يملأ المصانع الناشئة هنا وهناك ٠٠

وفكرت أن أتزوجها ، لكن منعتني انعام (وهي الفتاة التي كنت أحبها ، وأنت تلحظ قرب اسمها من اسم نعمات) اذ زارتني في الحلم ، وكانت رقيقة معي كل الرقة ، لطيفة معي كل اللطف ، قبلتني قبلتين : احداهما في جبهتي ، والاخرى على شفتي ، وأذنت لي ــ رغم الفرقة التي بيننا ــ أن أحتضنها قليلا فأحس بدفئها ٠٠ ورغم أنني عندما صحوت حاولت أن أنفـذ ما كنت قد اعتزمته ، الا أن الاثر العاطفي الذي خلقه الحلم كان قويا للغاية : بحيث أنني عندما نمت الليلة التالية تمنيت أن أحلم حلما آخر ٠٠

وفي الطرق والازقة والحارات كان رجال الشرطة يطاردون الباعة المتجولين ، ويقلبون لهم الفطائر والبلح والترمس والحلوى وفصائل الذباب تتطاير أمامهم ، فيهرول الباعة ويختفون عن الانظار من حارة الى حارة ، حتى اذا غادر المكان رجال الشرطة

عادوا وافترشوا الارض كما كانوا يفعلون وعاد الذباب معهم من جديد ..

وفي فجر اليوم الرابع عشر من الشهر الاول للوباء بدأت الطائرات بالقاء الغازات على الاماكن المزدحمة بالذباب ، وفي ضحى ذلك اليوم كان ثلاثون في المائة منه قد اختنق وبقيته تترنح وتعاني سكرات الموت ، فلما كان الغروب أعلن أن ابادته قد تمت ..

ولشد ما دهشت حين رأيتني أمام نعمات .. وكان مبعث الدهشة هو أني سبقتها الى الحج بخيالي .. فرغم أني لم أحج أبدا - وربما لن يتاح لي ذلك - الا أنني استطعت أن أتخيلها بين هذه الزحمة من الحجاج وأتخيل هذا الاثر العظيم الذي يمكن أن يحدثه في امرأة مثلها ما تفعله وما تراه وما تفكر فيه هناك .. غير أني وجدتها أمامي فجأة ، في نفس الوقت الذي كنت أتخيلها فيه على سطح الباخرة ، وفي نفس الوقت الذي كنت أتأمل فيه معنى الحياة ومعنى الموت .. وكان ذلك يوم عيد ميلادي ، يوم أتممت الثالثة والعشرين ، فرأيت أن أحتفل به مع نعمات ..

وفي القرى كان الفقراء يحملون موتاهم على الجمال ثم يذهبون بهم الى الجبل كي يدفنوهم .. لكن المشيعين - كالموتى - لا يعودون ، يبتلعهم الجبل بعدما يتقيأون ويتبرزون بضع ساعات .. وعندما تمر بقية الاحياء في أحياء القرية الضيقة ويلمحون علامة على أحد الابواب المغلقة يدركون أن الوباء قد غزا هذا المكان ولا مكان فيه لانسان ..

وكان المساء قد اقترب . قلت لها :

- تعالي نكفر عن ذنوبنا ، هيا نطهرها ..

قالت :

- كيف ؟..

وتذكرت طريق الحج وأماكنه المقدسة الرهيبة .. قلت :

- نمشي على جسر من جسور النيل ..

فحملقت عجبا .. كانت تعلم أن مصيرنا الذي نحياه أقوى من أن تنتزعنا منه مشية على النيل ، انه ليس مستقلا عن الارض ، فمن هذه الارض تنبعث قيود وعلاقات تجذبنا دائما

نحو مصيرنا الذى نحياه ونحاول الفرار منه ٠٠ هي تعـرض والناس يشترون ، حتى اذا عشنا لحظة معا نسينا قصة البيع والشراء ، هي ترضي هنا أنبل عواطفها التى تئدها أمام بيئتها وأنا أحاول أن أنسى ما لا يمكن نسيانه ٠٠

وأنت اذا مررت بهؤلاء النسوة فى أحـــد أحيائهن وهن منتشرات فيه كالذباب لم تشهد غير الاستهتار الذى يزعجك كانسان مهذب ، فاذا اقتربت منهن وجدت أن الامر لا يعـــدو نوعا من التجارة الجادة التى لا هزل فيها ، فاذا اقتربت أكثر من احداهن عرفت تاريخا مؤلما يخلق فى صلتك بها نوعامن الحنان الذى يشيع بعضا من روح الانسانية فى نظرتك اليها ٠٠

قالت انها تشعر ببعض التوعك ٠٠ وكنا نسير فى طـريق من المدينة شبه مهجور ٠٠ وقالت انها تخاف ، ووضعت يدها على بطنها وما لبثت أن تقيأت ٠٠

لا تنزعج ، سأطمئنك ، لم يكن ما أصابها سوى تقيؤهستيرى وهو نوع من العدوى التى لا تمس الجسد لكنها تصيب الروح ٠ وكان هذا كافيا لالفات نظر رجل الشرطة ، وكان كافيا لأن يولى هاربا فلا يعود الا ومعه ضجة من الشرطة والممرضين ٠٠ وزعمت أنها أختي أو زوجي (لست أذكر تماما) وهكذا وجدنا أنفسنا فى غرفة متسعة بها ف..اش على الارض قيل لنا انهـا المعزل ريثما يعدون لنا مكانا حى المستشفى القريب ٠٠ وكنا وحدنا ٠٠

ولم يأتنا طبيب ٠٠ وكان من المتوقع أن يفصلوا بيننا ، فهى مريضة وأنا ملوث ، وهى امرأة وأنا رجل ٠٠ لكن لم يجرؤ أحد على أن يقترب منا ٠ فقط سمعنا أحدهم يصيح قائلا ان اصابتين حدثتا الليلة بالمدينة : احداهما حيث كنا والاخرى بمستشفى المجاذيب !!

وكنت أحسبنى فى ذلك الوقت ملوثا ، وكنت أحس أننى قوى بما أحمل من مرض ، اننى أخيف بمرضى كل هؤلاءالاصحاء أستطيع أن أقترب منهم فأنشر العدوى بينهم وتتساقط جثثهم كأوراق الخريف ٠٠ وكانت هى وحدها التى لا تخاف ، لأنها المريضة الوحيدة الى جانبى ، ولأنها تحبنى ٠٠

ويبدو أننى نمت وقتا غير قصير ، فعندما فتحت عينى كانت

الظلمة تغمرنا ، وكنت قد أخذت أتساءل عن قيمة اللحظات التي نعيشها لا سيما اذا كان الانسان قد انفصل عن المرأة التي ربط وجوده بوجودها .. وفكرت أن أقوم وأفتح الباب وأنبه الواقف به الى هذه الحقيقة .. لكنني أدركت أنني ملوث ، وانه لن يسمح لي أحد أن أقترب منه لئلا يأخذ مني العدوى ويموت ، فلن يلبث أن يهرب اذا رآني ، وحسنا يفعل ..

وأردت أن أتأملها ، فأشعلت عود ثقاب أضاء وجهها لحظة ، وتراقصت الظلال على جدران الغرفة الخالية المتسعة .. كانت مستيقظة ، وهي مستلقية الى جانبي في ثوبها القاتم الشفاف ، وكانت قد تحسنت كثيرا وعصبت رأسها بمنديل حريري أزرق ولمحت على وجهي علامات كآبة ، وانطفأ النور وعدنا نتنفس في الظلام .. وكان ايمانها بالحياة قد ساعدها على أن تدرك أنها ليست مريضة ، وكنت قد أشرت اليها من قبل أنه قد يكون مجرد تقيؤ هستيري .. وكانت الآن قد تأكدت من صحة ما أقول ، فسمعتها تقول ضاحكة :

ـ لماذا أنت واجم يا أحمد ، هل أصابك الوباء أنت أيضا ؟.

ـ بل أنا مكتئب لأنني أقضي ليلة ميلادي هنا .

ـ بل هيا نحتفل به !!..

ـ كيف ؟

ـ بأن أدغدغك فتضحك !

وانفجرت في قهقهة عالية ، وفجأة صمت ..

ففي ذلك الوقت كان العالم يستعد لحرب جديدة بغير أن يحاول التخلص من آثار الحرب الاخيرة ، وكان كثير من المفكرين قد اقتنعوا بأن الحياة لا مغزى لها ، وكان الفقراء والبغايا يزحمون العالم ، بينما انتشر الوباء يزحف وينشر الموت والرعب بين الجماهير في كل مكان ..

وكان هذا هو سر قوتي ، فلي القدرة أن أستمر في قهقهة عالية ، ولي القدرة أن أصمت فجأة في أي وقت ..


المعذبون في الأرض

عندما ولدت له زوجه طفلته الاولى أطلق عليها اسم ربعة ، فلما ولدت فى المرة الثانية طفلة أخرى ، رغب عن التشاؤم فقال زين ما أعطى ، وهكذا أصبح اسمها زين ·· ثم ما لبثت زوجه أو ولدت له مرة ثالثة ورابعة وخامسة ·· حتى العاشرة ما بين ذكور واناث ··

وكان عبد الصمد واسرته يسكنون قرية من قرى المنيا هى جزيرة وسط النيل فكان عليهم أن يعبروا النيل كلما قصدوا المدينة غربا فى يوم من أيام الثلاثاء حيث يقام السوق فيبيعون بعض ما عندهم ويشترون بعض ما يريدون ·· وكان عليهم كذلك أن يعبروا النيل شرقا كلما قصدوا جبل المقطم شرقا يدفنون فيه موتاهم أو ينقبون بحثا عن الملح أو عن كنز من هذه الكنوز التى تركها لهم قدماؤهم الفراعنة هناك ، كى تصنع المعجزة فى حياة شخص أو شخصين من أهل الجزيرة كل قرن من الزمان ··

وهكذا نشأت زين واختلطت بأطفال القرية وتعفرت بترابها· وقد حدث ذات يوم أن داستها جاموسة وسال الدم منها وظنوا أنها أصيبت بضر عظيم ، ثم تبين أن طرفا من أحد أصابعها قد قطع فحسب ··

وفى سن السادسة أصيبت بقرع خبيث ذهب بشعرها وكان مأساة حياتها حتى بلغت الحادية والعشرين ·· وقد حاول أبواها كل الطرق المستعملة وغير المستعملة لازالة هذا القرع فلم ينجحا وأخذاها الى طبيب المدينة غربا والى العرب فى الجبل شرقا ، واكتوت بالنار ووضعت القطران فوق رأسها لكن ذهبت عبثا كل هذه الجهود ··

وكانت ربعة فتاة المنزل المدللة ، لا تكاد تقوم بشىء من عمل المنزل أو الحقل ·· أما الوالدان فكانا أنانيين مسرفين فى الانانية اذا حدث أن اشتريا لحما فى يوم ما ــ وندر ما يشتريان ــ فانهما يستأثران به من دون أطفالهما فيما عدا ربعه ·· وهما لا يعطيان أطفالهما الا ما بلى من الثياب ، ثياب الام للفتيات ، وثياب الاب للاولاد ·· أما القماش الجديد فهو يفصل لهما أولا ، تفصله زين منذ بلغت الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة ·· ولما كانت الام مكسالا نؤوما ، فان عمل البيت كله ألقى على

كاهل زين ..
كانت تقوم فى الفجر ان شتاء وان صيفا ، وشخير أمها لا يزال يعلو وينخفض ، ثم تحمل جرتها ـ التى كانت صغيرة أول الامر ثم أخذت تكبر كلما كبر جسدها وكبر تحمله لمشاق الدنيا وهمومها ـ وتذهب الى النهر تقابل خادمات العمـدة وتحسر عنها ثيابها حتى فخذيها ، وتعوم الجرة قليلا ثم تملؤها وتعود الى منزلها على مسير ثلث الساعة من النهر لتعاود ملء جرتها من جديد .. ولما ازدادت حاجة المنزل الى الماء جعلت تحمل جرتها وتسوق أمامها حمارا يحمل فوقه جرتين .. ثم لا تلبث بعد عودتها أن توقد الموقد لتعد الشاى الاسود المر ، وتتركه يغلى وهى تحلب العنز أو الجاموسة .. وفى هذه الاثناء يعلو النهار ويستيقظ أهل البيت تباعا وفرادى ، لا يجتمعون للطعام ، بل يأكل كل منهم عندما يريد ما يريد .. هذا يتبلغ بقطعة من « البتاو » يغمسها فى « المش » أو اللبن الخاثر ، وذاك يكتفى بقليل من الشاى مع قليل من اللبن ..
كان على زين أن تنظف المنزل وأن تروى الجاموسة من النهر كل عصر ، وأن ترج اللبن وأن تصنع قوالب اللبن ، حتى اذا ما اجتمع منها عدد كاف قامت ببناء غرفة للاسرة التى تنمو وتزداد .. وكان عليها أن تذهب الى السوق يوم الثلاثاء كى تبيع البيض وتشترى الحناء والمناديل المحلاة بالترتر .. وكان عليها أن تعنى بالاطفال ـ بطعامهم ونظافتهم ونومهم .. وفى كل شهر تقوم بالعبء الاكبر عند عمل الخبز حتى لقد اشتهرت بمهارتها فى ذلك فى القرية كلها .. فكانت تشارك الجارات يوم يخبزن فى مقابل بعض الدقيق تصنعه خبزا لأسرتها ..
وكانت زين تقوم بكل هذا لأنها تعتقد أن شعرها ضاع منها ذات ليلة ، ولن يعود اليها الا فى ليلة أخرى من الليالى القمراء كما أخبرتها بذلك « أم دهب » قابلة القرية الزنجية . لهذا عندما يكتمل القمر بدرا فى كل شهر كانت زين تتطلع فى أمل ويأس الى رأسها ، وتنزع المنديل الذى تخفى به علتها وتتحسس رأسها ، فلا تجد غير البثور وبقايا رائحة الدهان الاخير .. وهكذا امتزج لديها ضوء القمر باحساس انسانى غريب ، هو مزيج عنيف من الامل واليأس .. كانت تتوق الى أن تصحو

ذات ليلة ، وهى راقدة فى ضوء القمر المكتمل فتجد شعرها منسدلا على كتفيها ، غزيرا ناعما .

وكانوا يخصصون لها فراشا لا يقربه أحد غيرها .. وكانت ربعة تأبى أن تمس زين مناديلها الحريرية .. وكانت زين ترتب شعر أختها الناعم المسترسل ، وها هى قد أوشكت أن تتم السادسة عشرة وستزف الى ابن عمها مفتاح ، وقد تدلى القرط الذهبى من أذنيها .. أما هى فكانت تعلم أنها نجسة ، وأن رجلا لا يأبه لها ، وعليها أن تشكر هذه الاسرة لمجرد تحملهم وجودها وهى ترجو أن تكفر عن وجودها البغيض بما تقوم به من خدمة لا تسمع عنها كلمة شكر أو تقدير — فما اشترته بالامس ليس الصنف المطلوب ويجب أن تعيده ، والطعام ليس شهى المذاق ، وهذا الماء الذى جلبته اليوم من النيل ليس كافيا والطفل قد تركته ملقى على الارض والشاى ليس أسود مرا كما يجب أن يكون ..

ولقد بكت زين كثيرا فى وحدتها التى قلما كانت تحصل عليها ، وفكرت كثيرا فى أن تموت ، لولا أن أملا يائسا يداعبها كلما مرت بمنزل العمدة أو كلما قابلت خادماته على البحر يملأن جرارهن ، وهن يتحدثن عن ميهوب ابن العمدة الغرير وعن مغامراته النسائية وهو لما يبلغ الثامنة عشرة ..

كانت تحب فيه عبثه وخشونته .. وكانت تعلم أنه على استعداد ليضم اليه أى جسد نسائى .. فهو فى المدينة لايأنف أن يتصل بشحاذاتها وعاهراتها ، وهو فى القرية لا يتورع عن مغازلة الفتيات الاجيرات وهن يجمعن القطن .. وكان يداعبها الامل أن يقترب منها يوما ، وهى تدرك خطورة هذا المعنى ، كما تعرف استهتار ميهوب بكرامة الناس ، وتعرف طيشه ونزقه ، وانه لن يلبث أن يقص القصة على أصدقائه وغير أصدقائه ..

أما الفجر فما أجمله فى ريفنا المصرى ، وأما الليالى القمراء فما أروعها — وبين الفجر وأعماق الليل يكدح الفلاحون فى أرضهم السوداء منذ أجيال وأجيال ..

وهذه زين قد خرجت الى الحقل وهى فى العشرين ، تتمايل وراءها ضفيرتاها الطويلتان المستعارتان وهم تحلم باللذةالمفقودة

العارمة ٠٠ وكانت الريح شديدة ، والبرد لاذعا والعيـــدان الصغيرة الخضراء ترتجف ، والقمر يتدثر بين السحب ٠٠ أما هى فقد كانت تنتظر بلا يأس ، كما ينتظر كل انسان منا نهايته

وفى ضوء القمر الناعم رأت فرسا آتية ، فاقشعر جسدها اذ أدركت أنه ميهوب ، ودوت فى أعماقها صرخة مرعبة : قرعاء ٠٠ قالها اليوم أخوها لها ، وطالما سمعتها من قبل حتى لكأنهـا أصبحت اسمها : قرعاء ٠٠ قرعاء ٠٠ قرعاء ، وظلت الكلمة تعلو وتتضخم وتتضخم وتعلو حتى رأتها تسبح أمامها فى ضوء القمر ، ثم تدور فى دوائر حلزونية : قرعاء ٠٠ قرعاء ٠ قرعاء ، والدوران يشتد ويشتد ويرتفع ويرتفع فى السـماء صاعدا نحو القمر ـ حتى عبر ميهوب ٠٠ أما القمر فكان لا يزال يرتج كأنما كان يغتسل لتوه فى مياه تضطرب ، ثم أخذ يهدأ قليلا قليلا ٠

فى هذه الليلة الباردة المقمرة هبط القرية رجل من هؤلاء الشعراء المشردين ، يغنى على ربابته ويحمل سره فى حقيبته ٠ حمله القارب الاخير الذى رسا على شاطىء الجزيرة الشرقى عند مغيب الشمس ومطلع البدر من وراء تلال المقطم ٠٠ وقد رآه أهل القرية وهم يعودون مساء الى منازلهم يقودون ماشـــيتهم ويحملون بعض حصادهم٠٠ورووا أنه يضع عمامة بيضاءويرتدى عباءة ملونة مأخوذة أجزاؤها من ألف ثوب وثوب ، وقد هبط أولا ضيفا على العمدة ، حيث استأثر به ثلاثة أيام ، ثم نزل يطوف بالقرية ويعود كل مساء ليبيت فى منزل العمدة ٠٠ وقد لمح زين اثناء تجواله وغنائه ، وعرف علتها وعرض أن يشفيها لقاء مبلغ زهيد من المال لم يكن يستطيع عبد الصمد أن يجده ٠

كان عبد الصمد يؤجر الارض من العمدة ، وكان الايجـار مرتفعا قاسيا لا رحمة فيه ولا مفر منه ، وما يتبقى من ثمن المحصول لا يكاد يكفيه لأن يعيش وأسرته التى تتضخم حتى المحصول الجديد ٠٠ وسرعان ما تتبلع المدينة المحصول ويبتلع العمدة الثمن ٠٠ وقد شك أهلها فى قدرة هذا الرجل عـلى شفائها ، أما هى فكانت تحس أنه لو ذهب بغير أن يحـاول وسيلته فستتعذب عذابا لا يطاق ٠٠ فهى تدرك أن شفاءها سيتم فى محاولة من ألف محاولة ، وستظل تذكر أن هـــذه

ربما كانت فرصتها التى لن تعود الا بعد عشرات السنين ٠٠ لهذا ظلت ثلاث ليال ترقب القمر وهو يتأخر فى صعوده وينقص فى حجمه حتى عرفت وسيلتها الى الشفاء ٠٠ والموت ٠٠

وقد قامت فى اليوم التالى بواجباتها المنزلية باضطراب ، لكن بلا ذلة ولا انكسار ، وسمعت الشتائم والاهانات لكن بلا بكاء ٠٠ وفى المساء سرقت القرط الذهبى الصغير الذى لا تملك أمها سواه فحق أن يكون لها قرط مثل الذى كان لاختها يوم زفافها ٠٠ ثم خرجت فى عصر ذلك اليوم تروى جاموستها كعادتها وتخفى القرط بين ثيابها ، غير أنها لما عادت كانت تحمل معها دهانا ستدهن به رأسها شهرا كاملا ، ثم ينمو شعرها سريعا أسود ناعما غزيرا ٠٠ ومنذ هذه اللحظة اختلط الحلم بالواقع فى حياتها ٠

وفى أحلام المعذبين تتحقق اللذة والتكفير عن هذه اللذة بعجلة وبنفس العنف والقسوة ٠٠ لهذا عندما أتمت الحادية والعشرين كانت قد اقتربت من لحظة خلاصها المروعة ، فنزعت منديلها الكريه ومزقت شعرها المستعار ، وفضحت للناس سرها ، اذ انسدل شعر ناعم رائع طويل ، وبدا وجهها مشرقا وضاء يفيض بالحيوية والحياة والرغبة العربيدة الجامحة ٠٠ وكان القمر قد اكتمل اذ ذاك ٠٠ ولفحت الرياح الباردة عيدان الحقول الغضة ٠٠

فى تلك الليلة أدركت الام أن انسدال شعر ابنتها على هذا النحو المباغت المغرى يحمل معنى خطيرا ٠٠ غير أنها ضلت بحثا عن هذا المعنى ٠٠ لعله أن تتزوج ابنتها فتفقد بذلك شيئا من كسلها الذى ظلت تتمتع به منذ بلغت زين الثالثة عشرة ، ولعله شىء آخر أخطر من هذا ٠٠ آه ، لعله يفتضح سر اختفاء القرط الذهبى فى ليلة باردة كتلك من ليالى الشتاء الماضى ، عندما كان القمر يصاعد متأخرا قليلا وناقصا فى حجمه قليلا ٠٠

وكان قد شاع فى القرية أن زين سرقت قرط أمها الذهبى ، وذهبت الى دار العمدة حيث كان ميهوب والشاعر المتطيب يجلسان فاقتسما جزئى القرط بينهما ، الواحد ليشفيها والآخر كي يصمت ٠٠ وهذا السر كانت زين هى التى أشاعته أولا على حكرش عبيط القرية ٠٠ وما لبث حكرش أن أذاعه على

الحلاق مرزوق ، وهو بدوره نقله الى زوجه ، وهكذا سرى الخبر حتى وصل الليلة ــ وبعد شهر ــ الى منزل عبد الصمد ..

وثارت غريزة الام الاقتصادية وأدركت فجأة بشاعة الفقر الذى تحيا فيه وقيمة القرط الذهبى ، وانهالت ضربا على ابنتها وهى تصيح :

ــ أين قرطى ، أين قرطى ؟..

وزين تنكر وتبكى ، أما الام فلم تعد تأنف من رأس ابنتها ، بل اقتربت وأمسكت بشعرها الطويل الناعم .. ثم شـــدته وشدته حتى غمره ضوء القمر ..

فى تلك الليلة تسللت زين هاربة من منزلها تسعى مكرهة الى منزل أختها ربعة وهى تجفف دموعها .. غير أنها كانت تحس لأول مرة أن هناك أنيسا معها ، يغمر رأسها وكتفيها نورا وحنانا .. فلم تعد تخشى البرد ، ولا الضباع التى دخلت القرية فى عام جفت فيه مياه النيل واحترق الزرع ، والتى يزعمون أنها ترتاد الطريق الواقعة على حدود القرية التى تسير فيها زين الآن ، فهذه الطريق وحدها هى التى تأذن لها أن تمر على منزل العمدة المضىء ، لعل ميهوب أن يلمحها بوجهها المشرق ورغبتها الجامحة ، فيعجب بها وهى تعدو خجلى بغـير أن يعرفها .. ورأت العيدان الصغيرة الخضراء ترتجف ، والقمر يتدثر بين السحب ، وحلمها الكبير يملأ الارض والسماء حتى أنها تسير فوق الهواء .. وفجأة سمعت وقع خطوات فرس مقبلة ..

فى تلك الليلة أشبعت زين رغبة بلورتها سنوات الاحـدى والعشرون ، واذن فقد حق عليها أن تموت .. وكانت أمها قد علمت بالسر ، قاله ميهوب أولا لحكرش عبيط القرية وحكرش قاله لمرزوق حلاقها ، وهذا بدوره نقله لزوجه .. وهكذا سرى الخبر حتى وصل منزل عبد الصمد ..

وقد انتشلت جثة زين من النيل فى احدى الليالى المظلمة ، حين لم يكن هنالك قمر ولا ريح تلفح العيدان الغضة .. ولم يكن لها كفن سوى شعر طويل منسدل فاحم .. أما القمر فقد ظهر من جديد بعد هذا بأيام قلائل ، مكتملا وصامتا ومبتسما .



دفاع منتصف الليل

ـ ١ ـ

كان ذلك عند هبوط المساء الا قليلا ، حين كنت أبحث عن شيء أحك به جسدي ، وكانت الليفة هي حاجتي الحقيقية للخلاص مما أنا فيه ، وأنا أؤجل ذلك من يوم الى يوم ، حتى أدركت أخيرا أن الامر أصبح ضروريا لا مفر منه ..

ولقد صدق حدسي حين هبطت الطريق التي توسمت أنهم يبيعون فيها أمثال هذه الحاجات ، فقد عثرت أخيرا على الليفة الاخيرة في دكان بائع متآكل الانف ، وكانت ليفة كبيرة في

غير نفع ، فهى ممزقة كئيبة ومليئة بالثقوب كأنما أكلتها الفئران .. ولكننى لا أحب الجولان فى الطرق ، وأخشى أن تثير كثرة السؤال شبهة حولى ، كما أنى ما أحب أن أعود من رحلتى فارغ اليدين .. فدفعت الثمن فى غير جدل ، ولاحظت البائع وهو يلفها لى فى كثير من ورق الجرائد فى عجلة وبغير كبير عناية ثم يمد قامته نحوى قليلا ويدسها تحت ابطى ..

فلما خرجت وسرت وجدتنى - وعلى بعد خطوات قلائل - أمام واجهة زجاجية تزدحم خلفها أدوات مختلفة وكثيرة للزينة فبدا لى أن أقف لأسرح فيها البصر .. وكانت زجاجات العطور وألوان الصابون وأرقام الاسعار تنتشر وتنتصب وتستلقى ، والى جانبى معطف من الفراء يطل منه وجه حسناء وتنبعث منه رائحة نفاذة ، وشاب يحادثها وهما يتصنعان تأمل العطـور والصابون والاسعار ثم يلتفتان يمنه ويسرة كأنما فى حذر ، فلما دلفا داخل الدكان أحسست أن شيئا يشدنى بخيوط لزجة نحوه كأنه المادة الكريهة المتراكمة على جسدى .. ولم أدرك ذلك الشيء فى أول الأمر ، لكن حين استدرت لأعبر الطريق وسط زحمة السيارات والناس كنت قد امتلأت رغبة عنيفة فى الاختفاء ، فأسرعت نحو طريق يهدأ فيه النور قليلا وتهدأ فيه الحركة كثيرا ، ولما أصبحت على مبعدة من هذين الشخصين استدرت خلفى فجأة ، وكان الطريق يكاد يكون خاليا ، الا أنى كنت موقنا أن ثمة عينين لزجتين تنتظراننى فى مكان ما وتتعقبان طريقى لسبب ما ..

فانحنيت نحو أحد الشوارع الخلفية ، وكانت اللفافة تعوق حركتى وهى تحت ابطى ، فنقلتها الى يدى اليمنى ، وهكذا أصبحت أكثر حرية .. ثم أصبحت أكثر انحناء وأسرع مشيا وأنا أخطو فى حذر الى جانب المنازل الضيقة المتراكمة المعتمة ، باحثا عن طريقة للفرار .. غير أن طريقى الضيق سرعان ما أفضى بى الى آخر متسع ، يضج بالنور الباهر والحركة والناس والعطور ، وينعكس الوهج على عينى ويملأ العطـر أنفى ، وأحسست بجسدى يخوض فى قطع اللحم المتحركة المسرعة المتعطرة ، وأدركت أية سهولة يجدها فى مهمتهم من يقتفـون أثرى حين ينتشرون فى هذه الزحمة الكبيرة المتسعة ، وهكذا

أشرت الى سيارة من سيارات الاجرة ، فلما انحنى بها سائقها نحوى لمحته يتردد قليلا ، وحين وقفت سيارته أمامى تماما أخذ يفحصنى بريبة وينظر الى اللفافة فى يدى ، فأدركت أن ثمة ما يقلقه مثلى ، وثمة ما يقلقه منى ، وفكرت أن أفتحها له وأريه أن ما بداخلها ليس سوى ليفة مما يستحم بها الناس ، غير أنه لم يكن ثمة مجال للنقاش ، فلوحت له بحافظتى ، وفى لحظة واحدة كنت قد أغلقت بابها على نفسى وجلست وحيدا وأمامى سائقى الاسود ..

وكان عليه أن يتجه الى مكان ما .. وكان هذا غريبا وضروريا وصعبا للغاية .. فأين يمكن أن أختفى فى غير هذه السيارة ؟ ولكن السيارة كانت منخفضة للغاية وجسدى منحنيا فى داخلها كأنما أتأهب للصلاة بغير أن أصلى .. ولقد كرر السائق سؤاله عن الجهة التى أقصدها وهو يلمحنى فى مرآته التى أمامه منبعجا الى هذا الحد الفظيع فى سيارته الصغيرة الخانقة .. فلما عبرنا طريقين مزدحمين وتأهبنا للانحناء فى طريق ثالث أحسست السيارة ترتج فجأة كأنما تزلزلت الارض تحتها ، وسمعت صوتا لزعجا ، صوتا غير انسانى ينبعث من أسفل سيارتى . ولمحت رأس السائق كأنما تتأرجح فى الهواء ، بينما اصطدم جانب السيارة بشدة فى ذراعى اليمنى حتى لقد حسبته قد أصبح كتلة خالصة من دم متجمد ، فلما أطللت من زجاج النافذة المرضوض وجدت ما يشبه بقايا رجل كأنما أجبر على ان يزحف بنصفه الاسفل تحت عجلات السيارة ، والدم ينزف من ذراعه اليمنى ، والقوم يتجمعون ويتفرجون وينزعجون . وخيل لى ان ذراعى أنا أيضا ـ وبغير حق ـ تقطر دما . فأمسكتها بيدى الاخرى وأنا أضغط اللفافة بينهما . وكان على أن أجد مخرجا ، وأناأنظر فى عينى سائقى ، وهو مشغول بالاجابة على غضب الجماهير التى تزاحمت حتى أصبح مجرد انتسابى الى السيارة شيئا خطرا للغاية .. وهكذا كان على أن أتخلى عن سائقى فى هذه اللحظة الحرجة من حياته لئلا يكتشفنى أحد الذين يتعقبوننى ويجدون الفرصة ملائمة لهم ، فيشركوننى فى اتهام لا يد لى فيه .. وهكذا حملت لفافتى وتسللت من السيارة وأنا أحس ارتجاجا فى ذراعى حيا ومؤلما وفظيعا للغاية .. وتركت سائقى

وحيدا وله فى عنقى بضعة قروش لم أدفعها له ، واتجاه لم أخبره عنه ، ومعونة ما قدمتها له ، ونظرات الذعر فى عينيه لا تمحى من عينى ..

وكان على ألا أستسلم وألا أسلم أبدا لمطاردى .. لهذا عندما وجدتنى أمام باب للسينما وفى مقابل الجمهور المزدحم تماما ، عرجت ناحية النافذة الحديدية المربعة ، حيث جلست عجوز مصبوغة الالوان تقضم أظافرها وتتأملها فى سرعة وقلق ، فانحنيت واشتريت منها تذكرة بغير أن أعرف أى الافلام سأرى ولا من ذا الذى سيجلس على المقعد التالى بجوارى .. وحين انحنيت وأنا داخل من الباب المنخفض لمحت قاطع التذاكر يهمس شيئا فى أذن زميله ، ولا ريب أن اللفافة أثارت شيئا من ريبة فى نفسيهما ، مما أحزننى حزنا شديدا ، لأنى كنت واثقا أنه اذا قدر لأحد ممن يقتفون اثرى أن يسألهما عنى ، فلاشك أنهما يستطيعان تذكرى ويدلانه على رقم مقعدى ..

وكان الفيلم قد بدأ وأنا داخل على أطراف أصابعى ، والاشياء تبرز قليلا قليلا من العماء التام الذى واجهنى حين دخولى .. وحين أصبحت أكثر ألفة مع العتمة لمحت سقف القاعة يكاد ينحنى فوق الناس وقد ازدحموا ازدحاما لا مثيل له كأنهم مذعورون يلجأون من غارة .. وقد حشرت بين رجلين عن يمينى يتحدثان بصوت خفيض كأنما يقلقهما أمر ، وأحدهما دائم التمخط ، وسيدة عن يسارى تحك ذراعها وهى تهمس شيئا فى أذن زوجها على ما يبدو ، مما أغرانى لحظة أن أحك أنا أيضا ظهرى المتلبد بالعرق ، ولكنى ما كنت لأجرؤ على ذلك لئلا ألفت الانظار وأبعث الاشمئزاز من حولى .. وكان فى همسهما شىء من كآبة كأنما انتزع ابن بالامس منهما .. أما وجودى المفاجىء فيبدو أنه قد أثار حولى شيئا من التأفف لأننى أحدثت شيئا من ضجة وقطعت عليهم صمتهم وانصاتهم كأنما أزيز الطائرات فوقهم .. ولا شك أن الجالس خلفى كان سىء الحظ تماما ، فقد سمعته يبدى بعض التبرم ، ويهمهم بكلام غير مفهوم راجيا أن يصلنى منه شىء ، فقد كان يبدو أنه قصير القامة وعليه أن يميل ان يمينا وان يسارا اذا حرص ألا يفوته انتحار أحد أبطال القصة ، ولقد انتحر البطل فعلا ، ولكنه لم

يكن البطل الرئيسى بطبيعة الامر ، الواقع أن هذا كان البداية فقط ‥ وكان مقعدى منبعجا الى الامام قليلا بحيث أكاد أنكفىء على وجهى ، فى أحد جانبيه انخفاض شديد ، وحين حاولت أن أعدل من جلستى المضنية سرت طقطقات فى المقعد وانتشرت حتى آذت القوم من حولى وأحسستها تسرى فى أسنانى ، فآثرت أن أظل ساكنا لا ألتفت يمنة ولا يسرة منحنيا الى الامام متشبثا حتى النهاية بمسندى مقعدى ‥ وبينما كانت السيدة تحك الآن فخذها بأظافرها الطويلة المصبوغة وبصوت خشن مسموع كان البطل الحقيقى يطبع قبلة على شفتى حسناء تصاحبهما موسيقى عاطفية حالمة ‥ وفجأة وعلى الشاشة ، بدأ ضجيج موسيقى كتفجر القنابل ، والسيدة الى جانبى ما تنفك تحك ساقها اليمنى ، ثم تمسك منديلا به تجفف دمعتين ، فلا ريب أن البطل كان يستحق كثيرا من الرثاء ، بحيث لم أستطع أنا أيضا أن أمنع عن نفسى احساسا فجائيا بالكآبة ‥ فلما لمحت زوجها يشاركها دموعها أدركت أن شيئا هنا – مريرا كئيبا – يمس حياتهما ‥

غير أن هذا لم يكن كل شىء ، فقد كانت النهاية السعيدة مقبلة بلا ريب ، فرغم هذا الخطر الحقيقى الماثل ، ورغم هذه الكآبة الضرورية الفجائية ، فقد كان يملؤنى ايمان أستمده من كثرة الافلام التى رأيتها من قبل أن هذا ليس الا السبيل الى الاحساس بالنصر الحقيقى السعيد ‥ وهكذا سرعان ما انشرحت الاسارير – التى اكتأبت مدى ثمانين ثانية كاملة – ثم ضجت القاعة بتصفيق متقطع أجوف ، وقهقهات منبعثة من أماكن بعيدة ومجهولة ، والرجل ماض يحدث صديقه حديثا هاما ، أكثر أهمية عما كان عليه من قبل ، بحيث مال تماما على أذنه وأصبح خفيضا ومتصلا وجديا ‥

وكان يبدو أن البطل يبحث الآن عن حسنائه لقبلها القبلة التقليدية الختامية على ما أعتقد ، أو لعله سيبدأ معها دورا جديدا من أدوار القصة ، غير أن صوت الاظافر الخشن عن يسارى ، وحركة الرجل القصير القلقة من خلفى ، وتوقعى وجود شخص أو أشخاص حولى ممن يبحثون عنى ، وتمخط الرجل عن يمينى ثم مقعدى المنحنى المتكسر كأنما سيهبط بى نحو الارض فى كل

لحظة ، كل ذلك جعل المدة التي عشتها في هذا المكان كافية تماما والعتمة والانفاس الحارة والصمت والتوقع ·· جعلت مغادرتي لهذا المكان حاجة ضرورية وجدية للغاية ··

ـ ٢ ـ

فلما خرجت أهرول قبل أن تفرز السينما جمهورها ، كانت الطرق قد ازدادت اظلاما ، والناس يمشون في حذر فرادى بجوار الحوائط كأنما سيلتقون بفاجع عند نهاية الطريق ، أوهم يتدحرجون على حافة الارصفة تماما كأنما يعدون خطواتهم ، وقد وجدتني أسير خلف رجل أعرج وأنا أعد خطواتي أيضا كأنما أقيس بها الطريق ، وكان الاعرج يهرول وقد جذبني خلفه وفي دائرته ، بحيث حرصت ـ وبغير ان أحرص ـ على ان أبقي المسافة بيننا بلا زيادة ولا نقصان ، فاضطررت أن أهرول مثله ، ولما تنبهت الى ذلك أشعت الاضطراب عامدا في سيري ، وأسرعت قليلا في خطوي ، فقد خشيت ان يحسبني الرجل أني أتتبعه ، وما كنت أحب ان أعرضه لمثل هذا الاحساس المحير الخانق ، فعبرته ومضيت أسير أمامه حتى أثبت له حسن نيتي ، وان الأمر كان مجردصدفة خالصة وليس ثمةخطة مبيتة على الاطلاق وهكذا رضيت لحظة عن نفسي لاني قد أكون أزحت عنه احساسا لا شك انه لا زمه لحظة ، فها انا الان أسير أمامه وها هوذا يخب ورائي مرتفعا ومنخفضا بأستمرار ، وهاهي ذي المسافة بيننا تبتعد حتى لنكاد نفترق ·

وكانت اللفافة ما تزال في يدي ، وقد ضمرت وتهلهل بعض ورقها لقبضتي المتشبثة بها ، الا أنها أصبحت مبعثا حقيقيا للريبة والخطر ، فان أحدا لا يمكن ان يدرك أبدا ـ وعلى وجه يقيني ـ ما بداخلها ، فهي تثير مسائرين معي شتى الظنون ، حتى لقد فكرت أكثر من مرة ان أتخلى عنها والقي بها في أقرب زاوية · الا ان ذلك كان أكثر خطرا بالنسبة لي : لئلا تستحيل ريبة العابر الى يقين ، ويدرك ان شيئا خطرا وفظيعا حقا بها ، مما يسبب لي مضايقات لا نهاية لها ،وكنت أكافح كفاحا هائلا حتى اقتنع أخيرا لحظات معدودات ـ ان احدا لا يهتم بما في يدي وهكذا كنت بين شعورين متناقضين يتبادلانني الواحد بعد

الآخر ، كأنهما يدان متوحشتان تلطمانني على وجهي بالتناوب ·
فكنت أرى الناس ينظرون ــ ولا ينظرون ــ الى اللفافة ·

فلما أنزلقت في شوارع أكثر اظلاما ، كنت أسمع بين حين وآخر قهقهات وهمسات تنبعث من زوايا ومنحنيات مجهولة · وكنت أخشى دائما ان يصلهم وقع اقدامي فيحسبونني سأفاجئهم لاستجوبهم ، فافسد عليهم ــ وبمجرد هذا الشك الذي يصيبهم ــ لحظة من حياتهم · لهذا كنت أتعمد أن أضرب بقدمي الارض ، وبصوت واضح مسموع ، حتى أعطيهم المهلة الكافية لتدبير أمورهم · ولكن ما ان بدالي أحدب متآكل الوجه ،يدخن سيجارا على مهل وبطء عند بدء الطريق المفضي الى الميدان التالي ، حتى وجدتني أنكمش وأسرع وأخفف من وقع قدمي ، حتى لقد نظر الي في ارتياب ، وصعد بصره نحوي ، مما زاد شكي أنه قديكون في أثري أو في أثر آخرين · فها هوذا شخص لا يخاف وقع أقدام في الليل ، وفي مثل هذه المدينة المتسعة الكئيبة ، ويدخن سيجاره بهدوء ، وينظر الى فاحصا ، حتى اذا ما استقر بصره على اللفافة أحسست أنني أحمل في يدي خطيئة ملموسة وحقيقة يستطيع ــ اذا شاء ــ ان يدينني بها · وهكذا عشت ثلاثين ثانية فقط شخصا يقتفي الناس · ثم سرعان ماأصبحت موضوع ذلك الاقتفاء ·

وكان علي ان أجتاز ميدانا صغيرا قبل ان أصل الى الطريق النهائي ·· فسلكت طرقا كانت قد نصبت فيه مراجيح قلائل متفرقة ومهجورة غمرها صمت ووجوم·ورأيت علىضوء المصابيح الخافتة ظلي الطويل ينعكس على أرض الميدان المغطى بالحشائش الجافة والتراب ، حتى يصل الى ما وراء المراجيح · وثمة عابرون قلائل يتهامسون ويتلفتون ، والاشجار الساكنة تلقي ظلالها كأنما في تراخ وملل · ولم يكن امامي ان اختار ، فقد كانت الظلمة هي ملجأي الوحيد ، الظلمة التي يغور في نهايتها منزلي قابعا ومستكينا للفجيعة التالية ·· فمضيت أتدحرج وأصوات القوم تتقهقر من أذني شيئا فشيئا أمام نباح الكلاب المخشوشن الجاف وهو يرتفع ويندلح ، وكان هذا علامة على اقترابي من منزلي · فلما سمعت صوت الكلب الاسود الضخم على السطح التالي لمنزلي ينطلق أجوف منخوبا في الظلمة أدركت انني وجها

لوجه أمام باب بيتي ٠ وترامى الى سمعي وقع اقدام بعيدة ،
فلما تلفت لمحت ما يشبه الظل المتكور البعيد ، ما ان رآني حتى
انحنى نحو الارض كأنما يبحث عن شيء مجهول ، فتفرست
أبحث لعل أحدا يتصنع التنزه حول جدران بيتي ، أو لعل الظل
ان يقترب متصنعا السؤال عن طريق أجهله ٠

وكنت أعلم ان خادمتي « نور » لا بد ان تكون قد نامت منذ
زمن بعيد ، فها هي ذي قد أطفأت أنوار المنزل جميعه ، وهي ما
تعودت مني المجيء في مثل هذه الساعة المتأخرة من الليل ، ولولا
مرضها لكانت قد ذهبت واشترت الليفة بنفسها ، وكنت أحب
الا ازعجها ، وكنت ادرك اني سأزعجها ، وذلك عند محاولتي
فتح الباب في مثل هذه الساعة من الليل ، فهي ـ مثلي ـ رقيقة
حساسة ، تتوجس خيفة من كل طارق في الليل ، فهي لن تسمع
الحركة الحذرة للمفتاح في الباب حتى تهب مذعورة من نومها ،
وتزدحم رأسها بخليط رائع ـ أنا آلفه تماما ـ من الاوهام
والحقائق ، وستكون الحركة الخافتة الحذرة هي أقرب الى حركة
الغريب المتلصص منها الى حركةصاحب البيت المطمئن،وستعاني
لحظة أنتظار واستسلام هائلة كالقضاء ٠ لهذا بدا لي ان أدخل
البيت في حركة مسموعة مطمئنة ٠ غير ان هذا أيضا لم يكن
أقل خطرا من المحاولة السابقة ٠ وفكرت أخيرا الا أدخل على
الاطلاق وانه من الخير لي ولها ان افضل البقاء خارج بيتي ، غير
ان هذا التفكير لم يستمر أكثر من عشرين ثانية ٠ فقد كانت
هناك قلقلات بطيئة خفية تشرئب في الليل حولي ، لا يخفيها
تماما نباح الكلب الاسود الضخم وانقياد بقية الكلاب له ، فلا
أنا أعرف مكانها بوضوح ولا هي تختفي تحت ستار هذا العواء
المتصل المستديم ٠ وكان نباح الكلب قد ارتفع واتجه نحوي ـ
ومعه جوقة الكلاب الاخرى ـ متصلا ومؤلما عن ذي قبل ، بحيث
لا بد وأن يثير ريبة السكان في وجود غريب يتلصص قريبا
من بيوتهم ٠٠ وهكذا اتضح لي أن محاولة البقاء خارجا ان هي
الا محاولة خيالية ليس من سبيل الى تنفيذها ٠ لهذا جمعت
أطراف شجاعتي وأولجت مفتاحي في الباب فانفتح على الاثر ،
ودخلت وأنا أتلمس الضوء بيد وأقفل بيد ، في بطء وانصات ٠

وأنصت ٠٠ فسمعت مواء قطتي ممطوطا ومبحوحا كأنه

نواح ٠فقلت لا شك أنها جوعانة ،وأن خادمتي المريضة السمراء ذات العين الواحدة قد نامت بغير ان تطعمها لما ألم بها من تعب هذا النهار ٠

فما أن أضأت النور حتي وضعت اللفافة على المنضـــدة ، وأسرعت أنزع الورق ، ورقة ورقة ، بغير أن أصل الا الى فراغ ! فلا شك أن الليفة ـ وا أسفاه ـ قد سقطت مني أثناء هـــذه المطاردة المضنية ٠٠ وفكرت أين يمكن أن تكون قد سقطت ٠ في السيارة أم في السينما أم في الطريق حين نظر الاحدب في ريبة نحوي ؟٠ ولم أستطع أن أفهم شيئا ، وما كان يمكن لي أن أتذكر أو أن أفهم ٠٠ لقد كنت أحس بكتلتها داخل الورق حين اشتريتها وكذلك حين وقفتي أمام الواجهة الزجاجية ٠٠ لكن متى بدأت أفقد الاحساس بكتلتها ؟ ليس ثمة سبيل الى معرفة ذلك أبدا ، هذا اللغز مجهول الى الابد ٠٠

لقد كنت أمني النفس بحمام رائع هذه الليلة ، حتى أتخلص من هذا العرق الذي يتسرب ، متلكئا فوق جسدي ، ويزحف في خطوط متعرجة من منابع تنضح باستمرار وبلا انقطاع ، وحتى أنام ـ لأول مرة منذ ليال ـ في سعادة عميقة ٠٠ فأنا شخص عندما ينسكب الماء المتدفق أحس احساسات عظيمـة رائعة ، وأقوم بمشروعات ضخمة وحقيقية ، وتتفتح أمامي كل معاني الحياة المقدسة ، وأتشبث بالارض وبالانسان ، وأحس أنني كائن عظيم وسعيد ٠٠ فهنا ، وفي الحمام ، أدع الماء ينهمر فوقي حتي يتشربه شعري وعيناي وكل مسام بدني ، ويظل يعلو في داخلي احساس سماوي يرتفع شيئا فشيئا وأنا أصيح وأغني وأقفز ، حتى أصل الى قمة فيها تقترن العظمة بالسعادة كأنما لأول مرة ولآخر مرة ٠٠ وكانت هـــــذه هي حاجتي الحقيقية الى الليفة في حياتي ٠٠

فألقيت نظرة جد آسفة على هذا اورق الكثير الفارغ الراقد فوق المنضدة بلا منفعة ، وعلى هذا الجهد الضائع الذي بذلته مخلصا طوال هذه الرحلة الشاقة المضنية ٠٠ وأدركت أنني أمام قوى تسلبني كل شيء ، وتفقدني في عراكي معها كل شيء حتى الليفة التي كنت أحلم بما ستنعم به على من حمام رائع وسعادة مطهرة ٠٠ وأدركت أنني في معركة غير شريفة ، ولكن

على ألا أيأس ، ولا ألقى أسلحتي أبدا ، وأن أستعد للدفاع عن نفسي ، وأن أدرك الخطر المقبل ٠

وكان نواء القطة ما يزال ينوح في جنبات البيت ، ولم أكن أعرف أين يمكن أن يكون طعامها ، فذهبت نحو « نور » علها تكون مستلقية مستيقظة متعبة ، لكنني وجدتها نائمة ، نوما عميقا وبلا قلق ، فلما أصبحت أكثر اقترابا منهـا لأتأكد من ذلك ، لفحتني أنفاسها المنتظمة على وجهها ، وثمة عرق كريه ـ أكثر كرها من عرقي فابتعدت عنها ٠٠ ثم اتجهت الى المطبخ أبحث للقطة عن طعام ٠٠

وانحدرت نحو المطبخ أتلمس الضوء فلما أضأته لمحت على المنضدة طبقا فيه ما يشبه الجبن وخطوطا هندسيةمن النمل تذهب وتجيء منها واليها ، فأشعت الاضطراب في هذه الخطوط بنفخة من فمي حتى أبعدتها عن الطبق قليلا ثم قلت : ها هو ذا قد وجدت لك أيتها القطة المسكينة ما تتبلغين به فتواصلين اطعام صغارك حتى الصباح ٠٠ غير أني لاحظت أن قطعة الجبن تموج بالدود خلالها وحواليها وينتشر منها ويقفز في اتجاهات مختلفه لا معقولة ٠٠ وحاولت عبثا أن أغري بها القطة فلا شك أنهـا تعرف مكانها وتأنف الاقتراب منها ، وها هي ذي تعاود المواء وتتشمم زوايا المطبخ وأثداؤها المدلاة تكاد تلمس الارض ٠٠

فلما خرجت من المطبخ أدركت أن نوافـــذ بيتي لا تزال مفتوحة وكنت قد لاحظت ذلك منذ دخولي ، وكانت النـــافذة المفتوحة تثير في قلقا خافتا ظللت أقاومه وأقاومه حتى اتضح واتضح ، فقد كانت النوافذ منخفضة بحيث يمكن للعابر في ظلمة الطريق أن يراني وأنا مغمور في النور بغير أن أراه ٠٠ وكانت بها قضبان حديدية تمنع اللصوص ، وشباك سلكية تمنع الحشرات التي قد تسعى خارجا في الليل ، ولكنها ـ ما دامت مفتوحة ـ تبيح للنظرات الخارجية أن تنفذ الى داخل بيتي حين يغمره النور تتأمل ما فيه من أثاث وما فيه من حـركات وهمسات ٠٠ وكانت نافذة الردهة أمامي مفتوحة على مصراعيها وخيل لي ـ وربما بغير حق ـ أن ثمة خيالا قد مر ، فأسرعت

أطفىء النور حتى يخفينى عنه الظلام وتضل عنى عيناه ، فلما انطفأ النور رأيت الطريق الآن من خلف نافذتى الحـــديدية مغمورا فى ضوء لا هو بالعتمة ولا هو بالنور ، وكان كل شىء ساكنا كأنما الحركة التى سمعتها قد ربضت تتحفز حتى أضىء النور من جديد •• وكافحت كفاحا هائلا وحقيقيا وأنا أتجه نحو مفتاح النور لأضىء الردهة من جديد ، ولكن الكلب كان دائم النباح ، والقلقلات تنبعث من خلف نافذتى ، حتى مرت دقيقة ولعلها عشرون ، وكانت هذه نهاية طاقتى الانسانية ، فاتجهت نحو النافذة وأغلقت بحذر نصفها الخشبى على أن أخفى جسدى فى المكان الذى يحميه هذا النصف من الغـــرفة ، وكافحت من جديد وأنا أوجه نظرى ما بين حين وآخـر الى النصف المفتوح فاذا حولت بصرى عنه أرهفت أذنى نحوه •• ومرت ثلاثون ثانية ثم قمت أغلق نصفها الآخر وأنا أنصت لما عسى أن يكون خلفها متســائلا عما اذا كان هنالك من رأى حركاتى وهواجسى ، وما اذا لم يكن قد ارتاب فى لمجرد هذه الحركات وهذه الهواجس •• لقد أغلقت الآن النافذة ووضعت بينى وبينه حاجزا يمنعه من العمل فى الظلام والتستر فيه ، فاذا كان ثمة من يتتبعنى فليطرق الباب وليواجهنى فى نور بيتى وليحدد لى شكله وصوته ومهمته فهذا خير من تحركه فى الظلمة خارج بيتى كأنه هاجس شيطانى أعرفه ولا أعرفه كأنه قريب جدا منى وبعيد جدا عنى ، كأنه موجود ولا موجود •• وهنالك ذلك الكلب الاسود الضخم يعلو نباحه ويشتد كأنما هناك من يزمعون اقتحام بيتى فى كل لحظة أو كأنما هناك آلاف المارة الغرباء يسعون ذهابا وجيئة فى حارتنا المتواضعة هذه الليلة ••

ـ ٣ ـ

وسمعت طرقا ناعما على الباب كأنه وقع حوافر الدواب فى ليالى الحصاد أو كأنه تساقط المطر فى أوائل الخريف أو كأنه تكسر أحطاب جافة تحت أرجل حيوان ، فوجف قلبى ، فقد كان هذا هو ما توقعته تماما ، ثم عاد الطرق من جديد شديدا

ومتعاليا ومغمورا في الظلام كأنه أحجار يلقيها أطفال على شجرة النخيل أو كأنه أظافر كلب تبحث عن عظمة بين التراب أو كأنه الريح تصفق حطام منزل خرب ٠٠ وعاد الطرق يشتد حتى اهتزت له جدران المنزل وتململت « نور » في فراشها فأدركت أنه لا يجب أن أتأخر أكثر من ذلك وأن الطارق يريدني جديا أن أسرع اليه فليس على الا أن أفتح الباب ثم أكون على أهبة الاستعداد ٠٠

فلما فتحت الباب وجدتني أمام ذلك الاحدب البشع الذي عبرته في الطريق منذ لحظات ثم برز وراءه من الظلمة شخص أنيق الهندام رائع الوجه حتى لقد حسبته في أول الامر حسناء يصطحبها الاحدب ، وكانا يرتديان ثياب السهرة السوداء ٠٠ ودخلا بلا استئذان وانحرفا ناحية المخدع فهما ـ كما يبدو ـ يعرفان الطريق ٠٠ وكان الطرق قد أزعج « نور » فرأيتها تفتح عينيها ، الا أنها ما لمحت الاحدب بوجهه المتآكل حتى أغلقت أجفانها من جديد ، وشدت على وجهها الغطاء بحيث ظهرت أصابع قدميها ، فلما حاولت الدخول وقف الرشيق الى جانبي يمنعني ويقول لي موضحا أن تحقيقا سيجرى معي وبشأني هذه الليلة وهما يبحثان الآن عن أدلة الاتهام ٠٠

واتجه الاحدب نحو الدولاب يقلب فيه ملابسي ، ثم اتجه نحو صندوق في زاوية سفلية منه قد علاه التراب وكنت قد نسيت ماذا وضعت فيه ٠٠ فلما اقترب منه أخذ ينفي عنه التراب ٠٠ تذكرت ما به وعراني وجوم ثم ضحكة خافتة أنبئني عليها الرشيق بنظرة منه ٠٠ ورأيته يفض الرسائل القديمة التي جمعتها أيام كان لي حب وأيام كانت لي صداقات ، ثم مضى يقرؤها واحدة واحدة ، وكنت قد حرصت أن أضعها بعيدا ـ حتى عن نفسي ـ في مثل هذا المكان ، وحتى كدت أنسى أمرها تماما ، ولو اني تذكرتها أخيرا لأحرقتها فيما أحرقت من صور وذكريات ما كنت لأطمئن الى عدم وصول كائن اليها ٠٠ وهكذا قدر لي أن أرى رجلا أحدب متآكل الوجه يقرأ قبل منتصف الليل أعز ذكرياتي ويفض الاسرار التي تكون مقومات حياتي والتي ذخر بها شبابي ، والتي حرصت على أن تستمد قداستها من علاقتها الصامتة القائمة بينها وبين نفسي ٠٠ وكان

الاحدب يبحث حينا فى دقة ، ثم يبدو أن نباح الكلب المستمر
المبتسم يضايقه فتضيق عيناه وينظر نحوى ثم يعاود القراءة
من جديد ، وكان عجزى هو أنى لم أستطع أن أشاركه ولا أن
أفهم التيارات الخفية التى تعتمل فيه وهو يقرأ رسالاتى القديمة
العزيزة ، ثم اتجه نحو « نور » ـ بعدما أدرك عبث قراءته ـ
وتأمل فيها قليلا ، وخشيت أن تصاب المسكينة بسوء ، فقد
أزاح الغطاء عنها ، ولا ريب أن المسكينة كانت تقشعر الآن ،
فقد انحنى ـ حتى أصبح منبعجا كنصف الكرة ـ
وأدركت أى فزع يتملكها ، وأنا ما أستطيع انقاذها ، فعلى قيد
ذراع منى يقف الشاب الانيق ومعه ما يشبه مسدسا فى يده ،
وأنا حريص على حياتى بل أنا حريص ألا أصاب بجرح ولا بألم
سخيف ـ كأن يكون لكمة مثلا ٠٠ ولكنى تساءلت فى هذه
اللحظة ما اذا لم يكن حرصى على حياتى بهذه الصورة يفقدنيها ـ
وكان ذلك عندما انحنى الاحدب يقبل « نور » ويحتضنها ،
قبلة حقيقية لا شك فيها هذه المرة ، رغم الرائحة الكريهة
النفاذة ، ورغم ما رآه بوضوح من جحوظ احدى العينين جحوظا
بشعا مشوها تفقده كل شهية نحوها ٠٠

فلما انتهى من هذه المداعبات المريبة ، أخذ يعدل من ياقته
البيضاء ، ثم أخرج ما يشبه المذكرة ودون ما يشبه الملاحظات ،
ثم مضى يقلب تحت السرير ، ورأيته يخرج نصلا ذا حدين
ويغوص به فى الوسادة حيث كانت المريضة « نور » راقدة ،
ومضى يعبث بقطع القطن المتلبدة وينثرها أمام عينيه ثم ينفخ
فيها وهو يتأمل محاولاتها الفاشلة للصعود ، ثم يبعثر بقيتها
على الارض ٠٠ فلما أبديت شيئا من اشمئزازى ألقى به فى
وجهى ٠

وخرج من المخدع وأنا أتبعه مع حارسى الانيق ، حتى
وصلت الى باب المطبخ ، فمنعت كذلك من الدخول ، واكتفيت
بأن أقف بحيث أستطيع أن أرقب كل شىء ، فلقد ذهب الاحدب
يقلب بطرف سبابته فى القطعة التى كانت جبنا واستحالت
ـ منذ الامس على وجه التقريب ـ الى مجموعة من دود ، وكانه

النمل قد عاد اليها من جديد ٠٠ ثم مضى يقلب فى القمامة ، وبها فضلات من طعام وبقايا خبز جافة وأوراق متسخة يحاول أن يقرأها بعينيه الكليلتين ، ولاحظ القطة وهى تموء فنظر اليها بارتياب في أول الامر والى أثدائها المدلاة ، وتتبعها وهى تتشمم زوايا المطبخ ، ثم ما لبث أن انصرف عنها وقام يقيس عرض المنضدة ، وهو دائب يدون ملاحظاته الهامة الدقيقة ، ويرفع يده اليمنى نحو أذنه اليمنى كأنما يطرد بها الذباب كلما تنبه الى عواء الكلب المتصل فى الظلمة الخارجية ، ثم خرج من المطبخ ليعد نوافذ المنزل واحدة واحدة ، وأبوابه ، ثم بدا لى أنه يعد قطع البلاط فى كل غرفة ، ولو أنى ما تأكدت من ذلك أبدا فقد أغفلوا ذكر ذلك في التحقيق ٠٠ وكان هذا هو كل ما يحتويه منزلى : غرفة للنوم ومطبخ للطعام وردهة فيما بينهما ٠٠ فلما أوشكا على الخروج لمحا الاوراق الفارغة منثورة وممزقة فوق المنضدة بالردهة ، وكانت لا تزال بها بقايا العرق من أثار قبضتى التى تشبثت بها طوال هذه الليلة ، وقد أثارت هـذه الاوراق اهتمامهما البالغ ، فأدناها الاحدب من أنفه ثم أدناها الى أنف زميله يتشممها معه ، فلما لم يقنعا بذلك أخذا يقرآنها بعناية ، وما لبثا أن وضعاها فى ظرف كبير ونظيف ثم رأيتهما ينحنيان ويتاهمسان ، كل منهما يهمس بدوره كأنما ثمة مؤلفا وضع لهما حوارا وهما يشيران الى ما وضعاه بالظرف ، وقد عددت المرات التى تكلم فيها كل منهما فوجدتها اثنتى عشر مرة ، فقد همس الاحـدب فى أذن الرشيق اثنتى عشر مرة وهمس الرشيق ردا على الاحدب اثنتى عشر مرة ٠٠ ثم دون كل فى مذكراته ما يشبه الملخص العام وما يشبه الرأى النهائى فى الامر ٠٠ وانتزعانى من بيتى ، ثم اقتادانى الى الخارج حيث ظلمة الظلمات ٠٠

ـ ٤ ـ

وكانت غرفة التحقيق ـ بعكس ما كانت السينما ـ مرتفعة الباب ، شديدة النظافة ، قوية الاضاءة ، خالية صامتة كأنما تنتظرنى ٠٠ وقد دفعنى الرجلان الى الداخل بغير أن يدخلا ،

ولم أجد مقعدا واحدا فاضطررت أن أجلس القرفصاء على الارض، متأملا ظلى المطمئن الى جانبى ·· وجعلت أنتظر ·· كان ثمة منضدة مستطيلة ومرتفعة ونظيفة جدا أمامى تماما وليس عليها شىء على الاطلاق ، ومن خلفها ستارة مزركشة يغلب عليهـــا اللون الرمادى كالتى يضعونها فى بعض الهياكل ، ثم أربع زوايا وسقف وأرض خشبية كلها نظيفة ومضاءة ومعنى بها عناية فائقة ·· ومضيت أنتظر وأرقب ما عسى أن تـــكون الحركة التالية ··

وسمعت صوتا ينادينى ، فاستدرت أبحث عمن يكون مصدره لكنه كان يبدو آتيا من خلف جدار ، أو من خلف الستارة على وجه التحديد ·· وهكذا أدركت أنى لن أرى وجه محققى ، ولكننى عرفته رغم هذا الجدار المصطنع القائم بيننا ، فلا شك أنه كان صوت ذلك الشاب الرشيق الذى كان يحرسنى ، بينما بدا لى أن الاحدب يقوم الآن بدور ثانوى هو دور الكاتب ، فقـد سمعت حفيف القلم أكثر من مرة وهو يحاول اللحاق بى حتى لا يفوته شىء مما أجيب ·· وكان واضحا أن المحقق يعرف كل شىء عن حياتى ، فقد مضى يلقى أسئلة كثيرة وسريعة ومتلاحقة ، على أن أجيب عنها جميعا بلا تردد ولا غموض ·· وقد بدا لى أكثر من مرة أن أفاجأه بمعرفتى له ، أو على الاقل أن ألحد ــ فيما بينى وبين نفسى ــ بسلطته ، وأنتزع من قلبى الايمان بقدرته التامة على اتهامى وعقابى ، وبهذا وحده أستطيع أن أضع بينى وبينه حجابا حقيقيا وكثيفا لايستطيع أن ينفذ من خلاله الى مايجد من أسرار فى حياتى ·· كان ضعفى أمامه وخوفى منه وايمانى بقدرته وحرارة الغرفة المعذبة هى التى تساعده على الحصول منى على كل ما يريد ·· سألنى عن اسمى وعن وظيفتى وعن أقربائى وسمعت الاحدب يكتب جميع الاجابات فى سرعة فائقة ، ثم عاد يسألنى عن سبب اختيارى لهذا المسكن فى هذه الحارة ، وعن سبب وجود هذه الخادم بهذا الاسم فى منزلى وما اذا كان لى بها علاقة ·· ثم عاد يسألنى : ماالذى كنت تحمله معك مساء اليوم؟ وأجبته : ليفة مما يغتسل بها الناس ·· فقهقه قهقهة مدوية وسألنى : أين اختفت اذن ؟ أجبته : لقد ضاعت منى أثنـــاء الطريق ·· قال : اذن فها أنت تعترف ·· ثم زاد ضحكه رعبا

ودويا ، كما يبدو أن الاحدب رمى قلمه واستلقى على قفـــاه ليشترك معه في الضحك ٠٠ ثم سألني عن معنى الكلام الذى كان مكتوبا فوق ورق الجرائد ، وعن لون مخـدعي الازرق ، ولماذا أخذت سيارة الاجرة ثم هربت منها ولما ذا شاهدت ذلك الفيلم بالذات وجلست بين السيدة والرجلين ولماذا انحنيت على أرض الطريق ، وماذا التقطت اذ ذاك ـ وهذا أمر لا أذكر أنى فعلته هذا المساء الا أنى لم أستطع أن أنكر احتمال ذلك ، بل وتصديقه ، فقد كا نيبدو أنه يعرف أشياء أجهلها أنا عن نفسى وهو لا يريد حقائق فهو يعرفها لكنه كان يريد أن يحصل على اعتراف ، وهكذا بت على استعداد لأن أؤيده على اقتراف أعمال بمجرد ذكرها لى ٠٠ فمضى يسألنى عن القط الذى كان يموء ، والجبن والدود والكلب الذى يملكه جارنا والخطوات التى كنت أقيس بها الطريق ، ولماذا لا أدخن ولماذا لم أستطع الزواج ولماذا لا أستطيع الاختلاف الا الى مقهى واحد ؟٠٠ كان يطلب منى تفسيرا لأشياء لا أجد لها تفسيرا ، وكان هذا عجزا حقيقيا منى فقد توهمت أننى هيأت نفسى بكل ما أملك من دفاع ، لـكن سرعان ما ثبت لى خطأى الفاحش وانى مجرد أعزل من كل شيء أمام هذا السيل المنهمر من الاسئلة الدقيقة التى تخصنى تماما والتى كان يجب أن أعرف اجاباتها جميعا ٠٠ كان المحقق يضعنى موضع المسئولية من كل ذلك ، وأنى لمسئول عنه جميعا ٠٠

وحين انقطع حفيف القلم أدركت أن التحقيق قد انتهى ، وعلى أن أخلى المكان ، فقمت أتجه نحو حارسى الذى ينتظـرنى فى الظلمة الخارجية ، متذكرا كيف كنت فى جبن أتحايل على التهرب من الاجابة الصحيحة ، لأنه كان يبدو لى أنه لم يكن ثمة اجابة لكثير من هذه الأسئلة ٠٠ لهذا أدركت أنى قصرت تقصـيرا شديدا ، تقصيرا يكاد يدنينى من العدم ٠٠ ففى استطاعة هذا المحقق أن يلصق التهمة بى ، ولهذا أعددت عن نفسى هذا الدفاع

فغدا سيجلسون لمحاكمتى ، وسيلقون على التهمة تلو التهمة ولن أدعهم يستمرون ٠٠ سأدافع عن نفسى ، وسأجعلهم يدركون أن شيئا مما فعلوه لم يكن ليفاجئنى ٠٠ سأخبرهم كيف نشأ لدى ذلك شيئا فشيئا وأنا أعبر طرقات هذه المدينة المزدحمة فى طريقى الى عملى صباحا وفى طريقى الى مقهاى مساء وفى

طريقى الى منزلى صباحا ومساء ٠٠ سأقول لهم ان زحمة الطريق كانت تضايقنى ، وحتى المقهى الذى اخترته لأن به شيئا من هدأة ، كان أحيانا ما يزدحم فى بعض الاماسى ، فينعكس ضجيج الناس ووهج النور فى عيونهم وفى رائحة دخانهم ، فيصيبنى انقباض ويأس شديدان ٠٠ لقد كانت المسألة فى أول أمرها مجرد رغبة فى الهدوء ، ثم أصبح شبه احساس بالخوف ، ثم بلزوجة فى أجساد الناس وكلماتهم ونظراتهم ٠٠ وأخيرا أدركت وأنا أعبر شوارع هذه المدينة أن هناك من يتبعنى وسط الزحمة وكان هذا أبعد مما وصلت اليه مخاوفى ، فأنا رجل مسالم لا أصدقاء لى ولا زوج ولا أطفال ، فلماذا يتعقبنى شخص أو أشخاص وأنا سائر فى هذه الزحمة الكريهة ؟ وهكذا نشأت لدى رغبتى المستمرة فى الانكماش والتضاؤل ، حتى أصبحت كأنى فأر فى مصيدة عليه أن يتجه ان يمينا وان شمالا حتى يدمى وجهه وينهك عبثا قواه ٠٠

لقد كان كل أملى فى الحياة هو أن أعيش فى هدوء ، بعيدا عن كل صخب وضجيج ، ملتصقا بعمل هادىء لا مجال فيه للمغامرة والمقامرة ، وظيفة ذات أجر ثابت ، حيث تتبلور كل آمالى فى أن يزداد أجرى جنيها أو جنيهين كل بضع سنين ، لهذا نفضت يدى من الحب وتحاشيت الزواج ، وتجنبت أسرتى منذ زمن بعيد ، وحاولت أن أختار مسكنا هادئا وخادما مطيعة فى معزل عن الناس ، ومضيت أدبر شئون حياتى بأقل قلق مستطاع ، لكن ها قد ذهبت كل محاولاتى أدراج الرياح ، ورغما عن كل هذه المحاولات فقد وجدت أخيرا من يتتبعنى فى شوراع المدينة وأزقتها ، ومن يعرف كل أسرار حياتى ، ومن يحاول أن يسد على كل منافذ الخلاص ، ويتدخل فيما حرصت أن أخفيه عن كل انسان ٠٠ وحتى وضعت أخيرا فى مكان مظلم تذهب فيه الخفافيش وتجىء طولا وعرضا وصعودا وهبوطا ٠٠

سأعلن على الجميع أنى ما أردت يوما أن أكون بطلا ولا رجلا مشهورا ، وسيكون شهودى على ذلك هم أولئك الذين شاهدونى لآخر مرة هذا المساء ، سأستشهد بالبائع المتآكل الانف ، وبالحسناء والشاب الذى يحادثها كأنما فى حذر ، وبالسائق المذعور والمصاب الذى وطأته العجلات ، وبقاطعى التذاكر

والسيد ةالتى تحك جسدها فى كآبة الى جانبى ، وبالذين كانوا يتهامسون وبالذين كانوا يتلفتـون ويتآمرون .. ثم أستشهد بخادمتى « نور » وبالقط الذى يموء وبالكلب الذى ينبح وبلون غرفتى الازرق ، فكل هؤلاء معى ، وهم يدركون أن كل ما أردته هو أن آكون مطمئنا ـ ولا أقول سعيدا .. ولقد كانت طريقتى اليوم الى ذلك هو ليفة أحك جسدى المتلبد ، وسأحلف بنوافذ بيتى السبع ـ التى دون عددها الاحدب ـ وبحق البطل الذى انتصر على الشاشة ، أننى حين اشتريت هذه الليفة ما كنت أدرك ما يترتب على ذلك من خطورة بالغة ومعركة مضنية .. سأشهد هؤلاء أمام الناس مكررا أنى ما أردت أن أصبح عظيما ولا زعيما ولا غنيا ، بل كائنا تطمئن أقدامه للخطوة التالية .. وأنا أعلم أن هذا هو موطن الضعف الوحيد فى دفاعى ولكنى سأدافع عن نفسى حتى نهاية النهاية ..



الطريق إلى الصحة

كنا على أهبة الاستعداد ، وعندما انحنت على أمى لتودعنى بقبلة ، لمحت بعينيها شبكة من التعبيرات الدقيقة القاتمة الحمراء فأسلمت لها وجهى وأنا أحس بمذاق القبلة الباهتة على جبهتى • ثم مضيت أتبع والدى ، وكل منا يحمل حقيبة مثقلة متآكلة كأنها حقد قديم ••

وأمام الباب وقفنا ننتظر ، وكانت عيوننا تمتد الى نهـاية الطريق المتعرج كأننا نستعجل قدوم السيارة المقبلة ، وهى ما تنفك ترتفع مع ارتفاع الطريق وانخفاضها •• وأمامها ـ وعلى بعد ذراع واحد ـ كان ثمة طفل قد رفع يديه وجعل يعدو كأنما يفسح لها الطريق أو كأنما يشدها نحوه بخيط رقيق خفى •• فلما وقفت نزل منها سائق عملاق قد لوحته الشمس ، ثم فتح لنا فى انحناءة باب السيارة الخلفى •• ونظرت الى والدى أتهيب الدخول الى مثل هذا المكان ، أو كأنما أتهيب ما أزمعنا عليه من أمر •• ثم انحنى والدى حتى كون ما يشبه القوس المتعـــرج ودفع أمامه حقيبته ، ثم انحنيت خلفه ووضعت قدما داخـل السيارة ورفعت الأخرى •• فلما أرقدت حقيبتى بأرض السيارة أدخلت قدمى الاخرى ، وحين استوينا على المقعد المبطن المهلهل دفع الطفل وراءنا باب السيارة فى عنف ، ثم تقدمت السيارة الى الامام قليلا ثم كأنما عادت فعدلت فجأة عن أمر ما فتقهقرت بشدة الى الوراء حتى لقد ارتطمت ذقنانا بحافة المقعد الأمامى ، وكان السائق قد استقر عليه ، فجعلت أتأمل الآن رأســه السوداء المنحنية أمامى فى الفراغ ••

وربما لم يحدث منذ سنوات أن اختليت بوالدى مثل هــذه الخلوة ، كان كل منا مأخوذا بمشاغله مندفعا مع جيله ، لا يكاد يجد وقتا يهبه للآخر ، أما الآن فقد كانت قسوة الحدث ووحدة الطريق تربط بيننا •• وقد فصلنا عن السائرين والعابرين باب انصفق فى عنف وقلقلة السيارة المترنحة وهى ما تزال تدفع أحدنا لصق الآخر بشدة ثم تعود تفصلنا لتلصقنا من جديد ، وثمة رأس شبحية هلامية قد استقرت فى عيوننا ••

وقد بدا لى فى أول الامر أن هناك مجرد احمرار مجهول يشوب هذه الرأس السوداء ، ثم فجأة فغرت فمى •• فقد كانت أذن السائق اليمنى ـ ومن نهايتها السفلى تماما ـ تقطر دما ••

وكأنما هناك قطعة صغيرة من اللحم قد انتزعت حديثا بلا رحمة والتفت الى والدى لأريه كيف تذوب الاذن الكبيرة الماثلة أمامنا ، وكيف ينسكب منها الدم كأنما يسقط في هاوية ·· ولكن والدى كان جالسا مطمئنا وقد عبر بنظراته الى ما وراء الرأس وما وراء الذين فى الطريق يعبرون الخطر أمام زجاج السيارة · وكانت الاذن تذوب شيئا فشيئا ، وقد أمسك السائق عجلة القيادة بكلتا يديه ، وأبى كأنما لا ينظر فى شيء ، وأنا لاأستطيع أن أشيع الاضطراب في التسلسل اللامتناهي للافكار المتداعية عليه ·· وكان السائق قد رفع الآن يده اليمنى يتلمس أذنه حيث يقطر الدم ·· ووضع هناك كفه لحظة أو بعض اللحظة ، فلما اطمأن الى تلوثها عاد يضعها أمام عينيه كأنما يبحث فيها عن شيء ، ثم نفخ فاتسعت النقطة ، وتناثرت على أجزاء الكف ثم عاد يضغطها فى العجلة التى أمامه ·

وقلبت فى جيبى بحثا عن منديل ، فلعل المنديل أن يكون ضمادا مؤقتا ، ولكننى أدركت أننى قد نسيت كل المناديل على المنضدة بالمنزل حيث أعدتها لى أمى قبل خروجى ·· وكان ثمة منديل يشوبه الاصفرار يطل باحدى زواياه من جيب والدى ، ولكننى خشيت أن أسحبه فأقطع الصمت الضرورى المتصل بيننا ، فآثرت الانكماش والانتظار وكان الدم قد أخذ يتلكأ الآن حول نهاية الاذن المقضومة ، ويتكاثف ويقتم ، ثم يتجمع فى نقطة كبيرة تسقط على مهل فى الفراغ ·· وفجأة مال على والدى وهمس قائلا :

ـ لقد اقتربنا ··

ولمحت التجاعيد المرتسمة على وجهه كأنما أراها فى مجهار ونقطتين من العرق توشكان على السقوط من جبهته ، ومن خلفنا كانت الابنية ترتفع ، والطريق تتسع ، والعابرون يندفعون كأنهم قطيع مجفل متفرق بلا راع ·· وكان واضحا أن السائق الاسمر يبحث الآن عن مكان ملائم يقف فيه بسيارته ·· وفجأة ـ وبلا توقع ـ وقفت السيارة كأنما على غير ارادة من سائقها وانفتح الباب ودفعنى والدى أمامه الى الخارج ، فنزلت أحمل حقيبتى ومن خلفى أبى وهو يجر حقيبته على أرض السيارة وأطل السائق من مقعده ، وبسط كفه يقبض فيها الاجر ، ثم

صفق باب سيارته الخلفى بشدة وغاب عن أنظارنا وكان الضحى اذ ذاك قد ارتفع ..

وارتقينا الدرج ، ودلفنا بين الاعمدة الكثيرة المنتصبة ، وعرج والدى جهة النافذة الحديدية الضيقة ، وامتصته الزحمة التى أمامها ، ثم عادت فأفرزته وهو يحمل معه تذكرتين .. وسمعنا صفير القطار ، ونفذنا من باب ثم من باب ، ثم انخفضنا فى دهليز رطب مستطيل ، ثم عدنا فارتفعنا على سطح الارض ، ونفذنا من باب ثم من آخر ، وشاهدت الرصيف يطفو بالحمالين والحقائب والباعة والمتعانقين والاطفال والسيدات ، وقد ازدحم القطار بحيث بدا كأنما عزم نهائيا ألا يزدرد آخر ، واحتشدت فى نوافذه وممراته وأبوابه رؤوس وأيد ومجموعة من المناديل المترنحة القذرة ، وبدا بعرباته الست الضيقة المنخفضة ونوافذه الكثيرة المتعددة وسطحه المقوس كأنما هو سلسلة فقرية لحيوان جيولوجى هائل بائد ، قد علاها فجأة جيش كبير من النمل .

واقتربنا من أحد الابواب وقد احتشدت فيه مجموعة من الاجساد المنضغطة المستطيلة تدلت منها أقدامها وأذرعتها .. وكان لا بد من ايجاد مكان ما ، فالقطار ما ينفك يطلق صفيره كأنما يوهم الراحلين فى كل لحظة بأنه على وشك التحرك .. وقد تقلقل عن مكانه قليلا فشاع ما يشبه التفصم بين المحتشدين على الرصيف وبين الاذرع المتشابكة بالنوافذ ، لكنه عاد فوقف وشقت الحقيبة طريقها بين الاجساد الملتصقة اللزجة ومن خلفها والدى ، وكنت أود أن أعود الآن لحظة لأعرف ما تم فى أمر السائق وأذنه ، لكن يبدو أن تفكيرى فى ذلك قد جاء متأخرا جدا ، فما لبث والدى أن جذبنى معه الى الداخل ، ثم شق لنا طريقا خلال الاذرع والارجل حتى وجدنا لأقدامنا مكانا داخل العربة ، ثم صفر القطار صفيرا متقطعا ثم آخر متصلا رفيعا وامتلأت السماء بالدخان الاسود المتناثر .. ثم شاعت القلقلة بين العربات من جديد واستأنفت العجلات دويها ..

ويبدو أنه كان فى الزحمة شىء من الوهم ، فما تفرسنا فى العربة بحثا عن مكان بين الاجساد المتناثرة ، حتى وجدنا مقعدا يسع شخصين أمام رجل وسيدة وصبى فى الثامنة أو التاسعة يبدو أنه طفلهما ، فجلسنا ووضعنا الحقيبتين بيننا حيث لم يكن

ثمة مكان آخر . وكان يبدو ان الرجل فى نحو الاربعين . أشيب الشعر ، لا يفتأ يتمخط بين حين وآخر ، وفي هندامه شيء من عدم الاكتراث ، أما السيدة فكانت أصغر منه قليلا ، على شيء من الملاحة ، ولكن أنفها طويل للغاية ، وعجيزتها ضخمة جدا . وكنت لا أعلم هل هما فى حالة من الهيام أو من التعب،فالسيدة ما تنفك تميل برأسها وشعرها على ذقن الرجل وعنقه ، والرجل ما ينفك يداعب شعرها بأنامله مداعبة هادئة أحيانا عنيفة أحيانا أما الطفل فكان فى أول أمره مشغولا بالنظر من نافذة القطار ومداعبة الغبار والفراغ ، ثم عاد فاعتدل فى جلسته ونظر نحوى وجعل يبتسم ، ولم يكن لابتسامته في أول الامر معنى محدود ، فهى قد تكون رضاء وقد تكون سخرية .. لكن شفتيه استطالتا وعينيه ضاقتا حتى قاربت البسمة أن تكون سخرية فتحولت بعينى ، وتلفت الى والدى لأرى الاثر المرتسم عليه ، وعسانى أخلق الآن معه حديثا ما ..

ولكن والدى كان مشغولا بشيء غريب ما توقعته .. فقد كان ثمة بقعة كبيرة سوداء قد انطبعت الآن على أسفل جاكتته ، وكان من الواضح أن شيئا مما فى داخل الحقيبة قد انسكب داخلها وتسرب بعضه منها على ملابسه ، وكان الآن منشغلا يمسح فى هدوء هذه البقعة المبتلة بمنديله الاصفر الباهت ، وانتشرت رائحة فريدة فى المكان ، ربما كانت رائحة سمك ، وخيل للزوجين ـ بغير حق ـ أنها تنبعث من هـــذه البقعة المستديرة السوداء ، فانقطع ما كان بينهما من هيام ، وبدا على وجهيهما شيء من التأفف والاشمئزاز ، واستطالت من جديد شفتا الطفل وضاقت عيناه .

وتمخط الرجل وانحنى نحوى وهو يقول مشيرا الى الحقيبة :

ـ هل بها سمك ؟

فأجبته :

ـ سمك ؟ كلا ، ان هذه الرائحة تنبعث من مكان آخر .. هذا مجرد خل ..

فطأطأ رأسه وقال :

ـ ولكن ماذا يفعلون بالخل فى المصحة ؟

فقلت له فى دهشة :

ـ ولكن كيف عرفت أننا نقصد المصحة ؟

فأجابنى وهو يبسط يديه :
ـ كيف ؟ هذا بسيط للغاية ، فأنت ترى كل الراكبين بلا حقائب ، وأنتما وحدكما اللذان تحملان حقائب مثلنا ، ومعنى هذا أنكما لن تقصدا الميناء الجوى ، ولا يوجد مكان آخر سوى المصحة !! ..
فأجبته مندهشا :
ـ ولكن ما أمر الزوجات والاطفال اذن الذين كانوا بالرصيف؟
فتمخط من جديد وقال :
ـ هؤلاء كانوا يودعون ركاب الدرجتين الاولى والثانية ممن يقصدون الى ما بعد المطار والمصحة ..
وكأنما لمح على شفتى شبه سؤال حائر فاستطرد فى شىء من السرعة :
ـ اننى ذاهب مثلكما الى المصحة ، هنالك ابننا خليل ، فتى لا يزيد عن السابعة عشرة ، لا تدرى كيف أصيب بهذا الداء الوبيل .. وأنتما من تقصدان ؟
فأجبته مطرقا :
ـ أخى صالح ..
فصاح قائلا :
ـ آه صالح ، لقد رأيته فى الزيارة السابقة لابنى ، ان حالته مثل ابنى من حالات الدرجة الثانية .. لا تكتئب ، سيخرجون من المصحة أكثر سمنة مما دخلوها ..
فرفعت رأسى الى الرجل قائلا :
ـ ان أخى صالح قد فقد شهيته منذ عشرة أيام ..
فأجابنى فى هدوء :
ـ وابننا خليل كذلك ، وأنا ذاهب مع أمه اليوم لنقنعه بضرورة الاكل ..
فسألته فى تردد :
ـ ولكن أليس خليل عنيدا ؟
قال :
ـ انه عنيد الى حد ما ، ولكننا أحضرنا ما يفتح له شهيته ، أنظر ، هنا فى الحقيبة حلوى وكنافة ، وفى تلك لحمة وسمك ..
فصحت فى تأنيب :

ـ سمك ؟ اذ نهذه الرائحة تنبعث من حقيبتكم ؟ ..
فأجاب في طمأنينة :
ـ لا ، لا ، لقد لففناه بكثير من الورق ولا يمكن أن تنبعث منه رائحة ما .. انها تنبعث من مكان آخر بلا شك .. أنظر
ورفع الحقيبة الثقيلة وكاد يدسها في وجهي .. وهنا انحنت السيدة بأنفها الطويل على ابنها ، وأقبل والدى بوجهه ولا يزال يمسح بمنديله على البقعة الكبيرة السوداء وقال :
ـ اذن أنتما جئتما لزيارة هذا المكان من قبل وتعـرفان الطريق ؟ ..
فأجاب الرجل :
ـ نعم لقد جئنا من قبل بغير شك ، وسيقف القطار بنا بعد خمس دقائق ، ثم يمتد طريق رملي صحراوى لمدى نصـف ساعة ، حيث تبلغان أبواب المصحة ..
ولقد هدأ بالفعل دوى العجلات قليلا ، فقام والدى يحمـل حقيبته المبتلة ، واندفعت وراءه .. لكن المرأة ضحكت ضحكة خافتة ، وطلب منا الرجل أن نتريث فالقطار يهدأ هنا بسـبب انحناء الخطوط الحديدية ، ولا يزال أمامه أربع دقائق كاملة ليقف .. ثم أردف قائلا :
وسيغادره معظم الراكبين ، فلا داعى للعجلة ..
ومع ذلك فقد ظل والدى واقفا ، وجلست أنا على حافة المقعد متأهبا للقيام ، وقد بدت أبنية المطار وطائراته الجاثمة من بعيد ثم عاد القطار يهدأ قليلا قليلا ، والراكبون من عمال المطـار يقفزون تباعا من أبوابه ونوافذه .
ولم يكن هناك ما يشبه المحطة فى شىء ، بل مجـرد أعمدة أربعة من الخشب كأنها نصب فوق قبور لمجهولين ، ثم رمال وتلال تمتد الى نهاية البصر .. وكان ثمة سيارات كبيرة واقفة كأنما تنتظر ، سرعان ما قفز اليها العمال ، فما مرت لحظات حتى كانت الارض قد ابتلعتهم جميعا .. وكان واضحا أن الرجـل وطفله وزوجه ذات العجيزة والانف قد قفزوا الى احدى هـذه السيارات مع العمال ، أما نحن فكان علينا أن نقطع بقية الرحلة سيرا على الاقدام فى هذه الارض الغريبة ، وأن نستدل من حين لآخر بانسان هنا أو نصب هناك .. وقد وقفنا وحيدين أمام

الرمال المترامية والرحلة المجهولة والفزع الغامض ، والظهيرة ما ينفك قيظها يعلو ويشتد ..

***

وكان القطار قد ابتعد الآن فكون ما يشبه الخط الأسود الغامض فى الافق البعيد .. ومضي كل منا يحمل حقيبته ، ونحن نقتفى اثر السيارات المتدحرجة عنا وسط الصمت والقيظ وكانت التلال المنخفضة ومسارب السيل القصيرة الجافة المترددة كأنما تمتد حتى تلتقى نهايات الافق بنهايات الارض ، وكأنما هناك دعاء مرير ينبعث حوالينا من السماء الزرقاء ، ومن الارض الفسيحة المنبسطة ، ومن الريح التى تهب بين حين وآخر ، غريبة وبلا توقع ، فتثير الحصى والقذى ، ثم تعود تهمد كأنما الى الابد .. كان مكانا يضطرنا الى العزلة ، وهى عزلة موحشة لا قداسة بها ، فهو يعزلنا حتى عن أنفسنا .. وكان السراب يلوح لنا على بعد فنلتقى هناك ، ثم يرتد بصرنا فينحسر عن أثر العجلات ومواطىء الاقدام .. وكان لا يبدو لى شىء من أمل ، فالطريق ما تنفك تزداد طولا ، والقيظ ما ينفك يشتد اندلاعا ، والصخور من حولنا ما تنفك تزداد قتامة وتوهجا .. وعندما انحنى بنا الطريق لمحنا رجلين يصلحان أسلاك البرق فى هذه المنطقة ، ، فلما اقتربنا منهما صاح أحدهما بصوت كالرعد :

ـ انهما ذاهبان الى المصحة بلا شك ..

فاقترب منهما والدى وقال :

ـ حقا نحن ذاهبان الى ذلك المكان .. فهلا تعرفان الطريق ؟

فضحكا معا كأنهما يقومان بدور فى مسرحية أو جوقة ، ثم أشار أحدهما الى الافق وصاح :

ـ وكيف لا نعرفه ؟ ربما كان هناك ..

فآثرنا الابتعاد وعدنا نستأنف المسير ..

وكان الحوار الصامت قد أخذ يتصل الآن بيني وبين والدى ، حوار تتداخل فيه عناصر الصخر والرمل ، والاذن التى جمدها الدم ، والاخ الراقد فى المكان المجهول ، وفزع الوقت وكآبته .. كان بيننا حوار يملأ ثلاثين عاما فصلت ووصلت ما بين جيل وجيل ، ونحن نوغل فى هذه المنطقة من الوجود حتى التقينا بنقطة يتفرع عندها الطريق ..

وكنت اذ ذاك قد بلغت قمة من الاعياء ، ودب الضعف الى ، وخيل الى أننى لن أصل أبدا ولن أعود ·· ورأيت فى هـــذا التفرع ما يبرر لى عدولنا عن رحلتنا التي لا تنتهى ، فنظرت نحو والدى وهو يبتسم ·· ثم اندفع فى أحد الطريقين لا يلوى على شيء ·· ولوح لى يشجعنى فهناك ما يشبه الحياة على مسافة من الطريق ، فتحركت من جديد ، وبكارة التجربة تربطنا بغاية واحدة ، ثم تعود تفصل بيننا السنون والرؤى والاساطير ·· وكنت أود الآن لو أقطع هذا الحوار بكلمة أو همسة فأثير الشك فى نفس أبى وأستعيد منه شيئا من الايمان ، لكن شيئا من التهيب كان يدفع الحوار فى طريقه فلا تقطعه كلمة ولا همسة ·· وهكذا اندفعنا نسمع وقع أقدامنا ، ونجفف العرق ويستبدل كل منا حقيبته من يد الى أخرى متى امتلأت كفه باللزوجـة والعرق ··

ولاح لنا هيكل لسيارة صغيرة متداعية ، ينحنى تحتها رجل قد أخفى نصف جسده هناك كأنما يصلح من عجلاتها أويستظل من حرارة هذا القيظ ·· فلما اقتربنا ، وأصبح لأقدامنا وقع فى مسامعه ، زحف برجليه الى الوراء ثم رفع رأسه نحـونا وانتصب قليلا وهو ينفض يديه مما علق بها من رمل وحصى · وفغرت فمي وأمسكت على يد والدى أشدها ، فعلى بعـد ثلاثة أمتار منا كان يقف السائق ذو الاذن المقضومة والذى تركناه خلفنا بالمدينة ·· وصحت فى فرح ودهشة :

ـ كيف وصلت أيها الرجل العظيم الى هذا المكان الميت القائظ ·· وكيف قطعت هذا الطريق الشاق بسيارتك تلك ؟

ولم يبد أنه استاء من حديثى بل ضحك قائلا :

ـ اننى أحمل كل يوم ألوانا من الناس الى مختلف الانحاء ، ولشتى الاغراض ، وسيارتى سليمة على ما بظاهرها من القدم ، وانى لأرى أنكما ذاهبان الى المصحة ، فهلا تتفضلان ؟

وانحنى أمامنا يفتح باب سيارته لنا ، وانحنينا نحن ودخلنا وصفق الباب وراءنا ، ثم جلس الى عجلة القيادة ·· وكان الدم قد تجمد الآن حول الاذن ، وكون ما يشبه السواد وسط الجرح أما بقية الاذن فكانت شديدة الاحمرار كأنما تلتهب ··

ومضت بنا السيارة ترتفع وتنخفض ، وتتشابك أمام زجاجها

المسارب الجافة ونهايات الافق ، وتنتشر على جانبيها قبور لجنود أجانب مجهولين أقبلوا من أحضان أمهاتهم وزوجاتهم ليموتوا فى هذه الصحراء المحرقة فلا يعـــودون ‥ وكانت النباتات الشوكية الرمادية الحادة تفجؤنا بين حين وآخر ثم سرعان ما تختفى وراء كثبان من الرمال لا تنتهى والريح واللهيب وقلقلة السيارة كأنما تأتى الآن من عالم متباعد نهائى ‥ والسيارة تشق طريقها فى فراغ برىء طاهر ، يفضى بنا الى نهاية قريبة مرجوة ‥ فها قد لاحت لنا البوابة العظيمة من بعيد ، وهدأت سرعة السيارة قليلا وهى تعبر بقايا الطريق الصخرى .

لقد أوشكنا على نهاية الرحلة ، وبقيت أمامنا المغامرة الاخيرة ، فها نحن نغادر السيارة ، وبعد قليل سنعبر هذه البوابةالضخمة ثم نجتاز الممرات الكثيرة المتعددة والقيظ والصخر ، ونلتقى بالاخ العزيز فى مكان ما ، ونقبله فى عنقه وفى جبهته ، ثم نبلغه سلام الام ، ونسأله ذلك السؤال الذى لا يجيب عليه أحد: لماذا أصبح من المصدورين ، وكيف انتقلت اليه عدواه ؟ فلقد ألقينا هذا السؤال مرارا على أنفسنا وعلى الجالسين الى مكاتبهم وعلى العابرين فى الطريق ، فلم نحظ بجـواب حتى الآن ، لكننا ما مللناه ‥

اننا سندخل المصحة الآن أيها السائق العملاقى الاسمر ، فانتظرنا حتى نعود ولا تمل الانتظار ، سنضاعف لك الاجر ، ونداوى لك أذنك حالما نعود ، وربما حملنا اليك هـذه السيدة ذات الانف الطويل والعجيزة الضخمة لتجلس الى جانبكوتداعب بشعرها عنقك ‥ لقد استيقظنا مع الفجر ، وأعددنا هـــذه الحقائب الثقيلة ، وقطعنا طريقا شاقا طويلا ، وحرصنا أن نقبل فى الميعاد تماما ، وها قد أشرفنا على المصحة فرأينا منهاأسوارها البيضاء ، ومرضاها الناقهين ، فانتظرنا لكى تحمينا من الصخر والرمل ، ومن مخاوف السراب والافق ، ومن شرود هذا التيه . فنحن بدونك لن نبلغ أخبار الاخ الراقد الى الام القلقة فى المدينة بانتظارنا ، ولن نجد ما نستتر به رأسنا عن وهج الشمس ، ولا من يدلنا على المنحنى التالى فى الطريق ، ولا من يحمينا من قلق هذا الزمن وكآبته ‥



سيامة البطل

مؤمن عبد السلام عيد ، استطاع أن يحصل على وظيفة كاتب بمصنع للدخان بمرتب شهرى قدره أربعة عشر جنيها ، كما خطب الى نفسه أخيرا فتاة استطاع اقناعها بأن تشاركه حياته ، واسمها — على سبيل المعرفة — عنايات . لكنه ما لبث أن قال : وما فائدة الوظيفة وما فائدة الخطيبة اذا لم يكن لى بيت ؟ .. لهذا فى صباح كل يوم من أيام الجمعة ، يوم عطلته الاسبوعية ، يقوم كأنه ذاهب الى عمله اليومى ، يقوم كأنه يؤدى واجبه الدينى ، يقوم كأن أمامه رحلة طويلة شاقة .

ونظر الى الرجل الذى شاركه غرفته هذه الليلة . كان شخيره لا يزال يعلو وينخفض ، ورائحة الريف تنبعث من ثيابه ، وصياح الدجاج ورائحته تنتشر فى المكان . ففى مساء

الأمس أقبل هذا الرجل يحمل أقفاصا من الدجاج ، حين كان النعاس قد أخذ يتسلل الى عينيه ، وحين كان المكان قد هدأ الا من صوت الأرانب التى يربيها صاحب الفندق وهى تقفز فى الظلمة وتحت السرير من حين لآخر ٠٠ ثم جمعتهما الغربة والوحشة والظلمة المغرية الخبيئة ، فمضى يدلى باعتراف كامل عن تاريخ حياته ، وكيف تدرج حتى أصبح اليوم تاجرا

وأمام باب الفندق كانت هناك نصف دائرة تنحنى نحوه ، تتكون من زجاجات الكازوزة المقلوبة ، قد دفنت منها رؤوسها فى التراب ، وبقيت بقية أجسامها متساندة منحشرة بعضها الى بعض على هيئة نصف دائرة تنحنى نحو طرفى الباب ٠ وكان صاحب الفندق يقصد بذلك ـ فيما يظن ـ الى زركشة المدخل العام وجذب أنظار العابرين ٠ وكان هذا هو ـ على ما نعلم ـ جهده الوحيد الذى بذله للاعلان عن فندقه العظيم ٠ وهرولت الى الداخل ٠

وعبر نهاية الحارة ، وفكر لحظة أن يقف عند مطعمه المفضل ليتناول شيئا يستعين به على رحلته الطويلة المقبلة خلال أزقة المدينة وشوارعها ٠ لكن لم تكن له شهية على الاطلاق ٠ وكان المطر قد هطل غزيرا فى تلك الليلة وتبقى منه الآن برك وأوحال مضى أطفال الحارة يتسابقون فى خوضها ، فتفاداهم وهو يواصل سيره ٠٠ فقد كان يعرف اليوم الى أين يتجه ولو فى الساعات الاولى من هذا النهار ، فقد كان عليه أن يمر بمنزل صديقه صلاح ليدله على مسكن متواضع عساه يروقه وتروقه عروض صاحبه ٠ وكان مطلبه ـ كما يبدو من اخفاقه المتتالى ـ عسيرا للغاية ، فهو لايريد سوى مسكن متواضع بأجر متواضع ، مسكن به يؤدى غرائزه الاولى : غرفة للنوم وأخرى للاستقبال ومطبخ للطعام ومرحاض ، وكان هذا ـ فيما يبدو ـ عسيرا للغاية ٠

فلما أن وصل الى منزل صاحبه وعلا الدرج المعتم المتكسر ، طرق الباب طرقا خافتا متواليا ، فقد كان يبدو كأنما النعاس لا يزال يملأ جنبات البيت ٠ وحين أعاد الطرق من جديد ، أعلى صوتا وأكثر جرأة ، ترامى الى سمعه وقع أقدام مقبلة ٠ فلما فتح الباب وجد نفسه أمام الزوجة الشابة وهى لما تزل

في قميصها الليلى ، وكتفاها تبدوان مستديرتين ناعمتين ٠ ولما لمحته تراجعت الى الوراء قليلا ، وصاحت معتـــذرة : لا تؤاخذنى ، ظننتك بائع اللبن ٠ ثم أذنت له فى الدخول للدجاج ، وها هو ذا قد أقبل بهذه الاقفاص جميعها يرجو أن يبيعها فى سوق المدينة صباح اليوم ٠

ولقد رأى صديقه جالسا فى الردهة يتناول افطاره ٠ وبدا له انه شخص متطفل يزعج الناس فى بيوتهم فى مثل هذا الوقت المبكر وفى يوم راحتهم الاسبوعية ، لكن ما كان له أن يتردد ، فاندفع وصاحبه يصيح به : تفضل يا مؤمن ، فأنت لم تأكل بعد بلا شك ٠ وأحس أن شهيته تتفتح الآن حقا ، ولكنه ادعى أنه أفطر ، وتمتم متشكرا ، وهرول متجها نحو غرفة الاستقبال ولكن صديقه صاح من جديد يريده أن يجلس معه ويشاركه الحديث ٠ وهكذا جلس أمامه ، وهو يود لو ينتهى من طعامه سريعا ، فوجوده فى مثل هذا الوقت قد قيد حركات الزوجة قليلا بلا شك ، ولعله أزعجها حين رآها وهى لما تنفض عنهـا النعاس ، وهناك البيت الذى يود لو يحصل عليه سريعا ٠ ولكن الحاج صديقك يا مؤمن وهدوءه وعدم اكتراثه لما بدا عليك من خجل ، لم يدع لك مجالا للاعتراض ولا لابداء شىء ممـا يعتريك ٠٠

ـ هل لك يا مؤمن فى سيجارة ، ما أخبار عملك يا مؤمن ، هل لك يا مؤمن فى قدح من الشاى ؟ ٠٠ وكانت الشمس تنفذ من خلال النافذة ، وصلاح يتناول القدح ويقدمه لى ، ثم يقذف نحوى بعلبة سجائره ٠ وكان على أن أرضيه فأطيع ، فأنا اليوم فى حاجة حقيقية اليه ، وهو وحده الذى يعرف الطريق الذى ننوى أن نسلكه بعد قليل من الزمن ، وهو وحده الذى يمكن أن يكون واسطة بينى وبين صاحب البيت الذى نقصده ٠ وحدثنى عن عملى ، وحدثته عن طفله ، وشرب قدحه من الشاى وشربت قدحى من الشاى ، وتناول قدحا آخر ودخنت سيجارة أخرى ، وقام يتحرك وشعاع الشمس يزداد اقترابا منى ، وهو يغسل وجهه ، وهو يختفى عنى ، وأنا وحدى فى الردهة ، وزوجه تعبر أمام وجهى ، وأنا أشتهى النساء وأشتهى حبيبتى ، عارية بضة ، وغرفة النوم ، وغرفة الاســـتقبال ، والمطبخ

والمرحاض ، وصديقي قد ارتدى بذلته ، وأنا أود لو أستعجله ، وهو يختفي عني قليلا ليداعب طفله ويودعه ويودع زوجه ، وأنا في حاجة حقيقية اليه ، حتى جرؤت أخيرا أن أصيح فيه قائلا :

ـ لقد آن لنا أن نخرج ! ..

ـ وفيم العجلة يا صديقي وأمامنا نهار كامل ؟ ..

ـ ولكني لا أريد أن تضيع منا عبثا دقيقة من دقائق هذا النهار ..

ـ لا تخف ، لا تخف ، فان زوجي تعد لنا القهوة ، فاذا شربناها خرجنا توا ..

ـ لكننا شربنا الشاي ؟ ..

ـ ما رأيك في سيجارة أخرى ؟ ..

فلما تناولا القهوة ، خرجا الى الطريق ، فالى طريق آخر فثالث . طريق بعد طريق . طرق بعضها متسع وطرق بعضها موحل . وكان عليهما أن يخوضا ، وكان عليهما أن ينفضا الوحل وأن يستنشقا الوحل ، ومؤمن يتكيء على ذراع صديقه بين حين وآخر ، يتأمل رأسه أحيانا وعينيه أحيانا .

كانت بينهما صداقة طويلة عنيفة ، فهو يكرهه وهو يحبه . وكانا يحسان في هذه اللحظة أنهما قد استنفدا كل شيء بينهما : تحدثا في كل موضوع ، وعاشا كل انفعال ، وما يزال كل منهما في حاجة الى الآخر . وسارا صامتين ، يعبران بقايا الوحل ، ويتفاديان دوائر الماء الضحلة ، ومؤمن يبحث عن معنى يتألق في نفسه أو خبر يثير من اهتمامهما أو أمل يصطنعانه معا . فقد كان صمتهما الآن محرجا للغاية ، كأنما فيه حكم على ما يشوب علاقتهما من شيخوخة تحتاج الى التجديد . وكان مشروعهما الذى يهدفان اليه الآن قد أدخل شيئا من الجدة على علاقتهما ، وأحيا الرابطة التى بينهما . ولمحه مؤمن يتفرس فيه كأنما ليؤنبه على صمته ، وأدرك أن صديقه ينوى ويمهد للحديث ، وكان يود لو يحادثه ، فعاونه على محاولته بأن تهيأ بوجهه لما عساه أن يقول ، وقد صدق توقعه حين رآه يهمس :

ـ فيم تفكر ؟ ..

ــ لا شيء ٠٠
ــ بل تفكر في شيء ٠٠
أفكر في شيء ، بل أنا أفكر في أشياء كثيرة ، غير مجرد العلاقة التي بيننا ٠ وأنا أعلم أنه يصر أن أحدثه ، وكان على ــ وأنا أعبر بقايا الوحل ــ أن أختار له موضوعا ما ، فأجبته :
ــ في البيت الذي نحن ذاهبون لرؤيته ٠٠
ــ بل تفكر في شيء آخر ٠٠
ــ بل هذا ما كنت أفكر فيه ٠٠
ــ بل في شيء آخر ٠٠
وهكذا حدث ما كان يخشاه ، فها هو ذا يحاول أن ينتزع شيئا منه ، شيئا من أعمق أعماقه ، يخفيه هو عن نفسه ، شيئا غامضا لا يعرفه وربما لا يريد أن يعرفه ، لا يريد أن ينتزع منه اعترافا ، بل ما وراء الاعتراف ٠ وهو يعتبر موضوع المسكن تافها لا يرضيه ، وعليه أن يختار له موضوعا يقنعه أنه محور تفكيره ٠ وكان قد قرر ألا يذكر له كثيرا عما بينه وبين خطيبته عنايات ، فيكفيه أن يعرف أمر العلاقة العامة ، أما التفاصيل فهي شيء خاص به ٠ وكان يعلم أنه كثيرا ما أغراه بالحديث عنها ، ولكن في كل مرة يعود من عنده وهو يحس أنه قد امتلكه ، فلم يعد له سر خاص ، وقد سلبه ، سلبه بطريقة تهلكه تماما ٠ فلما لاحظ صمته همس في رقة : وكيف حال عناياتك ؟ ٠٠
وابتسم مؤمن ، وتملكه اغراء أن يحدثه عنها طويلا ، لكنه كان يقاوم وهو يواصل هجومه :
ــ هل قابلتها بالأمس ؟ ٠٠
ــ نعم ، وهي على خير حال وتبلغك تحياتها ٠٠
نعم هي تبلغك تحياتها ، وهو خبر ليس مختلقا ، الا أنني ما ذكرته لك يا صلاح الا عساه أن يرضي غرورك ، راجيا أن تعدل عن مواصلة الحديث في هذا الموضوع ، لكن هذه الوسائل ما كانت لتجدي معك ، فعلي اذن أن أندفع في الحديث ، وأن أذيع آخر الاخبار ، الاخبار التي كنت قد قررت ــ كما قررت

في مرار كثيرة سابقة ـ أن تظل ملكي أنا وحدي ·

***

وفي النهاية وصلا الى زقاق ، والزقاق ينتهي ببناء ، والبناء ضخم جديد لا يتفق والزقاق · وحين رأى مؤمن صديقه يتجه نحوه ، لم يصدق ذلك أول الأمر ، ثم قال لعله ذاهب يستفسر عن شيء · فلما أصبحا وجها لوجه أمام بوابة النوبي الضخم ، أحس شيئا من الاشفاق والتهيب وهمس في أذن صاحبه :

ـ هل المسكن الذي نبحث عنه موجود في مثل هذا البناء ؟ ·

ـ بلا شك ، والا فما معنى هذه الرحلة الطويلة كلها ؟ ··

ـ لكن مساكن هذا البناء من النوع الذي يعلنون عنه في الصحف ·

ـ لكن هناك مكانا أعتقد أنه يلائمك ·· ألا ترى هذا الطابق الأرضي ؟ ··

ـ بل هو تحت الارض ·

ـ بل هو خير من مسكني الذي أوشك أن يتداعى ··

لكن هذا المسكن تحت الارض ، ومسكنك يوشك أن يتداعى ، والبواب يقبل نحونا ، وصديقي يحدثه ، وأنا أتفرس في سمرته ، وفي النقوش المحفورة على خديه ، فعلى كل وجنة أرى شكلا هندسيا لخطين متوازيين ، وهو ذو ثقة عظيمة في نفسه ، انه يحس بأهميته وأننا الآن نعتمد عليه وعلى كل حركة وكلمة منه · وغاب لحظة ، ثم عاد وبيده مفتاح من النحاس الأصفر مربوط الى قطعة من الدوبار مع كمية هائلة أخرى من المفاتيح المختلفة الألوان والأحجام · وتقدمنا ونحن ننخفض خلفه بضع درجات · ثم وقف وتنحنح وبصق · وأدار المفتاح في الباب · وكان علينا أن ننحني قليلا جدا ونحن نعبر الباب حتى لا نصطدم بأعلاه · وكانت رائحة الطلاء لا تزال تفوح من جنبات الجدران · كانت الغرف ضيقة ومنخفضة ومعتمة ورطبة ولكنها نظيفة جدا ، مهيأة أكثر مما أرجو ، فها هي ذي غرفة الاستقبال ، وهاهي ذي غرفة النوم ، ومطبخ ومرحاض ،وهنالك أيضا ردهة وحمام · كانت فيه الكهرباء وكانت تمتد خلاله أنابيب المياه وكان يكسو أرضه البلاط ، وبنوافذه زجاج عليه طلاء أبيض كثيف يحول بيننا وبين أقدام العابرين في الطريق

وبين نظراتهم اذا شاءوا الانحناء ، وهناك أسلاك دقيقة الفسحات وقضبان حديدية بين الزجاج والاسلاك • وكان البلاط في بعض الغرف مزخرفا ، وكانت الجدران في بعض الغرف مزركشـــة وثمة صدى لوقع أقدامنا على بقايا الرمل هنا وهناك • وصديقى يتمتم : رائع رائع ، ما رأيك ، رائع ! وأنا أفكر في ضيق الغرف في عدد النوافذ ، في زواجي القريب ، في صديقي ، في المطر في الحاحه ، في خطيبتي ، في صاحب هذا البناء ، في مصنع الدخان ، في الاجر الذى عساه يطلبه ، وصديقى يتمتم : رائع رائع •فلما رأى صمتى ، اغتنم فرصة ابتعاد البواب ـ وأحسبه قد ذهب يبول في مرحاض بيتى الجديد ـ وصاح :

ـ الامر لا يحتاج الى تردد

ـ انتظر حتى نرى كم يطلب أجرا •

ـ دائما تعلق أمورك على شرط ، هل أعجبك البيت ؟

وظهر البواب من جديد ، فصمتا وكأنهما منشـغلان بشيء آخر ••• ووقف البواب وقد عقد يديه كأنما ينتظر أمرا ، وكأنما لمح ما على وجهيهما من اشفاق وتهيب • وكان احساسه بأهميته في هذه اللحظة قد ازداد ، فتفرس فيهما لحظة واحدة لكنها ماكانت لتغيب عن أنظارهمـــا ، وكأنما شـــاب نظرته شيء من الريبة فيهما ، فمال عليهما كأنما يوشك ان يدلى بسر خطير وهمس :

ـ هل تنويان ان تؤجرا هذا المكان ؟

ـ نعم نحن نفكر في ذلك •

ـ وهل ستؤجرانه معا •

ـ بل سيؤجره واحد منا ، صديقى هذا •

ـ وكم يستطيع ان يدفع

ـ بل كم يطلب صاحب هذا المسكن المعتم الرطب

ـ اذا كان منخفضا معتما رطبا ، فأتركاه وعودا بعد يومين لن تجدا غرفة واحدة خالية في هذا البناء كله •

ـ قلت لك كم يطلب ؟

ـ لست أعرف على وجه التحديد ، لكنكما تجدانه الآن جالسا بمقهى الازهار بميدان الحرية ، ويحسن ألا تقابلاه مباشرة •

فقالا في صوت واحد : ولماذا ؟

ـ لانه من الخير أن يكون بينكما وبينه وسيط فيؤجر لكما المسكن بأجر معتدل •
ـ لكننا لانعرف أحدا من أصدقائه •
وجلس البواب على مقعده الخشبى ، خارج البوابة العظيمة ، تجاه السلم الرخامى • والساكنون الجدد يصعدون، والساكنون الجدد يهبطون ، وهو يرفع عينيه من حين لآخر ليتم حديثه ، وهما يصدقان كل كلمة كما يقول •

***

وكان المقهى يحتل زاوية عند التقاء الميدان بأحد الطرق المتفرعة عنه ، ومساحو الاحذية منتشرون على طول الرصيف يلتقطون الداخلين كلما لمحوا حذاء موحلا أو شبه موحل • وكانت أبواب المقهى زجاجية ، قد طليت عوارضها الخشبية بطلاء حديث أصفر ، وعليها لافتات تحذر الداخلين من التلوث • فاقتربا من أحد هذه الابواب يرقبان الجالسين •
كان رواد المقهى من سن واحدة تقريبا ، يكادون يرتدون زيا متماثلا كأنهم تلاميذ في مدرسة • وكان أكثرهم لايسير باعتدال بعضهم يسير كأنما قدماه صناعيتان، وبعضهم يخب كأنما له قدم أطول من الاخرى ، وبعضهم يفسح ما بين رجليه كأنما به شيء من كساح أو كأنما هنالك مسامير داخل حذائه • ورغم اختلاف السن واختلاف الزى بينهما وبينهم الا أنهما شعرا أنه من الواجب عليهما أن يعرجا قليلا فى مشيتهما حتى لايلفتا الانظار • أما القائمون بالخدمة فكانوا يملكون أقداما سليمة صحيحة ، وكان الرواد جميعهم ـ بلا استثناء ـ يلعبون الشطرنج ويحتسون القهوة ويدخنون ، وكأنما قد قسموا أنفسهم الى فرق وأعلنوا السباق ، كل يريد أن يصرع أخاه • • كانوا منهمكين فى اللعب وثمة صمت منتشر فى المكان كأنما هو رواسب حوار عميق وعظيم وغريب قائم بين كل اثنين قد اشتد التنافس بينهما •
والداخلون يعرجون ، والخارجون يعرجون ، والخدم يذهبون والخدم يجيئون ، وهما يتفرسان فيهم عساهما يختاران الشخص الذى يتوسمان حاجتهما فيه •
وكانا قد تسللا داخل المقهى ، ودنا من ناحيتهما خادم أسمر بيده كوب ماء ، فلما وضعه أمام أحد الجالسين وقفل راجعا

اقتربا منه ليستوقفاه ، وتفرس مؤمن فى وجهـه فاذا به نوبى أيضا وعلى وجهه نفس الشكل الهندسى ٠٠ خطان متوازيان غائران فى وجنتيه ٠ ورغم أنهما كانا يعرجان قليلا فى مشيتهما الا أنه أدرك على الفور أنهما غريبان ، وحين أخذ صلاح يسأله لمح مؤمن فى عينى الرجل نفس البريق ، بريق الاحساس بالاهمية كأنما هو ليس مجرد خادم بينهما وبين الرجل الذى يطلبانه ٠٠ ولقـد أخبرهما ان « البك » ليس موجودا ولو أنه كان هنالك منـــذ لحظات ، الا أن صديقه يونس بك لايزال يجـلس ويعرف أين يمكن أن يكون ٠

اذن فالرجل ليس هنا ، ويونس بك هنا ، ونهار كامل ، بل أسبوع آخر يوشك أن يضيع عبثا ، وخطيبتى عنايات تدفعنى وصديقى صلاح يدفعنى ، والفندق ذو الارانب يدفعنى ، ورحلتى هذا النهار ووجودى فى هذا المكان وخطواتى التالية ، كل ذلك لايدع لى مجالا للاختيار ، فعلى اذن أن أواصل كفاحى بقية النهار

ودلهما الخادم على رجل فى نحو الاربعين ، رأسه تلمع وعويناته تلمع وبذلته السوداء تلمع وحذاؤه يلمع ، من رأسه الى قدميه ٠٠ كان ينبعث منه بريق كأنما يبدو من خلال مرآة ، وكان مهذبا للغاية ، فقد كان يضع ساقا على ساق فلما رآهما أنزل ســـاقه الى جانب الاخرى ، وأذن لهما بالجلوس ، وسارع ينادى الخادم كى يقدم لهما شيئا ، ولاحظا رقعة الشطرنج أمامـه ، وكانت القطع السوداء فى جانبه بينما اصطفت القطع البيضاء فى الجانب الآخر ، وكان يبدو من وضع القطع أن اللعب قد بدأ حديثـا ٠ وقد أدرك مؤمن فى الحال ماطرأ على فكر صديقه ، فصلاح يود لو يجلس أمام يونس بك ويلاعبه الآن ، ولا بأس أن يســتمر اللعب ساعة وساعات الى آخر النهار ، عساهما يستطيعان أن يكسباه الى جانبهما ، فلماذا لايكون يونس بك واسطة بينهما وبين صاحب المسكن ، وكان صلاح يجيد لعبة الشطرنج ، أما مؤمن فهو لايزال يتعلم المشاركة فى هذا اللون من الصراع ٠ وقد حدث ماتوقعه مؤمن ، فان صديقه صلاح لم يفاتح يونس بك فى المهمة التى أقبلا من أجلها ، بل كأنما سعى اليه خصيصا لكى يلاعبه الشطرنج ، ومضى يكشف له عن سعة معلوماته لكى يزيده رغبة فى المناسبة ، ولكى يوضح له أنه رغم عدم اصابته بالعرج

كأكثرية الباقين ، الا أنه لايقل عنهم فى اللعب مهارة ، وكأنما كانت كلمة الشطرنج هى كلمة السر بينهما ، فما لبث أنصاح فيه يونس بك قائلا :

لقد جئت اذن فى وقتك المناسب أيها الرجل ، فلقد غادرنى صديقى منذ لحظات ، وكنت حائرا فيما يمكن أن أفعله الآن ٠

وجلسا وجها لوجه ، وبدأ التحمس على وجه صلاح ، وأصر على أن يبدأ صف القطع من جديد بعكس يونس بك الذى كان يود لو يبدأ اللعب من حيث توقف ٠ وكان من المحتمل أن يطرأ على ذهن صلاح فكرة خبيثة ، ذلك ألا يتحمس للعب كل هذا التحمس وألايخلصله كل هذا الاخلاص ، بل يقدم هزيمته للرجل على سبيل الرشوة ، لكنه فى الواقع قد اندفع لايتنبه لشىء من ذلك بينما كان مؤمن يرقب عقربى الساعة المثبتة فى أعلا الحائط أمامه ٠

وفى الساعة الحادية عشرة كان قد مات أول بيدق أبيض،وفى الحادية عشرة وثلاث دقائق مات أول بيدق اسود ،ولابد أن كلا منهما قد ضحى ببيدق منعندهليستر وراء ذلك هجوما بعيدا ٠ وفى الساعة الثانيسة عشرة الا خمس دقائق كان قد مات ثلاثة بيادق أخرى سوداء وثلاثة أخرى بيضاء ، وفى الساعة الواحدة والنصف مات رخ الملك الابيض وحصان الملك الاسود ، وفى الساعة الثانية تذكر مؤمن أنه لم يتناول طعاما منالصباح حتى تلك اللحظة ، وفى الساعة الثالثة والنصف كان رواد المقهى قد أخذوا ينصرفون ، وفى الرابعة كان الرذاذ يطرق زجاج المقهى فى الخارج ثم انقطع ، وفى الخامسة كان فيل اسود قد مات ،وفى السادسة الا عشر دقائق قال يونس بك « كش الملك » وفى السادسة تماما كانت المعركة قد وصلت لحظتها الحاسمة وكأنما لم يعد الصراع أمام مؤمن بك مجرد قطع سوداء وقطع بيضاء ، وفى السادسة وعشر دقائق ماترخاسود ، وفى السابعةالا ربع كان مؤمن يجتر أشياء كثيرة عجيبة حولحياته وطفولتهورئيسه ومستقبله وفتاته ومسكنه ، أفكاريعيدها مرةبعد أخرى بلانهاية فى دائرة مغلقة على نفسها كأنما يقضم أظافره ، وفى السابعة الا خمس دقائق كان المقهى قد ازدحم بالرواد من جديد ، وفى السابعة تماما قال صلاح « كش الملك » وفى السابعة والربع

كان مؤمن يشرب فنجان القهوة السابع ويدخن السيجارة العشرين ، وفي السابعة والنصف الا سبع دقائق مات الوزير الابيض وبعدها بخمس دقائق مات الوزير الاسود مما بين انهما موشكان على نهاية هذا الصراع ٠

وفي السابعة والنصف تماما لم يبق من القطع السوداء الا الملك وأربعة بيادق بينما تبقى من القطع البيضاء بيدقان وحصانان ورخ والملك ، وبهذا أصبحت نهاية الملك الاسود معروفة ومحتومة ، فبعد ثلاث نقلات سيموت لامحالة ، وبهذا أصبح صراع الاسود مع الابيض صراعا لاجدوى من ورائه ٠

وبدا على الرجل أنه لايقبل الهزيمة ، وانه يود لو يبدأ من جديد ، وهما يحاولان ايجاد طريقة للخلاص ، حين شاهد يونس بك يرفع بصره نحو رجل مقبل ضخم الجثة يسير على مسندين فلا بد أن ساقيه صناعيتان ، ولما أصبح أكثر اقترابا وقف يونس بك باحترام شديد ، مما اضطرهما أن يقفا معه ـ وبنفس الاحترام ـ بدورهما ، وأقبل الرجل الضخم محييا يونس بك ، وقدمهما اليه يونس بك بغير أن يقدمه لهما ولا ان يذكر اسمه ، فيبدو أن الرجل كان من الشهرة بحيث افترض فيهما يونس بك أنهما لابد يعرفانه من قبل ، وقد لمحا ساعته الذهبية وسلسلتها التى تهبط من جيب داخلي ، وعرفا فيه صاحب المسكن الذى يطلبانه ، وظل الرجل واقفا بضع دقائق فظلوا واقفين معه ، فلما جلس ومرت نحو نصف دقيقة اذن يونس بك لنفسه أن يجلس وأن يجلس معه مؤمن وصلاح ، وسمعاهما ينهمكان في الحديث ٠

ـ وماذا قال محاميك ؟

ـ ليس أمامه الا أن يرفع الامر الى القضاء ٠

ـ اذن فلم يترك الرجل المسكن ولا يريد مغادرة المكان ٠

ـ بل لايزال يصر ويرجو ٠

ـ آه قصة زوجته وأطفاله ، والرصيف والسماء ٠

ـ وقصة المال الذى سيأتيه ولا يأتيه !

ـ والوسطاء الذين يرسلهم وراءك في كل زمان ومكان !

وهنا انحنى الرجل الضخم وهمس في أذن يونس بك ٠

ـ وأظنهما وسيطين ٠

ـ بل يريداننى وسيطا بينك وبينهما ٠

قالها يونس بك ضاحكا ، لكنه مالبث أن دهش حين أخذنا نوضح الامر ، وكنا متحمسين للغاية ، فليس هناك مجال للخوف أو الخجل • حدثه صديقى عن وظيفتى وحدثته عن مرتبى، حدثه عن اسمى وحدثته عن اسم خطيبتى ، حدثه عن حبى وحدثتـــه عن زواجى ، حدثه عن الفندق الذى ترعى به الارانب وحدثته عن أصدقائى وأحلامى ، والرجل يستمع الينا ، وأنا مدرك أنه قد يطردنى ذات يوم من مسكنى الذى لن أملكه ، حين يكون لى زوجة وأطفال ولا مأوى لهم بعد ذلك الا الرصيف والسماء •

ــ وكم تريد أن تدفع ؟

ــ خمسة جنيهات •

ــ بل سبعة جنيهات •

ــ ولكن هذا نصف مرتبى •

ــ ولكن المسكن سيظل خاليا ولن يؤجر لك بهذا الاجر •

وفى الساعة الثامنة وخمس دقائق أعلن يونس بك أنه يريد نفس هذا المكان مخزنا لبعض بضائعه • وعند ذلك فقط أدرك صلاح أنه كأنما أخطأ بانتصاره ، وأنه سلك الى نفسية هـــذا الرجل طريقا عكسيا فأبعده عنه بقدرماكان يريد أن يقربه اليه •

وبينما هما خارجان ، التفت صلاح نحو مؤمن وقال هازئا :

ــ لقد بدا عليه الغضب كأنما أخطأت بانتصارى ، كأنما ليس من حقى أن أنتصر •

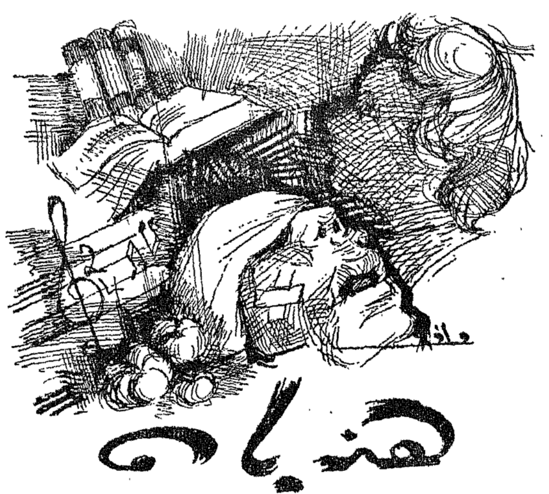
***

ولقد هبط المساء الآن والسماء توشك أن تمطر من جديد ، وعليك أن تعود يامؤمن الى الفندق ، حيث تحس كأنما أنت قادم من سفر وكأنما أنت على أهبة سفر جـــديد ، ستجد زجاجات الكازوزة المقلوبة ، وترى صاحب الفندق وهو مايزال يبصـــق ومن حوله الارانب تقفز • وستدخل غرفتك وتضىء النور لتشم بقايا رائحة الدجاج وترى من عساه يشاركك غرفتك هـــذه الليلة ، ثم تجمعكما الغربة الموحشة والظلمة المغرية الخبيثة ، وتحصل على اعتراف جديد •

بل ستعترف أنت الليلة لزميلك الجديد ، ستروى له كيــف كافحت حتى أصبحت كاتبا بمصنع للدخان ، وكيف كافحت حتى تعرفت على عنايات وخطبتها الى نفسك ، ثم تخبره ان لا بيت

الك ، قل له ان بيتك فى المقهى ، وفى الطرقات ، وفى سينما المدينة حيث يعرضون عليك منازل فخمة ، وبيوتا رحبة واسعة، ذات حدائق وذات أثاث بلورى، لها غرف كثيرة ، وأبواب ونوافذ، وفيها أطفال وفيها حفلات ، قل له انهم يهدمون فى المدينة كل منزل منخفض ، ويخططون كل أرض فضاء ، ثم ترتفع منازل ضخمة عالية رائعة الهندسة متعددة الحجرات كقصور التيه ، ذات نوافذ كثيرة وشرفات كثيرة وأبواب مغلقة كلها فى وجهك .

فاذا صحا الصباح ستذهب الى عملك حيث تلتقى بصديقك صلاح ، ثم تنحنى ظهرا على منزل خطيبتك حيث دعتك لتناول الغداء . لاتنتظر هذه المرة للاسبوع المقبل ، فلتواصل بحثك غدا وبعد غد وبعد بعد غد . اغتنم كل فرصة وكل دقيقة ، اقرأ اعلانات الجرائد جميعها وسر بطرقات المدينة جميعها واسأل من تعرفه وتعرف على من لاتعرفه ، واجمع حولك كل من لابيت له . فأنت بطل من أبطال هذا القرن ، لانك استطعت الحصول على وظيفة ، والحصول على حب ، ولابد لك ـ وللآخرين ـ من الحصول على بيت .



نجوى هو اسم الفتاة التى أحبها ، وديعة وجبانة ، مثقفة ولا لباقة في تصرفها ، وذات جسد جميل . وأنا أعرف أننى انسان ملعون ، فقد شاهدت أهلها ذات يوم وقدصبغواوجوههم بالنيلة وهم يلطمون . وأنا فىحاجة الىخمسة مناديل وجوربين ومجموعة محاورات أفلاطون . وهذه موسيقى شهر ذاد لريمسكى كورساكوف لاتزال فى نفسى أصداؤها ، فقد كان يحكى انملكا اسمه شهريار وجد امرأته تخونه مع عبد اسود فقتلها ، وجعل يتزوج كل ليلة بامرأة وفى الصباح يقتلها .

ووضعت أمه الضمادات المثلجة فوق جبهته ، وبذل جهدا هائلا كي يعود الى الواقع . كى يتشبث بأطر الصور الموضوعة على الجدران وفوق الرفوف فلا تعود ألوانها تتمايل . وحاول أن يحتفظ بأكبر وقت ممكن بالمعالم الدقيقة لوجه أمه .. حتى استطاع لحظة أن يعى بشعرها الابيض المحلول وبالدموع التى

أغرورقت بها عيناها وبالضوء ، ثم أحس أشـياء هائلة تتحطم فوق ظهره ، وأضواء تبرق وتتلاشى فى الظلمة المفزعة ، وهذا الضجيج العربيد يرتفع من أسفل حيث أصوات المدينةالصاخبة تستحيل الى عواء • وعاودته النوبة من جديد ، وسرتفى جسده موجة من الحرارة والقشعريرة ، فأحس بحاجته الى التقيؤ بغير أن يتقيأ ، وكأنما هنالك قوى شيطانية تنبعث من أعماق الجحيم تجذبه من العالم الخارجى حيث المدركات ثابتةوواضحة ومنتظمة الى ضجيج داخلى فظيع لايمكن تحديد مصدره فى دقة •

وامتلأت الغرفة أمامه بالبطيخ ، من الارض حتى السقف ، حتى كادت أنفاسه تختنق • وكان البطيخ يزدحم فى الركن الشمالى من الغرفة ثم يتفرق فى خطوط مستقيمةوأخرىمنحنية ثم أخذ البطيخ يتدحرج فى سرعة جنونية واشتبك فى معركة مخيفة • ووقف مذعورا يركل غطاءه ويرتعش • واقتربت منه أمه العجوز واحتضنتهقائلة : مم تخاف ياابنى ؟ أنا أمك بجانبك• وظل متشبثا بها وهو يحدق فى البطيخ الذى يملأ كل مكان ويتدحرج الآن فى تباطؤ وتلكؤ •• حتى خارت قواه ، فعاد من جديد الى الظلمة والدوى العربيد •

وكانت رأسه تكاد تنفجر ، وخشى لحظة أن يصبح مجنـونا ، أن يدخل هذا العالم المزدحم بالبطيخ المتدحرج فلا يعود • • • وصرخ ، وقام من جديد يركل غطاءه وهو يتوجه نحو النـافذة صائحا : أضيئوا الانوار •

ومن قبل كان قد راقب بنيلوب وقتـــا طويلا وهى تتعلل بمغزلها الذى لاينتهى لانها كانت تنقض فى الليل ماتفعله فى النهار ، وشاهد بياتريس وهى تستقبل دانتى صاعدا من جحيمه بعدما عبر المطهر مع فرجيل ، ثم تقوده خلال السموات التسع حيث أعشى بصره نور الله فعجز أن ينظر الا فى عينيها ، وعرف جان ديفال وهى تعذب بودليرعذابات سوداء لانهاية لها ••وكان قد جاء دوره هو ، بطل مجهول بين ملايين الابطال الذين يتعذبون فى صمت ، وليس لديه شاعر يذيع بطولته فى أنحاء الارض •

وكان قد جاب أنحاء الارض ، زارايطالياحيث تعرف بجرازيلا وقضى معها وقتا طيبا ، ثم مر بروما وشهد لوحة العشاء الاخير وزار المانيا حيث نزل ضيفا على هنرى ومعشوقته مرجريت ووقف

وجها لوجه أمام نفرتيتى ، وبعد الحرب الاخـــيرة زار باريس وشاهد لوحات سيزان ولوحات بيكاسو الاخيرة وفى دارالاوبرا رأى كاليجولا يتصارع مع حريته ، ثم زار موسكو حيث شهد تمثال لينين والنظام الحضارى الجديد ، وعرج على جنوب الهند ، وعاد أخيرا من نيويورك حيث صعد فى ناطحات السحاب وجاب الاحياء الخلفية المظلمة الرطبة • ثم صاح مرة أخرى :

أضيئوا الانوار •

ذلك ان الغرفة فى ذلك الوقت كانت قد ازدحمت بنســاء متكورات كالبطيخ ، وكانت النساء البطيخ متلفعات بالسواد ويجلسن طبقات بعضهن فوق بعض ، من الارض حتى السقف ، وهن يتثاءبن ويتنهدن كأنما انتهين لتوهن من مناحة كن يعددن ويولولن فيها ، وزعق فيهن عسى أن يجفلن أويختفين فلم يزددن الا تعبا وتراخيا • وود لو يهرب منهن ، فقام يحاول أن يشق طريقه نحو الباب •

وكان الباب مغلقا ، ورأى الطبيب يدخل من خلاله ، ثم جسه وخرج ، واختفت فى أثره النساء البطيخ • ورأى من النـــافذة قبة السماء الداكنة الزرقاء تلتمع فيها النجوم ، فأدرك ان الليل هبط • وسمعهم فى الخارج يتهامسون ، وحدس أنهم يعـــدون له نعشا ، صندوقا طويلا له أحرف مذهبة وفوقه زهور صناعية بيضاء •• هناك حيث تربض نهاية العـــالم • وشيئا وشـــيئا أخذت تستيقظ أمامه معالم الغرفة ، رأى أولا زجاجات الدواء القائمة موضوعة على أسفل الرفوف من الجهة الشمالية ، ثم شاهد بلاط الغرفة وفى وسطه بقعة كبيرة حمراء كالدم ، ولمح مقعدا خاليا ، وبقعا سوداء فى أعلا الجدار أمامه ، ومنشفة بيضاء ملقاة على الارض ، وطنين حشرة لايعرف مصدره •• ثم اهتزت الصور والجدران ، والمقعد والرفوف ، والنافذة والبـــاب ، والارض والسقف ، وأحس آلاما جبارة كأنه امرأة تعانى المخاض ، ثم نضح العرق غزيرا من جبهته ومن كل جسده ، وعاد كل شىء يســـتقر •

وكان قد قرأ عن الراقصات المقدسات فى معبد انياتيس وفى معبد افروديت بشبه جزيرة كورنث حيث يهبن أنفســـهن فى الاعياد نيابة عن بنات جنسهن • كان ينشد بنية مضت تحرر جنسها وتحمل لهن الخلاص من الموت الذى يتربص فى كل لحظة

بهن ، مثلما فعلت شهر زاد لبنات جنسها فأصبحت بحق بنية الاساطير فى الشرق • وفى سن التاسعة عشرة عشر فى زاوية صغيرة على امرأة صغيرة •

وكانت نجوى تجوب طرقات القاهرة تبـــحث عن نبى بين الرجال ، عن الفارس الذى سيهدىء من ثورة العالم مستلهما من صدرها الحنون • ففى ذلك الوقت ـ كما فى أيامنا ـ كان الحب والكره يتقاتلان فى صدور الرجال والنساء وفى المصانع والميادين وفى كل انحاء العالم • فاقترب منها وسألها عمن تبحث ورأت فى وجهه مايشبه شفتى نبى ، وحدثها عمااذاكانت تعرف الطريق الى الراقصة المقدسة فى هذا المكان من الارض ، وجعل يصفها لها كأنما رآها من قبل ، حتى تبلورت الفكرة فى جسدها فسألته عما اذا كانت هى لاتشبهها فى شىء • أما هو فكان قد قتل روح النبوة فى نفسه ، فقد روح النبوة التى استلهمها ذاته يوم من هاملت ودون كيشوت ، ومات من أذنيه تصفيق الجماهير وضرب على نفسه حصارا حتى لم يعد يستطيع الوقوف على قدميه ولا الجلوس •• ورقصت أمامه نجوى ، أحيانا فى الظلام وأحيانا على ضوء أحمر بهيمى ، حتى أخذت تسرى اليها عدواه •

ولقد تكشفت نفسه شيئا فشيئا أمام نجوى ، وتركته يكشف عنها شيئا فشيئا ، وارتعش وارتعشت ، واستاءت منه فاستاء منها ، ثم ضمتهما قبلة طبعتها الشفاه القرمزية ورأتها العيـون النجل فى الليالى السود ، وأمس الجسد الانسانى البكر وسيلة عظمى من وسائل المعرفة ، وفاحت رائحة العسل ، وتقطر الندى من السماوات المزدحمة بالنسماء الشجر •

وكأنما كان جسده يحترق فى أتون • وارتفع ضجيج المدينة وصوت مصانعها الحية النابضة • ولمح وجها ميتا ورأى أسنانها بيضاء بارزة بين شفتيها الصفراوين ، وتكشفت له جبال الالب عن ثلوجها ، ورأى الجن تعقد عيدها السنوى فوق قمة جبل بروكن وتدحرج البطيخ من جديد ، وفتح عينيه يحملق باحثـــا عن المرئيات الواضحة المتميزة حيث للاشياء حدود لاتتعداها ، وهاربا من الماضى والعالم الداخلى المتضخم فى حرية خطرة •

ومنذ ثلاثة أيام ، وفى الحديقة المظلمة الخلفية ، وراء شـــجرة الجميز الكبيرة ، غمس خنجره فى دمها ثم فى دمه ، وكان يمكنه أن يستخدم وسيلة أخرى ، غير أنه أحب أن يرى قطرات الدم

تقطر منها ومنه كأنما انبعثت فيه همجية العصور جميعهـــا وقداساتها ·
وعنـــــدما أقبل النوم فى الصباح غمضوا قائلين : حبيبان منتحران · وكانت هى قد ماتت وتركته طريحا على الحشائش يشاهد أهلها وقد صبغوا وجوههن بالنيلة وهم يلطمون ، ثم غاب فى فراغ لايسمع فيه وطء قدميه ·
ذلك انها ذات يوم فى الخريف ، حين بلغ الحادية والعشرين تشاجرا وأهانها وقبلته ثم هربت منه · ومنذ أسبوع واحـد شاهدها تعود · فانتابه فرح شيطانى لانها لا شك الآن قـد عرفت كل موطن فى جسد الرجل ، وخبرت كل احســاس نسائى ، وأعطت للرجل كل ضرب من ضروب اللذة وما يشتهيه واعدت نفسها للرسالة التى حدثها عنها ذات يوم · فلمـا أقبلت قصت عليه كيف حملت منه ، ولم تســـتطع أن تجابه الناس بعارها فهربت وألقت بولدها فى اليم ، مما ذكره بما فعلته مرجريت معشوقة هنرى ذات يوم ·
اذا ذاك أدرك انها لم تستطع أن تجعل منه تلميذا ، فليست لديها اصالة النبوة ، ولا تزال تحلم بنبى بين الرجال ، وهـذا أمر قد أصبح مستبعدا ولا ضرورة منه ، فالنســاء كن الجنس المستعبد في تلك الايام ومنهن ستنبثق روح الثورة والالهـام · فأحس خيبة هائلة وتقاتل الحب والكره فى أعصابه ودق وقرر أن يرضيهما معا ، فعاقبها ، ثم عاقب نفسه على مافعل ·
ولقد مر عليه ثلاثة عند الفجر ، وكان هؤلاء هم أصدقاؤه ، أحدهم طالب طب والآخر بائع اللبن ، وربما كان فيفوستوفيلوس ثالثهم · فوجدوا أمه تقول ـ والدموع تنهمر من عينيها ـ انه فقد صلته بالعالم الخارجى منذ الليل ·
وكان يهدد المدينة فى ذلك الوقت فيضان كبير من ناحيتها الغربية ، فظل العمال ســـاهرين يقيمون الجسور على طول الشاطىء ويراقبون مواطن الضعف لئلا تتدفق منها المياه ، وكانت الجزيرة المقابلة فى النيـــل قد غرقت فنزل فلاحوها يخوضون ويجمعون بقايا حصادهم الاخير ، بينما قرب المـــاء الى احدى القرى الجنوبية فتزاحم عليها البعوض والهوام ·
ولمح الباب المغلق ، حيث يعتقد ان طريقه الى الحرية هنـاك فود لو يختم حياته بعمل عظيم : ان يتخلص من هذه الجدران

الاربعة ومن رائحة العرق وينطلق الى الخارج باحثا عن خطر جديد .. حين لمح المقعد الخالى ، فحدس انها ستقبل هنا بعد دقائق ، وتجلس على هذا المقعد فى ثوب عرسها الابيض الشفاف ثم تقوده خلال السموات التسع . وكان يحسب انه قد نسى ، غير أنه أدرك أخيرا أن الملك شهريار كان يذكر زوجه الاولى الخائنة فى كل مرة يقتل فيها امرأة جديدة .

وشم رائحة نتنة ، وخيل اليه ان الجرح الذى فى جسده ولا يراه قد ازدحم الآن بالدود ، فقد أحس به يرعى فى طمأنينة وبلا عجلة . وانزعج ان يرى نفسه يتعفن ولما يزل به رمق من الحياة . ومد يده فى خفة وحذر يتلمس موضع الجرح ، لكن يده ضلت طريقها ولم تستطع العثور أبدا عليه ، غير إنه كان واثقا ان النار والدود يرعيان الآن فيه ، وانه يمتد شيئا فشيئا ويزحف على بقية الجسد . وتعالى من حوله ضجيج حاول أن يعرف أين هو منه ، فرأى آلهة الأولمب يقيمون حفلا صاخبا فوق قمة جبل البرناس ، وكانت هناك هيلانة وباريس وبرسيفون ومانتو ابنة اسكيلاب اله الطب وهى تطمئنه قائلة : اننى أحب من يطلب المستحيل .

وكانت انفاسه الآن تحترق ، وأحس ان الدم ينزف منه بغزارة ومن قبل كان قد صارع كل لذة وكل ألم ، وعرف دفء المرأة وشراستها ، وضعفه هو وقوته . وبلغ اليوم سن الرجولة والنضج بعدما تزود بتراث العالم وحضارته ، وخبر الناس ومعاملتهم ، وتجاذبه الحلم والواقع ... وكانت الظلمة التى تحجب كل شىء أمام عينيه ما تزال تفزعه ، فغمغم فى صوت خفيض متعب . اين الانوار ؟ .

ورأى طفلا ـ ربما كان طفله الذى لم يره ولن يراه ـ ذهبى الشعر أزرق العينين قاتم الاهداب كأنه حلم عذراء شرقية ليلة زفافها يقف وسط الغرفة وفوق بقعة الدم العظيمة ويمسك بوقافضيا كبيرا بين يديه ولا صوت يخرج ، غير ان الغرفة تمتلىء بالهواء ، وتمتلىء وتمتلىء حتى لا تقوى حيطانها على الصمود ، فتتناثر أجزاؤها وتهوى فى الفراغ .

فى هذه اللحظة اقبلت امه تداعب شعره وتقول : لا شك أنك تحسنت الآن ، ففتح عينيه ورآها وهز رأسه وابتسم ، ثم أغلقهما ربما الى الأبد .


جسد
من... طين

كانت ليزا قد بدأ يضعف أملها في الزواج ، فقد رأت صديقاتها يتزوجن الواحدة تلو الأخرى وهي تعبر ربيعها الواحد تلو الآخر حتى هذا الربيع الثامن والعشرين بغير أن يتقدم أحد لخطبتها ٠

وكانت ليزا تعلم أن وجهها ليس جميلا ، لاسيما منذ أصابها ذلك « الجدري اللعين » فترك على وجهها ندوبا شوهت منه كثيرا، لكنها كانت تؤمن ايمانا راسخا بجسدها ، وكثيرا ماتحس الاحتقار نحو صديقاتها لأنهن لايملكن ماتملكه هي من الجسد ، وترمي الشباب بالبله والغفلة لانهم لاينتبهون الى جسدها الذي تحسبه لدنا دافئا كلما احتواها فراشها في ليلة باردة ، فتتمتم: ما أسعد الرجل الذي سيضمني اليه ٠

ولم تكن ليزا قد عرفت الحب ، ومع ذلك فانها كانت قد تعودت أن تحلم بأشياء عجيبة مرهقة لايستطيع أن يتخيلها أحد غيرها، فكانت تستطيع أن تحلق بجسدها الغض الرائع الى قصور ذهبية أو الى جنات سحرية حيث تجول دائما وفي اهتمام كأنما تبحث عن كنز ، حتى تبهر أنفاسها ويضطرب جسدها كله وهو يحلم معها في وعي وعنف ، وتستيقظ ثائرة من حلمها لأن هذه الافكار المخيفة تملأ قلبها ، وتستطيع أن تزورها من حين لآخر، فتقرأ من كتابها الديني ماهو كفيل بأن يطرد الشيطان ٠

لكن شابا صغيرا كان قد بدأ يصاحبها في هذه الرحلات البعيدة المرهقة ، طالبا من طلبة الطب ، سكن حديثا غرفة تطل على غرفة نومها ٠ كانت تلمحه يسارقها النظر وهي مستلقية في استرخاء على فراشها نصف عارية ٠ أتراه جسدها الرائع قد أثار اهتمامه وخلق في نفسه أحلاما عجيبة سحرية كالتي يخلقها لها؟ ومنذ أيقنت أن الطالب متنبه لوجودها بدأت تحس أن جسدها يزداد جمالا يوما بعد يوم ، وأن ثدييها لم تكونا من قبل في مثل هذا النضوج والتكور ٠ وقد كانت ليزا فتاة متدينة جدا ويؤلمها أشد الألم أن تجول برأسها مثل هذه الخواطر ٠ وكانت تطمئن نفسها أن المسألة لاتعدو مجرد فكرة في لحظة ضعف ـ لكن جسد ليزا كان جميلا حقا وقويا حقا ، وكانت له مطالب حرمها بسبب وجهها ٠

وقد جاء محيي الى العاصمة حديثا ، فر من هذا الجحيم الذى كان يحياه في سوهاج ، وكانوا يحدثونه دائما بأنه واجد فى القاهرة مرتعا لملذاته وتحريرا من كل ضغط أو قيد .

وقد أقبل الى القاهرة ، غريبا وحيدا ، وهو يخجل أن يقول لأحد أن الأسباب القوية التي دعته أن يلتحق بالطب هى أن يتمتع برؤية أجساد الفتيات عاريات ، فقد حدث أنه بلغ العشرين ولم ير فتاة عارية أبدا ، ولايزال يذكر ابنة عمه الحسناء وكيف استطاع طبيب المركز أن يفوز فى لحظة برؤية جسدها البض الطرى الذى يشتهيه ، وهو ماظل يحلم به عبثا أعواما طوالا فجاء العاصمة كالذئب النهم ، يبحث له عن فريسة فى أى مكان، وكان قد أقنع نفسه منذ زمن طويل أنه بهذا يريد أن يعبر مرحلة الطفولة الى مرحلة الرجولة ، كما كان يؤلمه احساسه أن حياته حلم طويل ، طويل لافعل فيها .

وقد كانت أول رؤيته لليزا على سبيل المصادفة . لابل نتيجة طبيعية حتمية بعد هذه الممهدات التى تجعل من رؤيته لهـا عملا مقصودا ومطلبا له من ورائه غاية . كان قد جاء غرفته الحديثة ذات ليلة فوجد الهواء خافتا غير نقى ، ففتح النافذة على مصراعيها ...

واندفع نسيم بليل ملأ به رئتيه . لكن ضوء القمر الناعم الندى لم يكن يستطيع أن ينفد داخل الغرفة ، واشتاق محيى أن يراه فأخرج رأسه يتقبله .. ولفتت نظره هذه الغرفة التى تطل عليها نافذته ، فقد كان ثمة شبح لامرأة تتقلب على سرير فيها ، وكان ضوء القمر الباهت يغمر جسدها وهى ترتدى غلالة شفافة ، وكان هذا حدثا خطيرا فى حياة محيى ، فتلك أول مرة يرى فيها امرأة نصف عارية ، وكان الضوء ناعسا لاتكاد تبين فيه المعالم ، فحاول جاهدا أن يكمل الصورة من خياله الخصب حتى أحس غرائزه تثور وقد تعودت بعد ذلك هذه (المصادفات) بينما كانت ثمة معركة ترهق ليزا وأحلامها ، فقد بدأت تحس بوضـوح وجود ذلك التناقض بين مطالب جسد من الطين وما يتطلبه خلاص روحها واستمرارها نقية طاهرة، وكان جسدها دائما ينتصر ، لكن ثمة فكرة ، كانت صغيرة تافهة أول أمرها ،

ذلك أن الشيطان قد اختار هذا الشاب لاغوائها • هذه الفكرة بدأت تتضخم وتتضخم حتى أصبحت كالحقيقة في نفس ليزا • ومع ذلك فان ليزا كانت تشتاق أكثر وأكثر الى أن تهب هـذا الشيطان جسدها ، حتى أصبح هذا الاشتياق مزمجرا عاليا لدرجة أنها كانت تفزع منه الى آياتها المقدسات تلتمس الخلاص •

ورغم أن محيي تبين وجهها المجدور ،وأسف لهذا بعض الشيء الا أنه رأى في ذلك مايجعل الجو أمامه خياليا يعينه على أن يحقق الفكرة التي بات يحلم بها ويأمل فيها حتى أصبحت ملحة مرهقة تدفعه دفعا كي يحيلها الى فعل •

ولقد حدث أن فاز بها ،قاومته أولا،ثم حدثته عن الحياة وكيف أنها واد للشقاء والدموع ، وكيف أن للجسد مطالب وللروح مطالب تناقضها ، وأننا يجب أن ننتصر في هذه المعركة مهمـا تألمنا ، أن نقضي على شهوات البدن ورغائبه ونسـمو بالروح ونطهرها • ورأت الدهشة في عيني الطالب ، وخافت أن يقتنع بما كانت تقول ، ثم رأته يسخر منها وهو يحـاول أن يلمس جسدها ، جسدها الجميل الذى أخذ يقشعر الآن ، وأحست أنفاسه الحارة تلفح وجهها المجدور ، لكن يده كانت تقترب من جسدها •• اللدن •• الشهي •• وراودتها الفكرة المزعجة ،أنها أمام شيطان متجسد ، فخافت لحظة ، ثم سألته وهي تريه أنهـا تبتعد :

لماذا لاتعاني أنت الآخر ؟ قال : لقد كانت ثمة معركة صغيرة قضيت عليها ، لكنها لم تكن بين مطالب جسد ومطالب روح، بل بين مطالبي أنا ومطالب المجتمـع ، ولقـد رأيت مطالب المجتمع قاسية ظالمة ومطالبي أنا عادلة لذيذة ! فانتهت المعركة • واقتربت منه ليزا ، وهي تحس أن رغباتها الهائلة العنيفة التي يخفيهـا المجتمع في قسوة مع جسدها الجميل خلف ذلك الوجه المجـدور قد آن لها الآن أن تنفجر من عقالها •

لكن ليزا لم تستمتع في هذه الأمسية كما استمـتعت في الأمسيات السابقات ، أحست كأنما صدمت رأسها الصـغير بحائط هائل ، وأن عليها أن تترنح الآن • وشعرت أن الشاب

الصغير أذلها ، وحاولت في عبث أن تفهم لماذا لاتكون هى التي انتصرت ؟ أما حققت ماكانت تبغى ؟ ثم ضميرها ، ضميرها الذى أرقدته حين ثار جسدها قد عاد الآن من جديد يسحقها ولايكاد يرحمها . ثم المجتمع ـ ماذا لو حملت جنينا ؟ ماذا لو عرف أهلها وصديقاتها ، ووجدت نفسها تتحطم ، وما عاد لها القدرة على أن تحلق من جديد أو ترحل نحو هذه الأراضى السحرية البعيدة بل أصبحت كطائر قص جناحاه كلمـــــا حاول أن يطير عاد الى الأرض من جديد وأزعجتها هذه الفكرة المخيفة وأن الشـــيطان قد أفلح فى اغرائها فتلوثت روحها الطاهرة كما تلوث جسدها البض الدافىء ..

وفتحت ليزا نافذتها فى جنون تنادى على محيى بصوت مبحوح وعيناها واسعتان من الخوف . فقد كانت تريد أن تتأكد من شىء يزعجها الآن ، بل يجنها ، لكن نافذة محيى كانت مغلقة والسكون الرهيب لايريم عنها . وجحظت عينا ليزا وأفزعتها الفكرة أكثر وأكثر مما أفزعتها فى أى وقت آخر . وبدأت تتيقن أن الذى ضم جسدها الرائع هذه الليلة لم يكن انسانا ، بل روحا خبيثة مضت الى عالمها بعدما أغوتها . وأخذت تنبعث فى نفسها كـل ماسمعته فى طفولتها من أساطير وقصص عن شياطين أفلحوا فى اغراء عذروات أمثالها . فمضت تبكى وقد أمست على يقـين أن الشيطان أصبح له الآن حق فى أن يشاركها غرفتها .

وفتحت ليزا نافذتها مرة أخرى ونادت على محيى للمرة الأخيرة لكن النافذة كانت لاتزال مغلقة . وعندما بحثت عن كتابها الدينى لم تستطع أن تهتدى اليه . أما الآيات التى استطاعت أن تذكرها فما كانت الا لتزيدها احساسا بثقل الخطيئـة التى ترزح الآن تحتها . ولقد حدث قبيل الفجر أن ألقت ليزا بنفسها من النافذة .

أما محيى فقد أمضى ليلته محتفلا بنشوة هذه الأمسية ، وعاد الى غرفته قبيل الفجر . وفى الصباح علم بما فعلته ليزا ، فأسف لهذا بعض الشىء ، ولكنه كان واثقا أن التهمة التى طالما وجهها الى

نفسه وهي أنه دائما يحلم ولايستطيع أن يفعل ، قد انتهت منذ تلك الليلة الرائعة ٠

كل ماقاله وهو يحزم أمتعته لينتقل الى غرفة أخرى: ما أسخف المعركة التى تنتهى فى نفس انسان بمثل تلك النهاية ٠ ثم مضى يحزم أمتعته آسفا لأنه لن تتاح له فرصة أخرى كى يضم اليه جسد ليزا ٠ لكنه كان واثقا أنه انتقل أخيرا من حياة الحلم الى حياة الفعل ٠



زوجي

٥ من ابريل ٠

كنت أسير بالأمس مع زوجي ، حين قابلت زينات ٠ ولم أكن قد رأيتها منذ خمسة شهور ـ أي منذ زواجي ـ فاستأذنت زوجي ، ووقفت معها بضع دقائق اسألها عن حالها وصحتها ، فعلمت منها أنها لاتزال تشتغل بالتدريس ، وأنها كانت قد خطبت ثم فسخت خطبتها ٠ وطلبت منها زيارتي فاعتذرت بكثرة مشاغلها ٠ والواقع أنني لم أكن جادة في دعوتها ،فلم تكن لي بزينات علاقة وثيقة في يوم من الايام ٠ ولست أذكر أنني ذكرتها في هذه الاشهر الخمسة يوما ما ٠

ولكن عندما عدت أسير الى جانب زوجي ، رأيت على وجهه بعض الشحوب ، وهو يسألني في استياء : هل تعرفين هذه الفتاة منذ زمن طويل ؟ فأجبته بأنها كانت زميلتي في الدراسة يوما ما ٠ فقال في حدة لم أعهدها فيه : أرجو ألا تطيلي الوقوف مع من تقابليهن في الطريق وأنا سائر معك ٠ فسألته ، لمجرد الحديث ولتخفيف حدة هذا « الرجاء » : يبدو انك تعرفها ؟ فأجاب لدهشتي : نعم لقد كنت أعرفها ذات يوم ٠

وحاول بهذا أن ينهي الحديث ، ثم صار صامتا على غير عادته حتى وصلنا الى المنزل ٠

وفي الفراش تذكرت ماحدث فجأة ، وذكرت تفاصيل وجهه ونبرات صوته ٠ وتبادر الى ذهني ـ لسبب يبدو غير منطقي ـ ان ثمة علاقة كانت بين زوجي وبين زينات انتهت نهاية غير سارة على أن هذا كان مجرد خاطر قد يكون تخمينا لامعنى له لشيء تافه ربما حدث عرضا خاصة وان أكثر مايتبادر الى أذهاننا في مثل هذه الاحوال هو عادة أبعد مايكون عن الواقع على أية حال فأنني أعرف كيف اكشف سر الأمر ٠

١٠ من ابريل ٠

عندما جلسنا الليلة للعشاء ، تعمدت أن أذكر اسم زينات أمامه ، فقلت له : انني سأسمي مولودنا الأول باسم « زينات » ان جاء أنثى ٠ وقد حدث ماتوقعته ، فانه حدق في استياء نحوي ، ثم صمت ، فمضيت في الحديث قائلة : هل تعرف انني دعوت صديقتي زينات الى زيارتنا ؟ فبدا عليه الاهتمام وقال : ماذا ؟

وهل ستأتى ؟ ثم عاد يقول : زينات لن تدخل هذا المنزل،لاشك انك تعرفين القصة منها أو من زميلة لها ، فأجبت ، وقد علمت اننى على وشك الحصول على ما أريد : أية قصة تعنى ؟فأجاب : يجب أن أوضح لك الأمور ياهدى ، ان هذه الفتاة خدعتنى بأنها فتاة كاذبة جبانة ، بأنها الفتاة التي ذكرت لك من قبل انهـــا وافقت على زواجي بها ، حتى اذا ماتهيأ كل شيء فضلت عـــلى شخصا آخر لأن مرتبه يزيد على مرتبى بضعة جنيهات ٠ ولكنه مالبث أن تركها ، فانتقمت لى الاقدار ٠ انها فتاة مادية حقيرة ، كيف كنت أحبها ؟ هذا هو مايزعجنى ياهدى٠٠ لكن مالى أذكرها الآن ؟ لقد انتهى كل شيء ٠

ومع ذلك فأنه ظل يتحدث عنها نصف ساعة ؟ وكان يعتـــذر قائلا أنه كان يريد ألا يذكر لى شيئا أول الأمر ، لكن يبـــدو له الآن أن اخبارى بقصته معها معناه ان علاقته بى قداستوعبت علاقته بزينات ، وهذا معناه ان حاضره معي قد شمل ماضيه ، وهذا هو طريق الخلاص الوحيد من ماضيه ٠

من الغريب أن ماتبادر الى ذهنى منذ أيام كان صحيحا،ولست أفرق كثيرا بين الكره والحب ، فالكره ـ مثل الحب ـ ليس سوى درجة من درجات الاهتمـــــام بالآخر ٠ وانني لأكره أن يهتم زوجى بأخرى ٠

١٣ من ابريل ٠٠

ليس نقيض الحب هو الكره ، بل هو عدم الاكتراث ٠ ان زوجي لايزال يعيش ـ بفضل كرهه ـ مع زينات هذه ٠ وكأنما يجد في « كرهه » هذا مايبرر له أن يجتر أيامه معها ٠ لقد حـــدثنى عنها اليوم مايقرب من الساعة الكاملة ، مبررا ذلك بأنه يريد الخلاص من ماضيه ، وان يستوعب حاضره ـ يعنى أنا ـ كـــل علاقاته السابقة ٠ وحين ذكرت له أنها لاتستحق كل هذا الكره والاهتمام ، قال : وهل تظنيننى أكرهها ؟ كلا ، بل انني أحتقرها ٠ تصورى أننا كنا نسير على شاطىء النيل فى ضوء القمر وهى تقول لى : لن أعرف حبا غير حبك ٠ ثم تدع يدى تضغط عـــلى يدها برفق ٠ وبعد ذلك بشهر واحد ، شهر واحد ياهـــدى ، أراها تهيننى ! ؟

ورأيته يتحول أمامى الى طفل فى حاجة الى الرعاية والحنان ، وانني لاخشى أن يكون زواجه بي مجرد محاولة للانتقام من زينات . ولا شك أننى أجمل منها . وأننى لأكره أن أكون مجرد أداة لانتقام عاطفى .

٢ من مايو ...

يا الهى ! انني لم أشغل بزوجي من قبل مثلما شغلت به هذه الأيام ! لقد دخلت أنا وزوجي مطعما مساء الأمس ، وفجأة وجدنا زينات أمامنا . فبادرت بتحيتها وتقديم زوجي اليها . لقد حاولا أن يجيدا التمثيل باعتبار أنهما لم يعرفا بعضهما من قبل أمام ثالث يعرف أمرهما ! لكن زوجي أخطأ فى التمثيل ، فقد حياها تحية رقيقة جدا لم أسمعها منه لأحد من قبل، ولا حتى لى !

وقلت فى نفسى أن مجرد ابتعاده عنها يضخم كرهه لها ويشغله بها دائما ، أما الآن عندما يتقابلان ويتعاتبان بالنظرات، فان كل شيء ينتهي . أليس هذا ماكان من شأن محسن معي ؟ لقد ظللت أكرهه عامين ، ومع ذلك فبمجرد أن تقابلنا وتعاتبنا لم أعد أذكره الا لماما وهذا ماكنت أريده تماما .

وجلس ثلاثتنا فى المطعم ، وتناولنا الطعام معا . وتحدثنا عن الجو وعن الاخبار السياسية وعن ألوان الطعام . ويبدو أن كره زوجي قد تبخر تماما ، كان لطيفا وأنيقا ورقيقا جدا حتى لقد اندفع فى حماسة عاطفية يدعوها الى زيارتنا ، ويذكر لها انني اقترحت أن تكون اسم مولودتنا « زينات » .

وقد عاد الى المنزل ، وعليه آثار الارتياح ، كأنما انتصر أخيرا فى معركة كان قلقا على نهايتها .

٢٠ من مايو .

لقد صح ماتوقعته ، فلم يعد يذكر زينات بالخير أو بالشر . لقد قضيت على وسيلة الاهتمام بها .

٧ من يونيو ..

زارتنا زينات بالأمس . ولم يكن زوجي موجودا بالمنزل . وقد كنت أتأمل طيلة الوقت فيما يمكن أن يجذب قلوب الرجال نحو هذه المرأة . هل هى رقتها حين تضحك أم وحشيتها حين

تغضب ؟ على أية حال ظللنا ننتـــظر مجيء زوجي عبثا ونحن نستعيد ذكريات الدراسة وصديقاتنا وما انتهين اليه اليوم . لكنها ماكادت تخرج حتى أقبل زوجي . فلما أخبرته بمجيئها بدا عليه هذا الاهتمام ، وقذف بما كان في يديه على المائدة ، ثم خرج يهرول عساه يلحق بها . ثم عاد بعد دقائق يخبرني إنهلم يتمكن من اللحاق بها !

٢٩ من يونيو ..

لقد فوجئت بالأمس حين رأيت زوجي مقبلا مع زينات ! وظلا يتضاحكان أمامي بدون اكتراث لعواطفي . ان هذهالمرأةأهانتني في أنوثتي . لماذا مهدت لزوجي سبيل الاتصال بها ؟ انني أنا التي أطالب اليوم ألا تدخل منزلي ، ولن تدخل .

من قال ان الكره يمكن أن يتحول الى عدم اكتراث ؟ ومنقال ان ماحدث بيني وبين محسن يمكن أن يحدث هو بنفســه بين زوجي وهذه الفتاة زينات ؟ ان الكره قد يتحول الى حب كما ان الحب قد يتحول الى كره !

١٥ من أغسطس .

أحس صداعا شديدا في رأسي . لست أذكر ســـوى انني تذكرت ذات لحظة انني شغلت بزوجي عندما رأيته يشغل بأخرى فأردت أن أحمله أن يشغل بي بالطريقة نفسها . فأخبرته بقصتي مع محسن ، وادعيت انني لا أزال أحبه . ولدهشتي وخيبـــة أملي حدث عكس ماتوقعت ، فقد قال لي جادا : ولماذا لاننفصل ، وتتزوجين أنت محسنا هذا ، وأتزوج أنا زينات ، وأحسست الجنين يتحرك في أحشائي ، والدم يغلي في عروقي .

لن يحدث هذا أبدا ، فليكره زينات من جديد مادام اهتمامه بها ضرورة له . ان كرهه لها كان يعطيه القوة لكي لايقترب منها لأنه يعرف أنه اذا اقترب منها فسيعود الى حبها ، لقد كان محقا في اعتراضه على دخولها منزلنا ، ولن تعود الى دخوله .

٣ من سبتمبر ..

كنا نحتفل الليلة بمضي أســـبوع على ولادة ابني الاول . وبعد ماانفض الاصدقاءوالاقرباء ، وبقيناوحدنا ، أحسست لأول مرة اننا لم نعد اثنين .

نظر الى طفلنا وقال : كلا ، لم يكن حبا لها من جديد • ان الحب ليس سلعة يمكن أن نفقدها ثم نعود نستردها • ان من شوهت الاحقاد حبه لايمكنه أبدا أن يستعيده من جديد • بل الارجح انها كانت محاولة لاسترداد كرامتي ، وكانت هذه المحاولة تحمل في طياتها رغبة في الانتقام فافعل معها مافعلته هي من قبل معي • وزينات لم تكن قد دخلت المعركة لكي تهزم ، والا لظلت بعيدا ، كانت تريد أن تظفر هي أيضا بانتصار جديد • لكنها لم تكن شريرة بالدرجة التى تصورتها ياهدى • كانت تريد أن تتمتع باشفاقها علي ، وبهذا تمحو من نفسها ومن نفسي ماكنت اتهمها به من قبل • ولم يستسلم أحدنا للآخر ، وعرفنا أننا نعذب بعضنا • وتنبهت فجأة الى أن الانتقام عاطفة الرجل البدائي ، وأن الكرامة أيضا لاتفقد ، ثم تسترد بل هي شيء ننمو به في كل مجال جديد يبدو أمامنا • وخفت أن تكون هذه جميعها وسائل أبرر بها رغبة لاشعورية فى الاقتراب منها ، من الانسان الذى سبب لى ألما ذات يوم كالمجرم الذى يدور حول مكان جريمته • وكنت أعلم أن محسن وهم خلقته انت لكى تبرز امامى معركة علها تصرفنى عن معركتى التى كنت جد مشغول بها وكان ثمة طفل ينتظرنى •• ان زينات لم تكن سوى الجانب المؤلم فى حياتى أما أنت •• ثم ضمنى اليه يقبلنى •

عند ذاك انحدرت من عينى دمعتان ، وسمعته يقول : لماذا لانكاد نعبأ بجانب النور فى حياتنا ، يجب أن نمرن عواطفنا على ذلك ، وسنساعد بعضنا ياهدى •• وغاب عنى صوته حين ارتفع صوت طفلنا العزيز وأنا أغمغم قائلة : أنت زوجى الآن !

نادى القصة

يقـــدم

عبد المنعم السباعى

فى

كؤوس الشقاء

الـكتاب الذهبى

العـــدد الثانى والثلاثون

يصدر فى يناير سنة ١٩٥٥ ــ الثمن عشرة قروش

الـكتاب الذهبى

العدد الحادي والثلاثون ـ ديسمبر سنة ١٩٥٤
يصدر عن دار روز اليوسف
١٨ شارع محمد سعيد ـ القاهرة
تليفون : ٢٠٨٨٦ ـ ٢٠٨٨٧ ـ ٢٠٨٨٨

الاشـــتراكات

مصـر : ١٢٠ قرشا عن سنة ـ ٦٠ قرشا عن نصف سنة
الخارج : ١٨٠ قرشا عن سنة ـ ٩٠ قرشا عن نصف سنة

الاعلانات يتفق عليها مع الادارة

رئيس التحرير المسئول : سعد الكفراوى خليل

تطلب مجموعة الكتاب الذهبى من المكتبات الآتية :

مكتبة الخانجى بالقاهرة ت ٤٣١٤٨ ـ ومن مكتبة المثنى ببغداد ٣٥٨٨ ـ ومن المكتب التجارى ببيروت ت ٢٣ ـ ٢٠ ومن مكتبة النجاح بتونس ـ ومن دار روز اليوسف ١٨ شارع محمد سعيد ت ٢٠٨٨٨

جميع الحوالات المالية ترسل باسم « روز اليوسف »
بريد البرلمـان

طبع بمطابع « روز اليوسف »


نادي القصة
الكتاب الذهبي

